

أبعاد المؤثر الاسلامى

فى

القصيدة العربية

تأليف

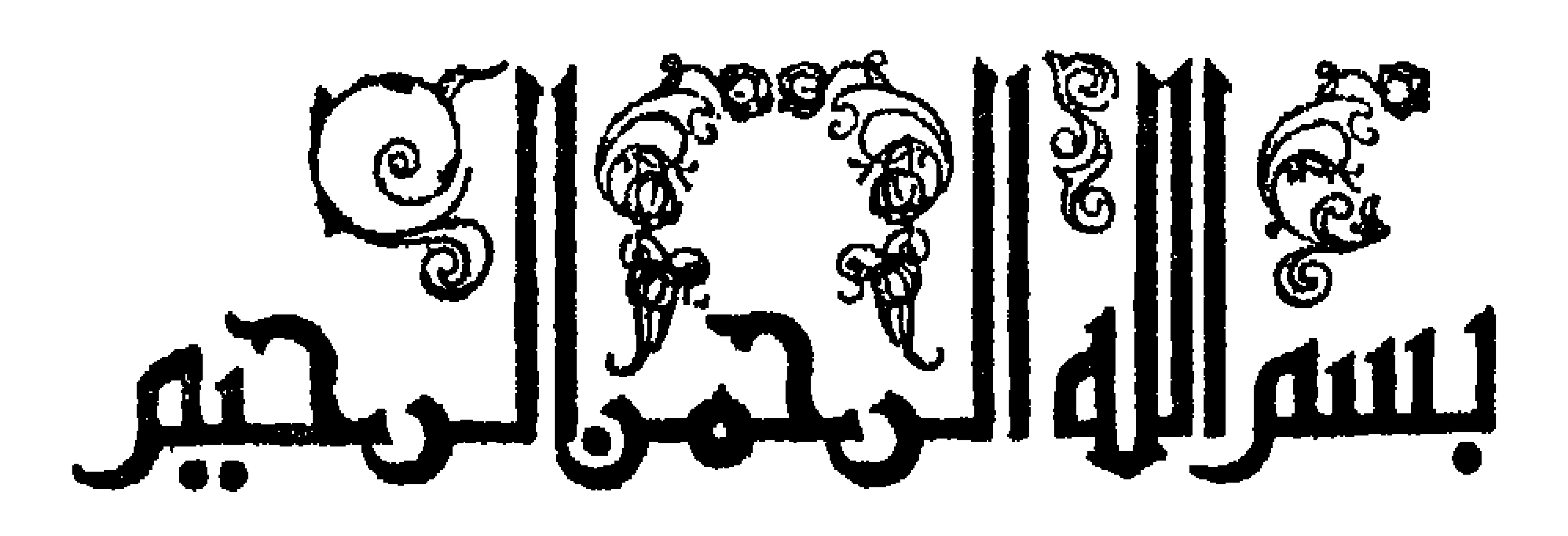
د . / عبد الله التطاوى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

دار الثقافة للنشر والتوزيع

٢ ش سيف الدين المهرانى - الفجالة

ت : ٩٠٤٦٩٦


بسم الله الرحمن الرحيم

أستاذنا الجليل الأستاذ الدكتور
مصطفى الجويني
مع مودة وإعزاز وتقدير

١١/٢/٩٢

أبعاد المؤثر الإسلامي في القصيدة العربية

تأليف

د. / عبد الله التطاوي
كلية الآداب - جامعة القاهرة

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ شارع سيف الدين المهراني - القاهرة
ت / ٩٠٤٦٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بلغت القصيدة العربية مرحلة من النضج الفنى ودرجة عالية من الاكتمال قبل مجيء الدين الإسلامى ، فقد حفظ أبناء مجتمع الجاهلية جل — أو كل — ما نظمه شعراؤه من معلقات ، أو قصائد ، أو مقطوعات وظلوا يتوارثون ما يحفظون خلفا عن سلف ، واستمرت ظاهرة الحفظ هذه أساسا لضمان بقاء هذا الشعر إلى أن جاء عصر التدوين ، ووقف الرواة عند جمع هذا الشعر من مظانه الأولى لدى أبناء القبائل البدوية ، وراحوا يدونونه ويوثقونه على نحو ما كان من المفضل الضبى ، والأصمعى ، وحماد الرواية ، وخلف الأحمر وغيرهم من الرواة ، على اختلاف درجات الثقة فى كل واحد منهم على حدة .

ولعل أهم ظاهرة تميزت بها القصيدة العربية الجاهلية أنها ظلت متوارثة عبر الشكل أو القالب الفنى ، فى الوقت الذى شهدت فيه تغايرات وتحولا طبقا لطبيعة الموضوعات المختلفة التى عالجها الشعراء ، فكان من أكثرها بروزا شعر المدح والفخر والهجاء والرثاء ، وكذا شعر المعارك والحماسات مما صور أيام العرب الطوال ، وأبرز شريعة الغزو التى سادت بين القبائل حتى كادت تهدد بعضها وتنذر بالفناء .

ومما لا شك فيه أن الشاعر الجاهلى قد وعى حقيقة موقفه حين عكس موضوعات البيئة ، فصورها فى أى من موضوعات الشعر ، مستغلا بذلك ما هيىء له من حرية الاختيار التى ارتبطت بطبيعة المعطيات التى ألفها الشاعر فى بيئته البدوية ، فكان أمينا فى صدوره عن معجمها حتى فى أشد لحظات تمرده عليها ، ولذا كان المعجم

الجاهلى هو المصدر الوحيد لأولئك الشعراء ، كما كانت البيئة بكل مظاهرها المرئية والمسموعة والمحسوسة مصدرا للتصوير ، والتقاط المشاهد التى استوقفت الشاعر لكى يصورها ، ويتخذ منها مادة لفنه .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذه المقدمة ان استمد شعراء الجاهلية مادتهم اللغوية والتصويرية من أصل واحد مشترك ، التقت فيه اتجاهات الشعراء سواء منهم من كان قبليا أو متمردا على نظام القبيلة ، ذلك أن نظرة سريعة إلى ديوان شاعر مثل طرفة بن العبد الذى ضاقت به القبيلة لإسرافه فى السكر وانصرافه إلى حانات الخمر ، لم يستطع أن يصدر شعره إلا من منطق قبلى لغة وصورة ، وكأن أحادية المصدر قد فرضت نفسها على شعراء العصر فرضا ، الأمر الذى قد نلتمس له نظيرا آخر عند صعاليك العصر الجاهلى ممن تمردوا على النظام القبلى ، وحاولوا الخروج على المنهج العام للقصيدة ، ولكن ذلك الخروج على المنهج العام بدا شيئا ، وارتباطهم باللغة والصورة ومعطيات معجم القصيدة ظل موقفا آخر مختلفا تماما .

وحين نقول بأحادية المصدر فليس معناه أن ثمة انغلاقا فرض نفسه على الشعراء ، ولكنهم بدوا شديدى الاعتزاز بمعجم البداوة من منطق الولاء له ، وشدة الحرص على الانتماء إليه ، ولذا يبقى استثناء لابد من التنبيه إليه ، يتعلق بشعراء قبليين كانت لهم صلات حضارية بحكم زياراتهم للإمارات المجاورة ، فالتمسوا من مظاهرها وصور الحياة فيها بعضا من صورهم الشعرية ، ولكنهم لم يأخذوا من لغتها بشىء يستحق الذكر أو التسجيل ، على نحو ما كان من صلات النابغة الذبيانى بالمناذرة ، وحسان بالغساسنة ، وكذلك ما كان من اتصالات حضارية للأعشى وعدى بن زيد اللذين عرفا بصلاتهما الحضارية العميقة بإمارة الحيرة .

وهكذا ظل المعجم البدوى مسيطرا على ذاكرة الشاعر ، وكأنه المعيار الأوحد للأصالة ، والضمان الوحيد لعدم وقوع الشاعر فى

براثن الزيف الفنى التى أنف منها شاعر العصر فى ظلال وحدة الثقافة التى غلبت عليه .

وعلى هـذا بدا الاتجاه العام للموقف من قبل شعراء العصر متجها إلى الإغراق فى حس البداوة والانخراط فى ظلال صوره باعتباره تراثا خالدا وواقعا معاشا ، وكأن الشاعر يخشى أن يبدأ من فراغ ، فإذا هو يسـند ما يأتى به فى معجمه من صورة أو معنى إلى شاعر سابق ، يجد فيه سـنده التراثى على نحو ما عرضـه قول امرئ القيس فى بيته المشـهور :

عوجا على الطلل المحيل لأننـا
نبكى الديار كما بكى ابن حذام

أو قول عنترة فى بيته المعروف فى مطلع معلقته :

هل غادر الشـعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعـد توهم ؟

وكذا ما ذهب إليه كعب بن زهير دون حرج أو وجل فى تصوره لهيمنة التراث ، وكأن الأول لم يترك للآخر شيئا :

ما أرانا نقـول إلا معـارا أو معادا من لفظنا مكـرورا

والشاعر يرتضى لنفسـه ذلك ولا يأنف منه ؛ فلا مانع لديه من أن يكرر نفسـه ويكرر أباه وغيره من شـعراء العصر ، ألم يسـلم بأن المصدر واحـد مما يجعل من حقه وحق غيره أن يأخذ منه ، ومع اتفاق المصدر يزداد احتمال هذا التكرار فى الفن .

ويظل المعجم الجاهلى مسـيطرا على ذاكرة الشاعر لا تكـاد تتجاوزه أو تجور عليه إلى أن يأتى المصدر الإسـلامى مع انتشار الدين الجديد ، وأفول نجم الجاهلية ، ومع هـذا المعجم يبدأ الشاعر المسلم يتوقف ، وكأنه استيقظ لأول مرة أمام ثنائية لا يستطيع اغفال

جانب منها ، فهناك تراث جاهلى كامن فى أعماقه ولاوعيه لا يستطيع ــ بالطبع ــ أن يتخلص منه بين يوم وليلة ، ولا يستطيع ــ أيضا ــ أن يتنكر له أو يرفع فى وجهه راية العصيان ، وأمامه أيضا معجم إسلامى جديد بدأ يردد ألفاظه ويتردد على ضوره ويستمد من معجمه ولا يستطيع أيضا إغفاله لأنه يمثل الجانب العقائدى الذى يشغل فكره بنفس العمق بل ربما أخذ بعدا خاصا أشد عمقا وأكثر ظهورا وتأثيرا .

من هنا كان سعى هذه الدراسة الى التعرف على المؤثرات الإسلامية التى تركت آثارها فى موضوعات الشعر العربى القديم . حيث تتوقف عند ملامح هذه المؤثرات من منطق التحليل والتعليل ، ومحاولة كشف الأبعاد المتنوعة لها . وبذا فهى لا تقف عند حدود شعر الدعوة الإسلامية ، فلهذا النمط من الشعر ظروفه ومواصفاته ، وموضوعاته ، وحدوده ، وسماته الفنية الخاصة التى تميزه . ولكن هذا الدرس ينحو منحى خاصا يحاول فيه رصد معالم المعجم الإسلامى كما استوحتها القصيدة العربية ، واستوعبها شعراؤها ، وكيف استقرت هذه المعالم فى أذهان الشعراء على مدار الحركة الأدبية فى عصورها المختلفة . كما يحاول هذا الدرس أن يكشف ما أصاب القصيدة من تحول تحت وطأة هذه المؤثرات ، وكيف أثرت فيها طبيعة المادة التى حدث فيها التحول ، وقد التقطها الشعراء ، فراحوا يعالجون القصيدة من خلالها بما يفى بوظائف الشعر كما فهموها وصدروا عنها .

ولعل كثيرا من الدراسات الأدبية قد توقفت أمام التيار الإسلامى ، وكيف استطاع توجيه حركة القصيدة العربية على سبيل التوظيف من أجل الدفاع عن قضايا الدين ، أو تبنى الدعاية له ، والانتصار لقيمه ومبادئه ، وظهرت الموسوعات الأدبية التى احتوت رصيداً طيبا من هذا الشعر على نحو ما رصدته موسوعة أدب الدعوة الإسلامية(١) ،

---

(١) جمع وتحقيق عبد العزيز بن محمد الزير ومحمد بن عبد الله الأطرم بإشراف الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا .

وما ظهر فى مدرسة الدراسات الأدبية من محاولات للتوقف عند تلك الأنماط التى وظفت فى خدمة الدعوة الإسلامية • ولعل ما اتسمت به هذه الدراسات من الجدة والكثرة ، قد يدفع إلى ضرورة عرض هذه المحاولة استكمالا لاستكشاف جوانب التأثير الإسلامى فى كل موضوعات الشعر ، ولدى عديد من الشعراء من ذوى الاتجاهات المختلفة سواء منهم من قصد إلى الدفاع عن موقف دينى ، أو من سار فى سبل أخرى شغلته فيها الحياة ، أو قضايا مجتمعه ، أو مشكلاته الخاصة ، على أن يكون المؤثر الإسلامى بمثابة الموجه لحركته ، أو المنعطف الذى يلجأ إليه فى فنه ، ومن ثم تبرز اتجاهات هذه الدراسة حول طبيعة المادة التى تعامل معها الشاعر ، وكيف استطاع المعجم الإسلامى أن يفرض عليها من مؤثراته ما يسهم في توجيهها طبقا لطبيعة الموضوع الذى يعرضها من خلاله ، واتساقا مع طبيعة المواقف التى يعيشها الشاعر ، وتناغما مع ظروف العصر وحس الحضارة ، أو ألوان السياسة التى تعرفها البيئة فى زحام التيارات المتجددة تجدد الحياة الأدبية ذاتها •

من هنا يبقى لهذه الدراسة حجمها المحدود من خلال هذا التناول وذلك الرصد لتحول المؤثر الإسلامى وتجدده عبر العصور القديمة والوسيطة علها تضيف جديدا إلى هذا المجال ، وإلا ظلت خطوة على الطريق ترشد إلى استكماله وتتبع المسيرة من خلاله •

نسأل الله التوفيق والسداد

« ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا »

صدق الله العظيم

عبد الله التطاوى

القاهرة ١٩٨٩

الفصل الأول

المؤثرات الإسلامية فى عصر صدر الإسلام

١ — مصادر التأثير ومقوماته ·

(أ) فى عصر الرسول ·

(ب) فى عصر الراشدين ·

٢ — سمات المعجم فى هذا العصر ·

بدأت المزاوجة المعجمية تفرض نفسها على الشعراء المخضرمين ، وبدأت الألفاظ الإسلامية والصور تتناثر بين الأبيات في شعر هذا العصر ، ولكنها بدت ذا طبيعة خاصة تميز بها شعر تلك الفترة خاصة لدى شعراء المدينة ، إذ غلب على معظمها عنصر التقرير أكثر من التصوير ، وبذلك كثرت الصياغة المباشرة فى شعر شعراء عصر صدر الإسلام ، وكأنما جاءت هذه التقارير ضرورة تتسق مع طبيعة تلقى الشعراء للفكر الدينى الجديد ، فإذا بالشاعر يدير حواره حول قضايا الرسالة ، فيذكر رسول الله ﷺ ورسالته ، وجبريل كواسطة للوحى بين الله سبحانه وتعالى وبين رسوله عليه الصلاة والسلام ، وما يعرفه عن القرآن الكريم أو إعجازه أو تشريعه ، وصورة النبى عليه السلام وغزواته ، وموقف المسلمين من الأنصار أو المهاجرين ممن امنوا به وآزروه أو موقف كفار مكة ممن عاندوه وحاربوه ، وبذا أدخل الشاعر من معجم الإسلام ما يتعلق بقضايا العقيدة دون أن يتوقف عند فلسفتها ، أو تلمس ما وراءها من أبعاد جدلية يناقشها أو يحللها أو يتخذها مادة لمناظرة أو حوار ، ذلك أن أبناء ذلك الجيل قد تحولوا عقائديا من وثنية غائمة أغرقهم ضلالها فى تيه عميق من الجهل إلى ما أنقذهم به الدين الجديد منذ سلم به منهم فريق ، فآمن ونصر الرسول ﷺ ، ولم يشغل أبناؤه من أمرهم بجدل ، أو فلسفة ، على نحو ما تشغل به المشركون على نحو ما عرضه القرآن الكريم فيما يتعلق بأسلوبه عليه السلام فى نشر الدعوة طبقا للمبدأ الإسلامى الذى هداه إليه الله سبحانه وتعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن)[1] وما شهد له به الله سبحانه من كرم الخلق وسماحته (وإنك لعلى خلق عظيم)[2] ومن وداعة القلب ولطف المعشر فى التعامل مع جمهور البشر عامة من حوله (ولو كنت فظا غليظ القلب

---

(١) سورة النحل : ١٢٥ .

(٢) سورة القلم : ٤ .

لانفضوا من حولك)[٣] أو من شدة حرصه عليه السلام على المسلمين ممن ناصروا دعوته ونصروه فكانوا (أشداء على الكفار رحماء بينهم)[٤] ، وما كان منه عليه السلام فى شدة رحمته بهم (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم)[٥] .

ومن هذا المنطق بأبعاده المختلفة تبدو انعكاسات المعجم الإسلامى من خلال شعراء تلك الفترة ، فإذا بالشاعر فى المدائح النبوية يتجاوز الملامح التقليدية التى رصدت فى صورة البطولة الجاهلية ، على ما قد يشوبها من طيش أو حماقة أو عنف ، لتتحول على يديه إلى صورة مهذبة ينبثق منها الحس الإسلامى الجديد ، وينسبها الشاعر دائما إلى الله سبحانه وتعالى ، ويعرض من خلالها موقف فريق المسلمين والمشركين ، فإذا بملامح البطولة تتراءى مجسدة فى مكانة رسول الله عليه السلام كهاد للأمة وبشير بالحق على حد قول حسان بن ثابت الأنصارى :

وقال الله قد أرسلت عبدا
يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه
فقلتم : لا نقوم ولا نشاء[٦]

إذ يبدو الممدوح هنا بطلا من طراز خاص فهو عبد الله ، لا يقول إلا حقا ، أتى قومه اختبارا لهم فشهد به فريق وكذبه آخرون ؛ وهى ملامح تبدو جديدة تماما فى عالم الفضيلة الذى رسمها المادح لممدوحه .

---

(٣) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٤) سورة الفتح : ٢٩ .

(٥) سورة التوبة : ١٢٨ .

(٦) ديوان حسان : ١٧ .

وعلى حد تعبير كعب بن مالك الأنصاري أيضا :

وكان لنا النبي وزير صدق
به نهدي البرية أجمعينا[7]

وقول كعب بن زهير بن أبي سلمى :

إن الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول[8]

إذ تبدو البطولة رهنا بعموم الدلالة على صدق رسالة البطل التي يحرص الشاعر على التصديق بها ، حتى ليبدو البطل هاديا لأمة بأكملها ، يساعده من صدق به ويرتدي معه درع البطولة ، ولكن بطولته المطلقة تظل سائدة متميزة ففيها نور اليقين والهداية ، وفيها قوة البطل على نشر الدعوة المسندة إليه .

ويشتد حرص الشاعر على تسجيل إيمانه بالرسول ﷺ من منطق الحس الغيبي ، حين يسلم بالمبادئ العقائدية حول صدق الرسالة ، والإيمان بمصدرها واليقين بواسطتها ، يقول حسان :

وجبريل رسول الله فينا
وروح القدس ليس له كفاء

ومن ثم راح شاعر العصر يسجل ما يستطيع من ملامح إيمانه بالدعوة من منطق الاقتناع بها من جانب ، والخوف من عقاب الله سبحانه من جانب آخر صوره قول النابغة الجعدي :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى
ويتلو كتابا كالمجرة نيرا

---

(٧) ديوان كعب بن مالك : ١٨٨ .

(٨) ديوان كعب بن زهير ١٥٠ .

أقيم على التقوى وأرضى بفعلها
وكنت من النار المخوفة أحذرا (٩)

إذ يتخذ الشـــاعر مادته اللفظية من : رسول الله ــ الهدى ــ الكتاب ــ النور ــ التقوى ــ الرضى ــ الحذر من النار ، فجعل الصياغة إســـلامية تماما ســـواء دخلت بالأبيات إلى عالم المـــدح أو الفخـــر .

ومن منطلق الإيمان بأصول الدعوة الإســـلامية على هـــذا النحو راح بعض الشـــعراء يعرض من الجوانب الدينية ما حاول طرحه فى شـــعره ، وهو فى ذلك لا يستوحى المعانى أو الصور من معجم الجاهلية الموروث فحسب ، بل بدأ المعجم الإســـلامى أساسا جديدا لهـــذا التصوير على النحو الذى صوره النابغة الجعدى أيضا فى قوله وقد أسقط معجمه الجاهلى تماما هنا :

الحمـــد لله لا شريك له ... من لم يقلهـــا فنفسه ظلمـــا
المولج الليـــل فى النهـــار وفى الليـــل نهارا يفرج الظلمـــا
الخافض الرافع السمـــاء على الأرض ولم يبن تحتهـــا دعمـــا
الخالق البارىء المصـــور فى الـــ أرحام ماء حتى يصير دما
من نطفـــة قدرها مقـــدرها ... يخلق منها الأبشـــار والنسما
ثم عظـــاما أقامها عصـــب ... ثمت لحما كســـاه فالتأما (١٠)

فهو يستوحى من الدلالات القرآنية ضرورة حمد الله سبحانه وتعالى ومع الحمد يرصد مبدأ التوحيد وعدم الشرك بالخالق مما يقترب من كثير من معانى الآيات « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحـــد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك

---

(٩) شعر النابغة الجعدى ٥٧ .
(١٠) الشعر والشعراء ٢٥٣ .

بعبادة ربه أحدا »[١١] • وكذا من قوله تعالى « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى »[١٢] •

ومن الآية الكريمة « رفع سمكها فسواها »[١٣] و « رفع السماوات بغير عمد ترونها »[١٤] •

« هو الله الخالق البارىء المصور »[١٥] •

ومن الآيات التى تحكى مراحل خلق الإنسان فى قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين »[١٦] ومن قوله تعالى « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين »[١٧] •

وعلى هذا النحو كانت روح الوضوح والإبانة أشد سيطرة على أذهان شعراء ذلك الجيل فظهروا شديدى التأثر بقيم الدين الجديد واتجاهاته ، شديدى الالتزام بمبادئه ، حتى جعلوا من شعرهم معرضا طيبا للقيم الدينية الجديدة ، صحيح أنهم ظلوا على صلة وثيقة بالشكل الفنى للقصيدة الجاهلية ، ولكنهم لم يعجزوا عن طرح القيم الجديدة من خلال ذلك الشكل على تنوع مستوياته بين قصائد طوال أو قصار أو مقطوعات أو حتى رجز ، وفى غير حاجة إلى تعليق تلك التقريرية والمباشرة فى الأداء بما يتسق مع إيقاع الحياة الجديدة وطبيعة الموضوعات المعالجة •

---

(١١) سورة الكهف : ١١٠ • (١٢) سورة آل عمران : ٢٧ •
(١٣) سورة النازعات : ٢٨ •
(١٤) سورة الرعد : ٢ • (١٥) سورة الحشر : ٢٤ •
(١٦) سورة المؤمنون : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ •
(١٧) سورة يس : ٧٧ •

فثمة فروق مؤكدة بين موضوعات كالمدح أو الهجاء مما يتطلب إعدادا خاصا يعمل فيه الشاعر ألف حساب للمتلقى ، وبين حديث الشاعر هنا حول دينه كما لو كان ضربا من مناجاة الذات أو رغبة فى إفهام جمهوره ووعظه ، فلا يهمه هنا أن يقف طويلا عند ملكة خياله بقدر وقوفه عند مادة إسلامه .

كما يلاحظ أيضا على شعراء هذا الفريق أنهم بدوا شديدى الصلة بالمصدر القرآنى ، يأخذ الواجد منهم منه بحرص شديد ، حتى ليكاد يقترب من الصياغة اللفظية للآية ، ولا غرو فى ذلك فلم يكن مطلوبا من هؤلاء الشعراء ، ولا من المنتظر لديهم أن يفلسفوا قضايا العقيدة ، أو أن يشغلوا عن تفسير الآيات القرآنية إلى تأويلها ، خاصة أن تلك القضايا ظلت واضحة وضوح التساؤلات ، وما يليها من بيان الإجابات الشافية من قبل رسول الله ﷺ ، إلى جانب ما نص عليه من فتح باب الاجتهاد بالعقل كمصدر ثالث لفهم العقيدة بعد الأخذ بكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وقياس الأحكام على ضوئيهما .

وعلى هذا النحو بدا الشاعر المخضرم واضح العقيدة وضوح لغته وشعره ، فلم يشأ أن يصل بمبادئها إلى درجات من التعقيد ، بل اكتفى بما أخذه منها عن اقتناع ، مما دفعه إلى الجهاد فى سبيل الانتصار لدين الله ، وهو يصرح بذلك ويطرحه من منظور دينى محض ، يدحض به شريعة الغزو ولغة البطش التى شاعت فى الجاهلية ، فإذا بالنابغة الجعدى نفسه يرفض مطلب زوجته التى راحت تناشده البقاء خوفا عليه من الموت ، فيجيبها بأنه لا عذر له إن هو تقاعس عن الخروج مجاهدا فى سبيل الله ، ومنفذا تعاليم الكتاب الكريم ، يقول مبررا حتمية خروجه :

يا ابنة عمى كتاب الله أخرجنى
طوعا وهل أمنعن الله ما فعلا

فإن رجعت قرب الناس يرجعنى
وإن لحقت بربى فابتغى بدلا
ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرنى
أو ضارعا من ضنى لم يستطع حولا[18]

وكأنا به يردد من ملامح الجهاد دعوة القرآن الكريم إليه « الذين يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون »[19] .

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم »[20] .
« وجاهدوا فى الله حق جهاده »[21] .
« ليس على الأعمى حرج »[22] .

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال »[23] .

فهو إنما يعكس معجمه اللفظى من خلال كتاب الله وقد أطاعه فعلا فى إصراره على الخروج ، كما أطاعه مرة أخرى حين استقى منه مبرراته وإيمانه المطلق بقضاء الله وقدره .

ولا شك أن شاعر العصر بدا قانعا بما التقطه من هذا المعجم الإسلامى ، فكان امتداداً لسعادته باعتباره مسلما ، على النحو الذى صاغه لبيد فى قوله شاكرا الله على نعمة الإسلام وقد طال به الأجل حتى أسلم :

---

(18) ديوان النابغة : 168 .
(19) سورة التوبة : 111 .
(20) سورة البقرة : 216 .
(21) سورة الفتح : 78 .
(22) سورة النور : 61 .
(23) سورة النساء : 75 .

الحمـــد لله إذ لم يأتنى أجلى
حتى كسانى من الإســـلام سربالا[٢٤]

على ما فى البيت من جمال التصوير الذى جسد فيه الشـــاعر الإســـلام وقد اكتسى سرباله قبل وفاته .

وكذا ما سـجله عبد الله بن رواحة فى تحذيره لأبى سفيان بن الحارث من عدم إســـلامه ، وتهديده بصور العقاب الآجل والعاجل فى الدنيا والآخرة :

فابلغ أبا ســـفيان إما لقيتـــه
لئن أنت لم تخلص سجودا وتسلم

فبشر بخزى فى الحيـــاة معجل
وسربال قار خالداً فى جهنم[٢٥]

فيأخـــذ مادته من مؤشرات الآيات القرآنية « فاســـجدوا لله واعبدوا »[٣٦] .

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه »[٣٧] .
« لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق »[٣٨] .
« سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النـــار »[٣٩] .

فكانت مادته موزعة بين الســـجود والتسليم والعقاب العاجل والآجل ومشاهد جهنم وكلها ــ كما رأينا ــ منتزع من المعجم الإسلامى .

---

(٢٤) ديوان لبيد .
(٢٥) ديوان عبد الله بن رواحة .
(٣٦) سورة النجم ٦٢ .
(٣٧) سورة البقرة : ١١٢ .
(٣٨) سورة الرعد : ٣٤ .
(٣٩) سورة إبراهيم : ٥٠

وعلى هذا النحو بدا المعجم الإسلامى معينا للشاعر على عرض القيم أو تصويرها سواء فى فخره أو هجائه ، وقد تكرر الإلحاح على تصوير مبادىء العقيدة من منطق التأثر بالآيات القرآنية أيضا ، على النحو الذى رصده ابن رواحة أيضا فى قوله :

شهدت بأن وعد الله حق
وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف
وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكة كرام
ملائكة الإله مقربينا[30]

إذ يردد معانى الآيات القرآنية « الا إن وعد الله حق »[31] .

« ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية .. »[32] .

« وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا »[33] .

« ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته »[34] .

« عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم »[35] .

فكانت منطقة الغيبيات أشد سيطرة على الأبيات بين حديث الجنة والنار ومشاهد القيامة ، وصورة العرش ورب العرش والعالمين جميعا ، ومن حولها صورة الملائكة المقربين من خالقهم سبحانه وتعالى .

---

(٣٠)
(٣١) سورة يونس : ٥٥ .
(٣٢) سورة الحاقة : ١٧ .
(٣٣) سورة هود : ٧ .
(٣٤) سورة الأعراف : ٢٠٦ .
(٣٥) سورة التحريم : ٦ .

وبذا يبدو المعجم الإسلامى وقد عرف طريقه عبر موضوعات كثيرة ، فإذا به يسود وينتشر ، لينسج خيوطه من خلال كل الموضوعات التى طرقها شعراء العصر تقريبا ، ففى غير لوحات المديح أو الفخر أو الرثاء تأتى المعانى الإسلامية بصورة مكثفة ، ففى رثاء الشعراء لرسول الله ﷺ ، وكذلك فى رثاء الراشدين رضوان الله عليهم تلقانا هذه الملامح المتميزة . فعند حسان نجد رثائيته فى رسول الله ﷺ التى يقول فيها مستلهما معظم معانيه من المعجم الإسلامى :

بطيبة رسم للنبى ومعهد
منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تنمحى الآيات من دار حرمة
بها منبر الهادى الذى كان يصعد
وواضح آيات وباقى معالم
وربع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها
من الله نور يستضاء ويوقد
مفجعة قد شفها فقد أحمد
فظلت لآلاء الرسول تعدد
فبوركت يانور الرسول وبوركت
بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وهل عدلت يوما رزية هالك
رزية يوم مات فيه محمد
تقطع فيه منزل الوحى عنهم
وقد كان ذا نور يفور وينجد
عزيز عليه أن يجور عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
وما فقد الماضون مثل محمد
ولا مثله حتى القيامة يفقد

نبى أتانا بعد يأس وفترة
من الرسل والأوثان فى الأرض تعبد

فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا
يلوح كما لاح الصقيل المهند

وأنذرنا ناراً وبشر جنة
وعلمنا الإسلام فالله نحمد

تعاليت رب الناس عن قول من دعا
سواك إلها أنت أعلى وأمجد

لك الخلق والنعماء والأمر كله
فإياك نستهدى وإياك نعبد[٣٦]

فقد بدا حسان فيها صادق الانفعال واضحه فى حزنه على وفاة نبى الأمة عليه السلام ، فكانت هذه البكائية صوتا عاما شاع بين المسلمين ، وبدا فيه الشاعر محتسبا الأجر عند الله تعالى من هذا المنطلق الدينى ، فبدأ اللوحة بعرض جغرافى له قداسته من ذلك الرسم والمعهد الدينى بطيبة وما كان من منبر الهادى عليه السلام وصعوده عليه ، وما كان من المصلى ، والمسجد ، والحجرات التى عاش فيها النبى عليه السلام يتدارس القرآن ويتلقى دستور المسلمين ويلقنهم إياه ، فما كان لحسان أن يعرض الصورة إلا من خلال هذه المقومات الإسلامية التى رمز بها إلى العبادات وشعائر الدين ، يوم أن كان يقوم عليها رسول الله ﷺ ، ليبدأ فى البكاء على ما فقده المسلمون من ذلك النور الذى أرسله الله إليهم جميعا ، ولكنه استغرق فى نمط من التفجع الدينى الذى أسرع منه إلى طرح صيغ الدعاء الإسلامى وما تستكمل به اللوحة من دلالات إسلامية محضة من الدعاء بالبركة لنور الرسول ولبلاده ﷺ ، وحديثه عن منزل الوحى ، وأثره فى هداية المسمين مبتناهما معانيه من دلالات الآيات الكريمة

---

(٣٦) ديوان حسان : ٧٤

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا »[٣٧] « واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم »[٣٨] « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم »[٣٩] . « وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا »[٤٠] « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا »[٤١] .

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل »[٤٢] « إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا »[٤٣] « وأنذر عشيرتك الأقربين »[٤٤] ، « وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب »[٤٥] .

« لله الأمر من قبل ومن بعد »[٤٦] .

« إياك نعبد وإياك نستعين »[٤٧] .

« وما بكم من نعمة فمن الله »[٤٨] .

وهكذا ينتشر رصيد من معانى هذه الآيات بين أبيات الشاعر الذى حرص على انتقاء الألفاظ الجديدة التى تكشف عن القيم الإسلامية المستحدثة فى العصر ، ولم يكن للجاهلية بها عهد إلا فيما يتعلق بالأوثان وعبادتها فى الأرض ، أما بقية المعانى والقيم فقد طرحت من منطق الحس الغيبى والتسليم بالجنة والنار والقيامة .

---

(٣٧) سورة النساء ١٧٤
(٣٨) سورة الحجرات ٤٩
(٣٩) سورة التوبة ١٢٨
(٤٠) سورة الأحزاب ٤٦
(٤١) سورة الأحزاب ٣٣
(٤٢) سورة المائدة ٥
(٤٣) سورة العنكبوت ٢٩
(٤٤) سورة الشعراء ٢٦
(٤٥) سورة ابراهيم ١٤
(٤٦) سورة الروم ٣٠
(٤٧) سورة الفاتحة ٤
(٤٨) سورة النحل ٥٣

وكذا من المنطق العقائدى حول تعاليم الإســلام والاعتراف بنعم الله تعالى وحمده عليها ، وكذا ما كان من أمر الوحى ونور الهدى إلى غير ذلك من المعانى الدينية التى عرضها حول العبادات فى مجمل الأبيات من الآيات ، الحرمة ، الهادى ، المنبر ، المصلى ، المسجد ، الحجرات ، نور الله ، الرسول ، النبى ، الرشيد ، الوحى ، الهدى ، الاستقامة ، الرسل ، الأوثان ، التوحيد ، العبادة ، الجنة ، النار ، الإســلام ، الحمد ، تنزيه الخالق وعلو شأنه ، الاستعانة به ، وقصر العبادة على توحيده والاعتراف بنعمه وفضله ... فهل بقى شىء فى بقية الأبيات خارج هــذا المعجم الجديد ؟

ولعل « حسان » قد أدرك طابع المعجم وما أصبح فيه من القاسم المشترك الشائع بين شعراء العصر ، فلم يتورع أن يشترك مع كعب ابن زهير من قوله :

فأمسى سراجــا مستنيرا وهاديــا
يلوح كما لاح الصقيل المهنــد

مما يقترب من بيت كعب فى لاميته :

إن الرســول لنور يستضاء به
مهند من ســيوف الله مسلول

وكذا فى حديثه عن عبادة الأوثان مما يكاد يشترك فيه مع كعب أيضــا فى قوله :

إلى الله لا العزى ولا اللات وحده
فتنجو إذا كان النجــاء وتسـلم

إذ يدور الدوار حول التوحيد النجاة والإسلام والتنفير من الأصنام وتذكر يوم الحساب ومشاهد الجنة والنار ، وإفلات المسلم من الجحيم الى الجنة استعانة بقول خليل الله عليه السلام كما ترويه الآية الكريمة « ولا تخزنى يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » •

لدى يوم لاينجو وليس بمفلت
من النار إلا طاهر القلب مسلم

وما شهده المدح والرثاء تكرر فى أحاديث الاعتذار التى عدد فيها شعراؤه ما يعرفونه من صفات الرسول عليه السلام ، ومن الإيمان بقدر الله تعالى على النحو الذى صوره كعب بن زهير حين جاء مسلما طالبا الأمان بين يدى رسول الله ﷺ : فيعرض إيمانه بقدر الله تعالى :

فقلت خلوا سبيلى لا أبا لكم
فكل ما قدر الرحمن مفعول

ثم يعرض مبررات اطمئنانه بين يديه عليه السلام :

نبئت أن رسول الله أوعدنى
والعفو عند رسول الله مأمول

وهو اطمئنان لا يتعارض مع قوة رسول الله أيضا :

حتى وضعت يمينى لا أنازعه
فى كف ذى نقمات قيله القيل

فإذا بالشاعر ينطلق صراحة من إيمانه بقدره من ناحية ، وثقته فى الفضائل الإسلامية فى شخص رسول الله ﷺ من ناحية أخرى •

فالحقيقة التى لا تخفى إذن أن شعراء هذا العصر قد استلهموا كما هائلا من التأثيرات الإسلامية ، أفسحوا له مجالات متعددة فى

كل موضوعاتهم الشعرية تقريبا ، فلم تعرف محدودية ولاضيقا ، بل انسعت مجالاتها وتنوعت مما كشف عن استيعاب الشعراء لقضايا التوحيد والعقيدة ، وقيامهم على العبادات واستكشافهم ما كان فيه الآباء ومن اتبع سلوكهم من ضلال وغى فكان الشعر آنذاك صدى لانتشار العقيدة والرغبة فى ترسيخها من جانب ، كما كان وسيلة لإستمرار الدعوة لهذا الانتشار من جانب آخر .

ومن الطرافة بمكان أن يجد المؤثر الإسلامى وسائله إلى الانتشار على ألسنة كل فئات الشعراء ، حتى من تخلف منهم عن الدخول فى الإسلام ، على نحو ما رأينا عند كعب بن زهير فى اعتذاره واعترافه بالعقيدة والرسالة ، وثنائه على الرسول عليه السلام ، وما كان من دعائه الدينى المرتبط بإيمانه :

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ
قرآن فيه مواعيظ وتفصيل

وكذا ما صنعه فى تصوير أحداث الهجرة المقدسة فرارا بدين الإسلام ، وحرصا عليه :

فى فتية من قريش قال قائلهم
ببطن مكة لما أسلموا : زولوا

فإذا بأولئك الفتية يسلكون سلوكا إسلاميا لا يغرهم فيه انتصار، ولا يجزعون من هزيمة ، إيمانا منهم بقدر الله تعالى فى كل الأحوال :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم
قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

وعلى هذا المستوى أيضا ما كان من أبى سفيان بن الحارث الذى تمادى فى غيه فى جاهليته ، وأسرف فى هجائه رسول الله ﷺ وتعدى على دعوته ، حتى إذا ما دخل فى الإسلام اعتذر عما كان منه فى وثنيته ، ويقال أنه أنشد أبياتا فى فتح مكة قال فيها :

لعمــرك إنى يوم أحمل رايــة
لتغلب خيل اللات خيل محمــد
لكالمدلــج الحيران أظلم ليلــه
فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى
هــدانى هاد غير نفسى ونالنى
مع الله من طردت كل مطــرد
أصــد وأنأى جاهــدا عن محمــد
وأدعى وإن لم أنتسب من محمد
هم ما هــم من لم يقل بهواهــم
وإن كان ذا رأى يلم ويفنــد
فقــل لثقيف لا أريــد قتالهــا
وقــل لثقيف تلك غيرى أو عــدى
فما كنت فى الجيش الذى نال عامرا
وما كان عن جرى لســانى ولا يدى
قبــائل جاءت من بلاد بعيــدة
نزائع جاءت من سهام وسردد(٤٩)

ففى أبياته تقل ــ بشكل واضح ــ كثافة الحس الإســلامى فى فترة بدا فيها الشــاعر حديث عهد بالإسلام بعد أن أسرف على نفسه فى معاداته وهجائه ، ولكنه تحول فى سلوكه عما عرف عليه قبل الفتح ، إذ يصور حيرته فى المــاضى فى مقابل رشده وهدايته التى يرددها فى حاضره ، مع ما عرضــه أيضا من طابع جهاده الدينى فى سبيل الله ودفاعه عن الرســول عليه الســلام ، واعتزازه بأن ينتسب إليه متمنيا التنصل من كل ما نسب إليه فى ماضيه المظلم . مركزا مادته الشعرية حول محورين أساسيين : محمد ﷺ والهداية ، على ما كرره من ألفاظ حول كل منها بين خيل محمد ، وجهاده عن محمد ، وانتســابه إلى محمد (وقد كان أخاه فى الرضاعة) ، ثم يهــدى

---

(٤٩) السيرة ابن هشام ٤/٤٠١

ويهتدى ، وهداه هاد من الله ، وفيما عدا المحوزين تراه أمام حديث قبلى جاهلية مادته تماما .

ومما لا شك فيه أن كعبا أو أبا سفيان أو غيرهما من شعراء الجاهلية ممن دخلوا فى الإسلام لم يلجأوا إلى التملق أو التزلف بشكل يخل بقيمة الشعر لديهم أو يهدر مقياس الصدق الفنى أو الأخلاقى فى أشعارهم ، بل استطاع هؤلاء أن يتنكبوا سبلا جديدة قادهم صدق النوايا إلى سلوكها ، على نحو ما انتهى اليه الدكتور زكى المحاسنى فى قوله « كانت الشعراء عند العرب فى الجاهلية بمنزلة الأنبياء فى الأمم ، حتى خالطهم أهل الحضر ، فاكتسبوا بالشعر فنزلوا عن رتبتهم ، ثم جاء الإسلام ونزل القرآن بتهجين الشعر وتكذيبه ، فنزلوا رتبة أخرى ، ثم استعملوا الملق والتضرع فقلوا واستهان بهم الناس »[٥٠] .

وهو بذلك يسجل هبوط الشعر واندحاره بعيدا عن المؤثرات الإسلامية ، وقريبا من عالم التكسب والاحتراف ، ولعله يشير بذلك إلى جودة شعر من نظموا استنادا إلى المعجم الإسلامى احتسابا من مدرسة المدينة ، واعتمادا على معانيه وألفاظه التى زادت ذلك الشعر غنى وثراء ، وحافظت على نقاء دوافعه ، وصدق مادته ومبدعه .

وتزداد الصورة وضوحا واشراقا من جانب المؤثرات الإسلامية مع شعر الفتوح الإسلامية بصفة خاصة ، حيث توقف الشعراء فيه يتأملون الواقع الجديد الذى يدافعون عنه من منطق روحى محض ، لا منطق العصبية ، ولا شريعة الغزو والبطش الجاهلية ، فكانت صورة شعر الفتوح وليدا شرعيا للمعجم الإسلامى شكلا ومحتوى ، فإذا بالمقطوعة تسود ويزداد انتشارها لتبدو أكثر تلاؤما مع إيقاع حركة الجهاد الدينى وميادين الحروب ، ولم يكن ثمة ما يبرر الشاعر أن يتمسك بالتقاليد الفنية التى رسخها أسلافه ، فليس لديه وقت يقف

---

(٥٠) الأدب الدينى ٤٧ ، أنظر كتاب الزينة للرازى ١/٩٥

فيه باكيا طللا ، ولا متغزلا أو مصورا ظعينة ، أو غير ذلك مما لا يتسق مع طبيعة الواقع النفسى فى خروجه غازيا فى سبيل الله ، لا يريد دنيا ولا يسعى إلى غنيمة أو جاه ، بل قد يندفع إلى الموت اندفاعا أملا فى النصر ، أو السبق إلى الشهادة على النحو الذى رصده كعب للمهاجرين حين صورهم :

لا يقع الطعن إلا فى نحورهم ‏ ‏ ‏ وما لهم عن حياض الموت تهليل

وإذا بالشاعر المسلم يبدو شديد الاعتزاز بحسه الجديد من خلال تلك الدوافع الجديدة التى تدفعه إلى التقدم فى القتال ، دون خشية الموت ، على النحو الذى صوره قول كعب بن مالك فى يوم خيبر :

عظيم رماد القدر فى كل شتوة
ضروب بنصل المشرفى المهند
يرى القتل مدحا إن أصاب شهادة
من الله يرجوها وفوزا بأحمد
يذود ويحمى عن ذمار محمد
ويدفع عنه باللسان وباليد[٥١]

فالسلوك القتالى يبدو جديدا فى تصوير هؤلاء من منطلق الدوافع، والممارسة العملية لحركة الجهاد الدينى، وإذا بالاعترافات تبدو مطروحة من قبل المسلمين جميعا : بفضل المدد الإلهى الذى يضمن لهم الانتصار على أعدائهم ، وإذا بالشعراء يقدمون على تسجيل هذه الحقائق المؤكدة ففى يوم بدر تتزاحم على الشاعر من المعجم صورة الملائكة ونصر المولى لرسوله ﷺ :

بنصر الله روح القدس فيها
وميكال فيا طول الملاء
أأخفرت النبى وكنت قدما
إلى السوءات تجرى بالعراء[٥٢]

---

(٥١) الأدب الدينى ٤٧ ، انظر كتاب الزينة للرازى ١/٩٥

(٥٢) ديوان كعب بن مالك ١٩٣

وإذا بالشاعر يستشعر قوة المسلمين من خلال قوة الرسول عليه السلام وأنصاره :

وفينا رسول الله نتبع أمره
إذا قال فينا القول لا نتطلع
تدلى عليه الروح من عند ربه
ينزل من جو السماء ويرفع
وقال رسول الله لما بدوا لنا
إذا ما اشتهوا أنا نطيع ونسمع
وقال رسول الله لما بدوا لنا
ذروا عنكم هول المقات وأطمعوا(٥٣)

إذ بدت لوحة السماء منظومة دينية محورها رسول الله ﷺ وأوامره وأقواله ووجوه بينهم ، وهم ـ أى المسلمون ـ له طائعون سامعون مجيبون اطمئنانا منهم إلى نصر الله سبحانه ومشاركة الملائكة لهم معاركهم مع أهل الشرك وأنصاره .

وكثيرة هى الأشعار التى أخذت هذا المنحى فى تصوير طبيعة خروج المسلم مجاهدا فى سبيل الله ، وكيف يحرص على طاعة رسول الله ﷺ مما بدا فيه الشعراء أيضا شديدى القرب من المعجم الإسلامى وكثيرى الإفادة من معانيه وأساليبه وصيغه .

ويستمر المعجم الإسلامى فى سيادته وسيطرته على الشعراء أيضا طيلة عصر الراشدين ، ولم يشهد تحولا خطيرا ، فما زال الراشدون يسيرون على نهج القدوة الحسنة التى التمسوها فى سلوك رسول الله عليه السلام بينهم فى حياته قولا وعملا ، كل ما هنالك أن مدائح الشعراء ورثائياتهم قد تحولت إلى خلفاء المسلمين أو أمراء المؤمنين ، فلمع شخص الخليفة فى قصيدة المدح أو الرثاء ، كرجل

---

(٥٣) ديوان كعب بن مالك ٢٢٤

دين من الطراز الأول ، حتى يتخلص الشاعر بذلك من عقدة الموروث الجاهلى الذى لم يعرف — بالطبع — شيئا عن الفضائل الإســلامية الجديدة ، ففى معركة الردة فى عهد الخليفة الأول رضى الله عنه يتجه الحارث بن مرة واعظا بنى عامر بمعان دينية رقيقة يطرح عليهم فيها الموقف من منظور إســلامى ، أساسه الاختيار وكأنه يقترب بذلك من استلهام الحس الإسلامى الذى رسخ قاعدة نشر الدعوة ، وكأن الحارث يأخذ دلالة ما يقول من معنى الآية الكريمة (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)[٥٤] ، حين ينظم قوله :

بنى عامر إن تنصروا الله تنصروا
وإن تنصبوا لله والدين تخذلوا

وان تهزموا لا ينجكم منه مهرب
وإن تثبتوا للقوم والله تقتلوا[٥٥]

ولعله أيضا مما رسخ فى ذهنه من المعانى القرآنية التى حددتها الآيات الكريمــة (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكــم[٥٦] وكذا قوله تعالى (إن ينصركم الله فلا غالب لكم)[٥٧] .

وأيضا من دلالة الآية الكريمة (وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه)[٥٨] ، وبذا بدا الشاعر المسلم حريصا على الصدوز فى فنه عن اختيار دقيق للفظ ، لا يأتى فيه الصــور إلا بقدر ما يدقق فى اختيارها وعرضها مهما قلنا بتلقائية الأداء عند معظم أبناء ذلك الجيل،

---

(٥٤) سورة الكهف ٢٩
(٥٥) الإصابة لابن حجر ٢/٥٥
(٥٦) سورة محمد ٧
(٥٧) سورة آل عمران ١٦٠
(٥٨) سورة التوبة ١١٨

فقد ظهر الاتســاق واضحا بين الصورة والمواقف ، فإذا ما كان أحدهم — أي الشعراء — بازاء غضبه من موقف المرتدين — مثلا — راح يهددهم ، ويقصد إلى ردعهم وزجرهم ، فاستخرج من ذاكرته ما ترسب فيها من صــور العقاب التي أصابت أمما بائدة ، حين تمردت على أنبيائها فأذاقها الله وبال أمرها ، وكان عقابه سبحانه وتعالى لهم على النحو الذي يتراءى في كثير من الآيات والقصص القرآني على نحــو قول تعالى في قصة عاد « فصب عليهم ربك ســوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد »[59] إذ يلتقط الشاعر هــذا المعنى ودلالة هــذه القصة حيث يقول أوس بن بجير الطائي في المرتدين :

ألم تر أن الله لا رب غــيره
يصب على الكفار سوط عذاب[60]

وفي غير حروب الردة تتكرر هــذه المشاهد الدينية اقتباسا من المعجم الإســلامي ، ففي فن الرثاء لا يتوقف حســان بن ثابت عند حدود دائرة الفضائل الموروثة حين يرثي أبا بكر ، بل راح ينقب في هــذا المعجم ليقتبس منه الجديد الذي حمده له القرآن الكريم ، فإذا بحســان يعرضه في قوله راثيــا :

الثاني الثاني المحمــود بســيرته
وأول الناس منهم صدق الرســلا
وثاني اثنين في الغار المنيف وقد
طاف العدو به إذ صعد الجبــلا
وكان حب رسول الله قد علموا
خير البرية لم يعــدل به رجــلا[61]

فقد التقط حسان لب المشهد الرثائي من وقائع التاريخ ، كما صورها القرآن الكريم في قوله تعالى « إذ أخرجه الذين كفروا ثاني

---

(٥٩) سورة الفجر ١٤ (٦٠) الإصابة ٢/٥٥
(٦١) ديوان حسان ٢٩

اثنين إذ هما فى الغار ، إذ قال لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها »[٦٢] •

فهو يجعل من تلك الصحبة الشريفة أساسا لثنائه على أبى بكر الصديق رضى الله عنه ومبعثا لبكائه على فقده ، وهنا التقت لديه الفضائل الإســلامية حول منطق العقيدة ، وربطا بهذا السلوك الدينى القويم الذى جعله محمود السير طيبها ، فكان أول من صدق الرسول عليه الصلاة والســلام ، وترجم تصديقه بفعله حين خرج بصحبته مهاجرا !! فلم يعدل به رســول الله عليه الصــلاة والســلام رجلا آخر من المسلمين فكان شديد القرب إلى نفســه ، شديد الحب له •

وهكذا انتشرت الملامح الإسلامية ، وبدا المعجم يشق طريقــه إلى الانتشار والذيوع والسيادة على ألسنة الشعراء فى جل موضوعات الشعر ، وإذا بالتحول الأخلاقى يصيب الشاعر المسلم حتى إذا ما أدرك حجم خطئه راح يستعطف خليفة المسلمين ، ليتبع ذلك بتسجيل سلوكه الدينى على نحو ما تسجله خطوات الخطيئة ، منذ هجائه الزبرقان ابن بدر فى قصيدته المشهورة التى قال فى واحد من أبياتها :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى[٦٣]

فكانت شــدة عمر رضى الله عنه فى مؤاخذة الحطيئة حتى حبسه ليستنقذ من لسانه أعراض المسلمين وهو ترجمة فعلية للسلوك الدينى للخليفة الذى راح يخشى أن تكسر ســاق شاة بالعراق لأن يســأل عنها عمر ، فكيف بأعراض المسلمين أو إشعال نيران عصبيات جاهلية أطفأ جذوتها الإســلام ، ثم كان أن نظم الحطيئة فى سجنه أبياتا يستعطف الخليفة ، ويطلب منه العفو ، داعيا له دعاء إســلاميا يقول فيــه شاكيا حاله وحال أولاده :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شــجر

---

(٦٢) سورة التوبة ٤٠   (٦٣) ديوان الحطيئة ٢٨٤

القيت كاسبهم فى قعر مظلمة
فاغفر عليك سلام الله يا عمر

فإذا بعمر يعفو عنه بشرط ألا يعود إلى فعلته وبذلك اشترى منه أعراض المسلمين •

وبعدها يتقدم الشاعر فى سلوكه خطوات كثيرة نحو الإسلام الذى حسن أسلوب تعامله من خلاله ، فصاغ من حكمه الكثير على نحو قوله من المنظور الإسلامى المحض :

من يفعل الخير لم يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله و الناس[٦٥]

أو مثل قوله :

ألم آك مسكينا إلى الله مسلما
على رأسه أن يظلم الناس زاجره[٦٦]

ولا يكاد المظهر السلوكى يتوقف على الحياة العامة أو الفنية كما عاشها الحطيئة أو غيره من شعراء العصر ممن تورطوا فى مزالق سلوكية أنقذهم الإسلام من خطرها ، بل يزداد الموقف اتساعا وعمقا حين يتعلق بطابع الخروج للدفاع عن الدين ، وتبنى قضايا الدعوة ، الأمر الذى يكشف حقيقة الدوافع الجديدة التى حدت بالشعراء إلى الخروج مجاهدين فى سبيل الله ، بدلا من تلك الدنيا التى كان يسعى إليها الجاهلى بحثا عن الغنى على المستويين القبلى أو مستوى الصعلكة ، مما بلور منه جانبا قول عروة لزوجته :

ذرينى للغنى أسعى فإنى
رأيت الناس شرهم الفقير

---

(٦٤) ديوان الحطيئة : ٢٠٨ •

(٦٥) نفسه : ٢٨٤ •

(٦٦) نفسه : ٤٥ •

وأدناهـم وأهونهـم عليهـم
وإن أمسى له حسب وخيـر
يباعـده القريب وتزدريـه
حليلته وينهره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال
يكـاد فـؤاد لاقيـه يطيـر
قليـل ذنبـه والذنب جـم
ولـكن للغنى رب غفـور [67]

فقد تهاوت مثل هـذه الفلسـفات في تبرير الخـروج وإباحة اللصوصية ، لتأخذ بعدا روحيا جديدا ، لا علاقة له بأبعاد الفقر و الغنى ، بل تظهر الصورة الجديدة مطبوعة بالطابع الديني المحض الذى يرضى فيه الإنسان المجاهد بالخروج لقضاء الله وقدره ، لا يهمه ما فيه من حلاوة أو مرارة ، على النحو الذى رأيناه فى صورة النابغة الجعدى فى حواره مع امرأته وهو خارج إلى فتوح فارس :

يا ابنة عمى كتاب الله أخرجنى
طوعا وهل أمنعن الله ما فعـلا

وكأن النابغة يتخلى بذلك عن معجم الجاهلية ، ليكون سـابقا إلى معجم الإسلام فيلتقط منه أبعاد الموقف الدينى برؤية المجاهـد المسـلم :

« اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله » [68] .

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم » [69] .

وبهذا تقوى صورة الموقف الدينى لدى الشاعر فى المظهر القتالى وفى طبيعة الدوافع على السواء ، وتفسح أمامه المجالات على مستوى

---

(٦٧) الروائع من الشعر العربى : ٤٩٨ .
(٦٨) سورة المـائدة : ٣٥ .
(٦٩) سورة البقرة : ٢١٦ .

كل الموضوعات الذاتى منها والغيرى جميعا ، وإذا بألوان إسلامية جديدة تتدفق حول تأصيل شرف الأحساب والأنساب ، وتؤكد رفعة الأصل والمكانة على النحو الذى عرضه أبو الأسود الدؤلي فى مقتل عثمان بن عفان حين ارتآه :

لقد علمت قريش حيث حلت
بأنك خيرها حسبا ودينا (٧٠)

وإذا بصورة جبريل عليه السلام ومدد الله سبحانه وتعالى للمسلمين ، وتأييدهم بنصره عن طريق ملائكته ، ما زال يسيطر على أذهان الشعراء المسلمين ، حتى أواخر عصر الراشدين ، فبعد واقعة « صفين » راح خزيمة الأسدى يصف جيش معاوية من نفس المحور الدينى فى قوله :

ثمانون ألفا دين عثمان دينهم
كتائب فيها جبرئيل يقودها (٧١)

ولم يعرف شاعر عصر صدر الإسلام — ولم يكد — توقفا عند حدود بعينها ، بل أراد أن يعرض من المعجم الجديد ما استطاع وما كمن فى وجدانه ، فإذا هو يتجاوز الموضوعات التقليدية التى اقترنت بالشعر الجاهلى ، بل ربما تجاوز أيضا ما صوره من فتوح إسلامية فى شعره لينفذ إلى موضوع جديد تماما يدلى فيه بدلوه ، وكأنه جند نفسه داعية للإسلام ومحاميا يدفع عنه خصومه ، ويوجه إليه قومه ، ويتضح شبابهم وشيوخهم من خلال رصيد المعانى والقيم الإسلامية التى بدا بعضها واضحا فى قول عبدة بن الطبيب :

أوصيكم بتقى الإله فإنه
يعطى الرغائب من يشاء ويمنع
وببر والدكم وطاعة أمره
إن الأبر من البنين الأطوع

---

(٧٠) الطبرى : ٤/١١٦ .

واعصـوا الذى يزجى النمائم بينكم
متنصحا ذاك السـمام المنقع (٧٢)

فلم يستمد هـذه المعانى إلا من المعجم الإسلامى على مستوى السلوك العملى فى حياة المسلم من ضرورة تقوى الله فى سره وعلنه :

« واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون » (٧٣) .

وفى التسليم الكامل بتوزيع الله سبحانه لمقدرات البشر وأرزاقهم فى الحياة . « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشـاء وتنزع الملك ممن تشـاء وتعز من تشـاء وتذل من تشـاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير (٧٤) .

وما أمر به سـبحانه من بر الوالدين وطاعتهما إلا فى معصيته « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » (٧٥) .

« ووصينا الإنسـان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن » (٧٦) .

وعصيان من يأتى بالغيبة والنميمة حتى يستكشف حقيقة الموقف « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسـق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (٧٧) .

ويبقى فى تعدد المواقف التى استعان فيها شـعراء العصر بالمعجم الإسلامى مؤشر هام يدل على رسوخ الكثير من المعانى والقيم الجديدة فى نفوس فريق من الشـعراء الذين ثقفوا المعجم الجاهلى ووعوه وصدروا عنه ، ولكن كثيرا من قيمه راحت تتزلزل ، وتفسح المجال لتلك الصيغ الجديدة التى تعد ترجمة لسـلوك جديد ، وتصـوير لأبعاده الدينيـة الجوهرية .

---

(٧١) الأغانى : ١٥/١٤٩ . (٧٢) ديوان المفضليات : ١٤٦ .
(٧٣) سورة البقرة : ٢٠٣ . (٧٤) سورة آل عمران : ٢٦
(٧٥) سورة الاسراء : ٢٣ . (٧٦) سورة لقمان : ١٤ .
(٧٧) سورة الحجرات : ٦ .

كما يبقى لهذه المواقف دلالتها كرافد طيب ثر أثرى عقلية شعراء العصر ، ووجه سلوكهم إلى حيث وجهوا الناس ، مما يجعلنا نكتفى منه بذلك ، دون أن نطمح إلى التماس أبعاد فلسفية عميقة وراء الفكر الدينى فى تلك الفترة بالذات ، فما زال المعجم الاسلامى واردا بين أيدى الشعراء فى عصر النبوة ، ومازال رسول الله عليه الصلاة والسلام قائما على شئون المسلمين ، يشرح لهم معالم المعجم فى مجمله وتفصيله ، ويكشف لهم ما غمض عليهم منه . وبعد انتقاله عليه السلام إلى الرفيق الأعلى يسهر الراشدون رضوان الله عليهم على سنته الشريفة ، فكانوا شديدى الحرص على سياة هذا المعجم دون مزاحمة من معان جاهلية ، ولا حتى سلوك جاهلى على نحو ما تبينا من موقف عمر من الحطيئة أو أبى محجن الثقفى أو موقف عثمان من ضابىء بن الحارث البرجمى . ومازال المسلمين جميعا شديدى التمسك بالعقيدة ومبادئها ، على ما اتسمت به من الوضوح والبساطة ، مما طبع شعر الشعراء بنفس الدرجة من الوضوح الذى دفعهم إلى التقرير أكثر من التصوير ، وتجنب التعقيد أو الغموض أو العمق الفلسفى الذى يمكن أن يغلف المعانى أمام جمهور المتلقين ، الأمر الذى نشهده بعد ذلك فى عصر بنى أمية حين تتعقد الأمور وتصطرع القوى فى عصور الثورات وانتشار أدب الاحتجاج . وبناء على هذه الرؤية الموجزة للمؤثر الإسلامى فى عصر النبوة والراشدين نستطيع رصد الملامح الكبرى التى سيطرت على هذا المعجم من خلال معالجة الشعراء له فى قصائدهم على مستويين :

الأول : ذلك المستوى الشكلى للقصيدة وهو ما لم يستوعب منه الكثير ، ولم يكن المعجم الإسلامى مطالباً بهذا التحول ، إذ يلاحظ أن كثيرا من المعانى والصور قد أهملت عمدا مع تدهور القيم الجاهلية ، ولعل الشعراء المسلمين قصدوا إلى ذلك قصدا لكى يتسقوا نفسيا مع الواقع الجديد ، ففى المواقف الغزلية نجد احترازا واضحا من الخوض فى معانى الفحش أو الغزل المكشوف الذى غصت به دواوين الجاهليين ، وفى مواقف الهجاء انسحبت لوحات الاقذاع والفحش

لتترك لشعراء المسلمين مجالا جديدا يعبرون فيه عن القيم الجديدة من خلال السلوك الذى يبدو فيه الشاعر المسلم قويا حين يرد هجوم خصمه ، دون أن يبدأ بالعدوان ، ومن خلال فنه الذى يتخفف فيه من السب واللعن إشباعا لروح العقيدة التى رسخت فى أعماقه .

وفى موازاة اختفاء هذه القيم وحلول قيم إسلامية جديدة يظل الشكل الجاهلى للقصيدة قادرا على استيعابها جميعا مع هذا التعديل أو ذلك التخفف من الحس القديم ، كما يبقى للشعراء ما أكثروا من نظمه من المقطوعات وقصار القصائد اتساقا مع سرعة إيقاع الحياة من ناحية ، ورغبة فى تصوير مواقفهم الجديدة من خلال شكل جديد من ناحية أخرى .

الثانى : ذلك المستوى الموضوعى للقصيدة ، والذى بدا أكثر مرونة أمام شعراء العصر ممن طوعوا الشكل الفنى ليستوعب كل ما أرادوه له من تلك الموضوعات ، فقد عدل بعضها على نحو ما حدث فى فن المدح والهجاء والرثاء والغزل ، وما ورد منها بعد ذلك بدا جديدا على نحو ما كان من حرص الشعراء على تصوير الفتوح الإسلامية ، والتأصيل لدوافع المسلمين إلى الخروج إليها ، حتى كاد شعرهم فيها يختلف تماما عن صورة القصيدة الجاهلية التى استوقفتها أيام العرب فى الجاهلية ، فصورت شريعة الغزو الغاشمة دون ضوابط ولا قوانين على النحو الذى ظهرت فيه قصائد الجهاد الإسلامية مع حركة الفتوح بمقوماتها الجديدة .

كما يبقى لشعراء العصر أنهم لم يعبأوا كثيرا بالإطار الفنى للقصيدة وكأن الشاعر أصبح مشغولا — بالدرجة الأولى — بصياغة موقفه الدينى بشكل واضح ، يرضى فيه نفسه وجمهوره الجديد ، دون توقف حتمى عند القيم الموروثة . كل ما هنالك أن ثمة ولاء عجز شعراء العصر عن التخلص منه إزاء الموروث الجاهلى ، فسجلوا ذلك الولاء من خلال تمسكهم بالشكل الفنى فى كثير من الأحيان ، ولكنهم

تنكروا له فى محتوى القصائد حين أخذت منحى إسلاميا جديدا أزاح الأثر السلوكى الجاهلى المستهجن أمام ما استحسنه الإسلام ودعا إليه على نهجه .

وعلى هذا النحو استطاعت القصيدة لدى شعراء عصر صدر الإسلام أن تستوعب من القيم الاجتماعية والسلوكية الأخلاقية ما أضاف إليها الجديد ؛ وما كشف عن صدق الشعراء فيما أخذوه من ذلك المعجم بدقة ظهر فيها طابع الحرص والتمكن ، مع صدق الولاء للدين الإسلامى على النحو الذى رأيناه فى دعوة الشعراء لمبادىء الدين ، ومحاولة نشرها بين أقوامهم شبابا وشيوخا ، وما طبع به شعر الكثيرين منهم من طابع حكمى عام استمدوا معطياته ومقوماته مما ثقفوه من هذا المعجم الإسلامى مضافا إلى خلاصته احتكاكهم بالحياة واستخلاصهم للتجارب .

وضمن خلاصة الموقف هنا حول رؤية جوانب هذا المعجم الإسلامى لهذا العصر بالتحديد ، نستطيع أن نناقش طبيعة المؤثرات من خلال كثرتها وشيوعها التى يسقط معها ما انتهى إليه جرونباوم فى قوله « الخطوة الحاسمة فى رسالة النبى هى نقض الأساس الاجتماعى الذى قام عليه الشعر الجاهلى مما أدى إلى إضعاف الكثير من حوافز الشعر إن لم نقل إلى ازالتها جملة »[٧٨] .

فليس من الدقة بمكان أن يربط المستشرق بين ثورة الإسلام على الكيان الاجتماعى للجاهلية ، وبين موقفه من الشعر على هذا النحو ، فهو يعرض مقدمة طيبة تقود إلى نتيجة ليست من جنسها ، بل تحتاج إلى مراجعة ومعاودة نظر ، وإلا فأين موقف هذا القول من رصيد شعراء عصر الإسلام مما امتلأت به دواوينهم فى

---

(٧٨) جرونباوم : نشأة الشعر العربى وتطوره ، نشر فى كتاب (دراسات فى الأدب العربى ، ترجمة د. كمال اليازجى ، بيروت ص ١٤١ — ١٤٢) .

موضوعات الشـــعر المختلفة ؟ وأين هو من تلك الروايات الكثيرة الموثقة حول إثبـات الرؤية الإيجابية فى موقف الإســلام من الشــعر كفن جمالى ؟ وكيف يستطيع الزعم بأن الإسلام قد أزال دوافع الشــعر جملة ؟ وأين نضع ـ آنذاك ـ ذلك الرصيد الضخم من القيم المعدلة والجديدة التى تقبلتها القصيدة العربية ؟ وأين يذهب شـــعر الفتوح وشعــر الدعوة الإسلامية أمام هــذا القول الغريب ؟! من هنا يصح اتهام هــذه الرؤية الاستشراقية بعدم الدقة أو الموضوعية طالمـا عجزت عن طرح إجابات حول هــذه التساؤلات ، ذلك أن الأدلة على نقضها تبدو أكثر منها إقناعا ، فقد كشف التأثير الإســلامى ـ الذى عرضنا منه صورا ـ عن كثير من القيم الســلبية التى وقف منهــا الإســلام موقفا عدائيا فى مجتمع الجاهلية ، حتى ســار هــذا الهجوم فى خط متواز مع تشجيع الإســلام للقيم الموجبة فى الحياة ، وطرح المزيد منها مما يتناغم مع الفطرة البشرية فى حالة من سلامتها وصحتها • ومن هنا كان تنفير الإسلام مما يتناقض مع تلك الفطرة القديمة على نحو ما كان من تحريم الخمر التى تذهب بملكة العقل وتعطل الوعى البشرى الذى لا تكتمل إنسانية الإنســان إلا به ، وكذلك تعطيل العاطفة البشرية فى أسمى مظاهرها فى علاقة الأبوة والبنوة من خلال ما ارتكبه بعض الجاهليين من وأد البنات بلا ذنب ، وكذا ضياع الكثير من القيم الاجتماعية فى خضم اللهو والعربدة التى شاعت فى مجالس المنادمة والمياسرة •• أليس من حق الإســلام أن يوقف هــذا التيار الســلبى ليعدل القيم ويزلزلها ، وليننتقى أفضل ما فيها دون أن يعنى هــذا بالضرورة إيقاف حركة الشــعر أو حتى نموها ؟!

من هنا بدا قول جرونباوم ـ وإلى مثله ذهب آخرون ـ مجافيا للموضوعية لأنه تناسى واقعية الأحداث التى تعلق بها شــعراء العصر ، ومن خلالها أضافوا الكثير إلى قيم الفن ، وعندئذ كان المعجم الإسلامى الرافد الأول لهذه الإضافات على مستوى اللفظ والصورة • ويبقى غير مفهوم طبيعــة ذلك الأذى المزعوم الذى انتهى إليه المستشرق ،

فكيف نوفق بين ما أكده من إيذاء الشعر ، وبين إكثار الشعراء من النظم والتجديد تبعا لما أفادوه من لذلك المعجم الإسلامى الجديد ، وأين هذا كله من قول جرونباوم عن رسالة محمد ﷺ وقد أصابت نمو الشعر الطبيعى بشديد الأذى فى قوله « ومع أننا لا نستطيع أن نتجاهل أن الشعر التقليدى كاد يستكمل شوطه عند ظهور النبى محمد ، فإنه يتعذر علينا أن نتغاضى عن القول بأن رسالته الدينية قد أصابت الشعر الطبيعى بشديد الأذى »[٧٩] • فمع تطرف هذا القول وبعده عن موضوعية الرؤية ، يكاد جرونبام يزداد تشبثا بموقفه ، حين يعاود عرضه بشكل أكثر عمومية ليقول « وقف الدين سدا دون الإيمان بقدرة الإنسان على الخلق ، ومما أيده فى ذلك عجز الناس عن أن يميزوا على وجه اليقين بين الخلق الفنى والعقلى والخلق من العدم »[٨٠] •

وهو تصور لا تصاحبه دقة أيضا ؛ فليس من البساطة بمكان أن يعجز فصحاء الجاهلية وبلغاؤها عن تبين حقيقة الخلق حين يرتبط بالذات الإلهية ، وبين طبيعة الإبداع حين ترتبط بتعاملهم مع لغة لها سياقها الاجتماعى العام من خلال تملك المجتمع البشرى لها كوسيلة للتفاهم ، وصورة من صور التفاصح ، لتبيان الفروق الفردية بين المبدع حين يتخذها أداة له فى إبداعه ، كل ما هنالك أن الإبداع الفنى من خلال اللغة ينتهى إلى ذلك السياق الخاص المتميز حين يأتى عليه الشاعر بإلهامه وطاقاته الخاصة أو على أكثر تقدير ربطوا الظاهرة بما تصوروه فى وادى عبقر وشياطين الشعر التى تساعدهم على الإبداع على نحو ما عكسه قول جبلة بن الأيهم مفاخراً بشيطانه على شياطين غيره من الشعراء :

---

(٧٩) نشأة الشعر العربى وتطوره ١٤١ •

(٨٠) الأسس الجمالية فى الأدب العربى ، ترجمة البحث فى كتاب جرونباوم ، دراسات فى الأدب العربى ، بيروت ١٩٥٩ م (ترجمة إحسان عباس) •

إنى وكل شـــاعر من البشر
شـــيطانه أنثى وشـــيطانى ذكر

وقد أعجز القرآن الكريم الناس عن الخلق بالمعنى الدينى وما أكثر الأدلة فيه على ذلك ، ولكنه لم يعجزهم عن خلق الشـعر ، ولم يحرمه عليهم ، وإلا ورد فى ذلك نص صريح ، ولكنه ترك للشـعراء مجالات النظم مشروطة بالقيم الجديدة التى تقترب بهم من درجات الإيمان أو — على الأقل — لا تتنافر معه ، على النحو الذى سـجله الاستثناء فى الآية الكريمة « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »[٨١] . فهذه إذن صفات فريق حسن إيمانه وحسن شعره فى آن واحـد .

ولا شك أن تلك الفئة هى التى أضافت الكثير من معالم المعجم الإسلامى إلى القصيدة الموروثة مما زادها ثراء وغنى وانتساقا مع روح العصر وقيمه ، وقد استغل شـعراؤها رخصة الإسـلام فى ضرورة فتح باب الاجتهاد أمام العقل البشرى ، بل تكررت دعوة هذا العقل إلى مزيد من التأمل فى الكون ، والتدبر فى مقوماته وإعجاز خلقه لتنتهى الدعوة إلى تعريف البشر بمصادر الخير والجمال فى مخلوقات الله ، فهل كان الفن الشـعرى إلا ترجمة لجوانب من هذا الجمال فى صياغة جمالية ؟ وهل كان الشـعراء يستمدون صورهم ومعطيات فنهم إلا من معطيات ذلك الواقع الذى كثر عنه حديث القرآن الكريم ؟ فلا شك أن الموقف — بهذا الشكل — يسقط طبيعة الهجـوم على الإسـلام من خلال القول بأنه أوقف حركة الشـعر ، إذ كان طبيعيا أن تتحول قيم الفن تبعا لتحول قيم الحياة ودستورها ، ولا ندرى لمـاذا يحجر على الشـعر أو الشـعراء بالذات إمكانية تبنى القيم الرفيعة من الحق والخير والجمال ، مما لا يتنافى — مطلقا — مع

---

(٨١) سورة الشعراء : ٢٢٧ .

المواقف الوجدانية ، بقدر ما يؤكدها ، ولماذا يتردد التأكيد على أن الشعر لا ينبث الا فى النكد والشر وكأنه رمز سىء من رموز السلوك البشرى ؟ .

ولعل الاقتراب من الحقيقة هنا يدفع إلى القول بأن الإسلام قد تعمق حياة العربى شاعرا كان أو غير شاعر ، مما ينفى أيضا ما سجله قول بروكلمان من نفس المنطق الهجومى « لم يؤثر الإسلام تأثيراً عميقا فى شعراء العرب كما يريد النقاد أن يقنعونا بذلك ، فقد سلك شعراء العصر الأموى دون مبالاة مسالك أسلافهم الجاهليين »[٨٢] وكأن بروكلمان ينسى - بهوره - الدوافع التى تكشف عن طابع المبالاة لدى الفريق الذى يقصده من شعراء بنى أمية ، ممن راحوا يلبون مطالب الخليفة على الصعيد السياسى ، ويسهمون فى تنفيذ خططه من خلال استعادة العصبية القبلية لإتخاذ موقف مضاد لتدخل الموالى ، وازدياد نفوذهم فى الدولة ، بالإضافة إلى تيار العنف الذى سارت فيه الدولة لضمان تأديب الأحزاب السياسية المناوئة لها . وثمة فروق مؤكدة بين المؤثر الإسلامى فى عصر المبعث وبينه فى عصر بنى أمية حين تنعقد مشكلات العصر ويكثر فيه الجدل وتتعدد الصراعات وتكاد المصلحة السياسية العليا للخليفة تطغى على كل ما حولها ، فهو عصر إحياء للتراث الجاهلى لا يصح للمستشرق أن يتخذ منه شاهداً ، وإلا كان نتيجة لغير المقدمة التى طرحها هنا .

ويستمر بروكلمان فى تبنى نظرته عبر وقائع التاريخ وعصوره المختلفة فيمتد عنده النظر لينفى سيادة روح الإسلام إلا بعد ظهور العباسيين « وهذه الروح الإسلامية لم تقصر اتجاهها - حينئذ - على محاربة تهاون العرب الدينى فحسب ، بل قاومت كذلك طبيعة العصبية القومية نفسها ، فإن العباسيين قد استعانوا على العرب بالموالى وخصوصا بمن أسلم من أهل خراسان ، واعتمدت

(٨٢) تاريخ الأدب العربى ١/١٥٦ .

دولتهم على العجم ، وإن استقامت نخوة العرب فى خراســان ، وهكذا نما فى عهد العباسيين أدب إســلامى بلسان عربى »[٨٣] •

وكان بروكلمان بمقولته هــذه يتجاهل حقائق كثيرة جــداً منها ما كان من انتشار التيار الإســلامى وسيادته فى الشــعر الأموى ، ومن قبله ــ بالطبع ــ فى شــعر صدر الإســلام بأفضل مما شهده العصر العباسى ، وكأنه تناقض مع نفسه حين أغفل ما ســجله من إعجابه بشاعرية كعب بن زهير ، وما قدره من مكانة بردته المشهورة فى مدح رســول الله ﷺ ، ثم ما ســجله من فضل انتشار شــعر حسان شاعر النبى فى الأزمنة المتأخرة من بعده ؛ وما برر به ذلك من غرضه العظيم الأهمية وهو مدح النبى ﷺ •

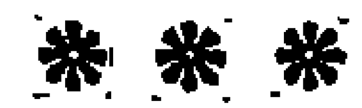
ومع هــذه التناقضات يتناسى بروكلمان أيضا ما كان من أمر الزندقة فى العصر العباسى على مستوى الانتشار والشيوع إلى درجة الفســاد الأخلاقى والدينى بشكل راح يمثل خطرا على شباب العصر • أضف إليها انتشار فلســفة الإرجاء وإباحة الفوضى السلوكية والانحلال الأخلاقى والمجاهرة بالآثام مما لا يساير روح الإســلام ، ولم يشهد العصر إلا قلة من الزهاد قبعوا فى المســاجد يصوغون فلســفة للزهد الإســلامى ، ولا أظن المستشرق يضع هؤلاء الزهاد فى اعتباره وهو بصدد طرح مقولته الغريبة •

وصفوة الرؤية هنا أن طبيعة الشعر فى عصر صدر الإســلام أو ما تلاه من عصر الأمويين أو العباسيين إنما تكشف عن حقيقة هامة مؤداها أن المعجم الإســلامى بدا قويا وشديد التأثير والانتشار فى نفوس الشــعراء ، ومن ثم فى شــعرهم ، فلم نشهد له خفوتا ولا انســحابا إلا حين ينتكس الشــاعر عقائديا ليتخلى عن أى من مقومات إســلامه فيبدو ــ حينذاك ــ قبيح المشهد فى البيئة ، ليدور فى عالم الزندقة أو الإلحاد • وباستثناء هــذه المواقف تتأكد الحقيقة

(٨٣) تاريخ الأدب العربى ٣/١٥٦ •

ومعها يزداد حجم المؤثرات الإسلامية وضوحا وبروزا ، مما قد تكشفه الجوانب التالية من هذه الدراسة ، ومما تسجله تلك الرواية التى أوردها ابن رشيق وأسند القول فيها إلى ابن عباس رضى الله عنهما • إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب فإن الشعر ديوان العرب • وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعراء »(٨٤) •

وبذا تنتفى شبهة إيقاف الإسلام لحركة الشعر منذ عصره الأول : بل استمرت حركته المتجددة التى تقبلت ملامح تجديدية أضافت إليه بما يحوله من شعر جاهلى إلى شعر إسلامى يواكب طبائع الأحداث المتميزة من الدعوة إلى الإسلام ، أو الوعظ والارشاد ، أو الزهد والتقشف ، أو الحكمة ، أو تصوير الغزوات الإسلامية الكبرى ، أو الفتوح الإسلامية ، على ما يفرضه الحدث الجديد من تجديد حتمى فى هذا المعجم الذى رأينا منه شواهد عالها تشير إلى سيادة الظاهرة بما يكفى للاطمئنان إلى رصدها من خلال مادة العصر ونصوص شعره »(٨٥) •



(٨٤) العمدة ١/٣٠ •

(٨٥) تراجع دراسات العصر الإسلامى للدكتور شوقى ضيف ، تاريخ الشعر الاسلامى للدكتور يوسف خليف ، الشعراء المخضرمون — للدكتور يحيى الجبورى ، شعراء إسلاميون للدكتور نورى القيسى ، الشعراء المخضرمون للدكتور عبد الحليم حفنى •

الفصل الثانى

فى عصر بنى أمية

١ ـ التنوع والتجديد .
٢ ـ المعجم وسياسة العصر .
٣ ـ مصادر المادة .
٤ ـ خصائص المعجم

تعددت الأحزاب المناوئة للخلافة الأموية ، حيث راح كل حزب يطرح نظريته السياسية التى تبدو بالضرورة معادية لبنى أمية على نحو ما صنع الزبيريون والخوارج والشيعة ، ومن ثم تبينت ضرورة استعانة الدولة بشعرائها للدفاع عن كيانها وتأكيد شرعيتها ، وإفحام خصومها من شعراء تلك الأحزاب السياسية ، وبذا أصبح من أغلى ممتلكات شاعر الخلافة ، وكذلك شعراء الأحزاب المعارضة ، تلك المعانى والقيم الدينية التى يصدر عنها فى كل منهم زيادة فى الإقناع بقضيته واطمئنانا إلى انتصاره لها ، وتفنيد أدلة خصمه ، وضمان تغلغل شعره فى نفوس المسلمين من الرعيــة .

ذلك أن المجتمع مسلم ، وفيه يبدو التعيير بالإخلال بالقيم الدينية أمرا موجعا إلى حد كبير ، على عكس ما كان من شعراء صدر الإسلام من مشركى مكة ، ممن بدا تأثرهم واهيا بتلك القيم حتى إذا تم فتح مكة ودخلوا الإسلام ظهر تألمهم كلما تذكروها ويبقى أن نتبين انتشار فن الهجاء أو « النقيضة » الأموية بين الشعراء لتزجية الفراغ وقطع الطريق على الجمهور من المشاركات السياسية ويتحول الفن الهجائى إلى مباريات لسانية فنية يفتعلها فحول العصر ، وكل منهم يحتاج إلى مبررات الفخر والهجاء من أمجاد لقومه ومثالب لقوم خصمه ، الأمر الذى جعلهم يتخذون من القيم الدينية صورة أو عنصرا من عناصر هذا الفخر ، أو التعيير والهجاء ، عن طريق إثباتها لأنفسهم ، أو سلبها أو نفيها عن خصومهم .

وعلى هــذا النحو اتجهت الحياة الأموية على تنوع موضوعات شعرها إلى الترحيب بالتيار الإســلامى ، تسليما من الشعراء بضرورة تناوله فى الفن الشعرى ، وشيوعه فيه وسيطرته عليه ، باعتباره واحداً من جداول الثقافة الأموية ، تغلغل فى عقول الشــعراء ، فانعكست

مواقفهم من ذلك التيار الذي استوعبوه ووعوه ونموه ، حتى رصدوا لفنهم معجما إسلاميا يستقون منه الصور والمعاني على غرار شعراء الجيل السابق من ناحية ، وعلى نحو يتسق مع طبيعة الحياة السياسية والدينية الجديدة من ناحية أخري ، إذ يكفي أن نشير إلى أسماء الفرق لندرك حجم هــذه الحاجة إلى المعجم الديني ، فلدينا شعراء للخلافة كحزب سياسي وشعراء الزبيريين في الحجاز ، وآخرون للشيعة التي تمركزت في الكوفة ، ثم غيرهم للخوارج الذين استقروا في البصرة ، علي التعداد الداخلي للفروع المكونة لكل حزب على حدة ، وكذا كانت الفرق الدينية من الجبرية إلى القدرية إلى المرجئة إلى المعتزلة وجميعها فرضت علي الشعراء ضربا من التخصص الفني في شعره السياسي الذي يدعمه بالمعاني الدينية تأكيدا لحجته ، وكذا ضربا من الإلتزام الذي يدين فيه الشاعر بالولاء لفرقته في مقابل نيله من الأحزاب الأخري[1] .

ومن الأفضل أن نعرض ملامح هــذا المعجم قبل إصدار الأحكام أو استخلاص الملامح المميزة له وهو ما يأتي نتيجة التأمل والتعرف علي طبيعته ، وما أصابه من تطور أو تحول يفصل بينه وبين المعجم الإســلامي لدى شعراء عصر صدر الإســـلام بحكم تحول الحيــاة نفسها على المستويات السياسية والحضارية والفكرية .

وبدت معــاني الآيات القرآنية معينا مشتركا أمام الشــعراء يتبارون في الإفادة منه ، ومنها وردت مؤثرات كثيرة ازدحمت بهـــا أبيات الشعر ، ويرتد بعضها الى دلالات بعض الآيات القرآنية دون تضمينها الصريح في شعرهم بنصها ، إذ راح الشاعر يكتفي بمعنى الآية إلى حيث يريد من مدلولها على نحو ما نجده في قول الفرزدق :

---

(١) تراجع دراســات الشعر الأموي في : شعر الفرق للنعمان القاضي ، وأدب السياسة للدكتور الحوفي ، التطور والتجديد للدكتور شوقي ضيف ، في الأدب الإسلامي والأموي للدكتور عبد القادر القط والقصيدة الأموية للمؤلف .

تلقت به في ليلة كان فضلها
على الليل ألفا من شهور مقدرا[٢]

أو في قول جرير أيضا في بيت له :

فما أحصنته بالسعود مليكة
ولا ولدته أمه ليلة القدر[٣]

إذ يبدو التأثر واضحا في كلا الموقفين بقوله تعالى :
« ليلة القدر خير من ألف شهر »[٤] .

وكذا يرد في قول الفرزدق في مشهد حربي يرسمه لخصوم الخلافة :

كأن على ذير الجماجم منهم
حصائد أو أعجاز نخل تقعرا[٥]

إذ يبدو تأثره واضحا بقول الله تعالى « تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر »[٦] .

ثم يأتي قول الفرزدق أيضا :

بشهباء لم تشرب نفاقا قلوبهم
شآمية تتلو الكتاب المنشرا[٧]

حيث يبدو تأثره بالآية الكريمة « والطور ، وكتاب مسطور . في رق منشور »[٨] .

أو قوله تعالى « ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا »[٩] .

---

(٢) ديوان الفرزدق ١/٢٤٢ (٣) ديوان جرير ١/٤٢٥
(٤) سورة القدر ٣ (٥) ديوان الفرزدق ١/٢٤٢
(٦) سورة القمر ٢٠ (٧) ديوان الفرزدق ١/٢٤٣
(٨) سورة الطور ٣ (٩) سورة الإسراء ١٣

إلى جانب تناوله لفكرة النفاق وكيف أشربتها قلوبهم على لغة القرآن فى الهجوم على المنافقين .

ويتردد أيضا فى قول جميل :

ففا تينى إلى حكم من آهلى
وأهلك لا يحيف ولا يميل[١٠]

يستوحى المعنى بصورة غير مباشرة من الآية الكريمة « وإن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما »[١١] .

وعلى غرار هذه البساطة يأتى قول جرير :

فما يستوى داعى الضلالة والهدى
ولا حجة الخصمين حق وباطل[١٢]

حيث يبدو تأثره بالحس الإسلامى العام وبقوله تعالى « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور »[١٣]

وعلى نفس النهج قال مالك بن الريب مصورا حاله بين صعلوك ثم مجاهد إسلامى :

ألم ترنى بعت الضلالة بالهدى
وأصبحت فى جيش ابن عفان غازيا[١٤]

متأثرا فى ذلك بالآية الكريمة وقد أخذ عكس الدلالة حين استعمل البيع بدلا من الشراء من قوله تعالى « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة »[١٥] .

---

(١٠) ديوان جميل ١٠٠ (١١) سورة النساء ٣٥
(١٢) ديوان جرير ١/٤٠٣ (١٣) سورة فاطر ١٩
(١٤) شعراء أمويون ١/٤٢ (١٥) سورة البقرة ١٧٥

ومن أشباه هذه المؤثرات أيضا ما تطرحه الصورة التى رسمها ابن قيس الرقيات شاعر عبد الله ومصعب والحزب الزبيرى فى قوله :

أيها المستخل لحمى كله من ورائى ومن وراك الحساب[16]

حيث يأخذ الصورة من قوله تعالى « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه »[17] .

كما يقول ابن قيس أيضا :

هل ترى من مخلد غير أن اللـ ـه يبقى وتذهب الأشياء[18]

من قوله تعالى « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام »[19] .

وكأن الموقف يبدو قاسما مشتركا بين الشعراء فى زخام التنوع البيئى بين شعراء الشام وشعراء العراق ، وكذا شعراء الحجاز بين المدن والبوادى إلى جانب هذا التعدد المذهبى سواء على المستوى السياسى أو الدينى ، وإذا بالفرزدق أيضا يعكس بعدا آخر لهذا التأثر فى الصياغة فى قوله :

ولست بمأخوذ بلهو تقوله
إذا لم تعمد عاقدات العزائم[20]

من معنى الآية الكريمة « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان »[21] .

وهو ما يتردد له نظير أيضا فى قوله وقد استوحى مادته من مشاهد القيامة :

---

(١٦) ديوان ابن قيس ١٨٦ (١٧) سورة الحجرات ١٢
(١٨) نفسه ٨٨ (١٩) سورة الرحمن ٢٦/٢٧
(٢٠) ديوان الفرزدق ٢/٣٠٧ (٢١) سورة البقرة ٢٢٥

بقـوته الله الذى هـو بـاعث
عبادا له من خلقـه حين نشرا
عصائب كانت فى القبور فبعثرت
وعادا ترابا خلقه حين قصدرا[٢٢]

من قوله تعالى « أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور »[٢٣] .

أو قوله تعالى : « وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخـرت »[٢٤]

أو قوله تعالى عن النشور « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور »[٢٥] .

وفى صورة من فخره القرشى والحزبى معا يقول ابن قيس الرقيات :

ليس لـلـه حـرمة مثـل بيت
نحن حجـابه علينا المـلاء
خصـه الله بالكـرامة فالبـا
دون والعاكفـون فيـه سـواء

من قوله الله تعالى « والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد »[٢٧] . ومن ذلك التأثر قول جرير وإن بدا أقرب إلى غير المباشرة :

ماذا ترى فى عيال قد برمت بهم
لم تحص عدتهم إلا بعـداد
كانوا ثمـانين أو زادوا ثمانيـة
لولا رجاؤك قد قتلت أولادى[٢٨]

---

(٢٢) ديوان الفرزدق ١/٥٨٤ .

(٢٣) سورة العاديات ٩ .
(٢٤) سورة الانفطار ٤ .

(٢٥) سورة الملك ١٥ .
(٢٦) ديوان ابن قيس ٩٥ .

(٢٧) سورة الحج ٢٥ .
(٢٨) ديوان جرير ٢/٤٥ .

فهو تأثر غير مباشر بالصياغة القرآنية « وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا »[٢٩] • وفي قوله تعالى « ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا »[٣٠] • وفي قول ابن قيس ما يوحي بالتأثر حتى بالإيقاع الصوتي لبعض الآيات من مثل قوله :

جزى الله يوم المرج رعلا وقنفذا
جزاء كريما يوم تبلى البواطن[٣١]

إذ يستلهم الصياغة من إيقاع الآية الكريمة « يوم تبلى السرائر »[٣٢] وكذا ترد الصورة التي رسمها قول جرير :

مازلت معتصما بحبل منكم
من حل نجوتكم بأسباب نجا[٣٣]

إذ يستمدها من الصورة التي رسمتها الآية الكريمة « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » • فإذا قال الفرزدق عن أعداء ممدوحه :

رجوا من حربها أن يستريحوا
وقد كان الحديد لهم شرابا[٣٤]

وجدته يتأثر بالآية الكريمة « من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد »[٣٥] وهو ما يزداد لديه انتشارا على مستوى اللوحة الفنية التي رسمها قوله :

إني حلفت ولم أحلف على فند
فناء بيت من الساعين معمور
في غرفة الجنة العليا التي جعلت
لهم هناك بسعي كان مشكور

(٢٩) سورة الجن ٢٤ •
(٣٠) ديوان ابن قيس ١٠٦ •
(٣١) سورة الكهف ٢٥ •
(٣٢) ديوان جرير ١/٣٤٤ •
(٣٣) سورة الطارق ٧ •
(٣٤) ديوان الفرزدق ١/١٠٤
(٣٥) سورة إبراهيم ١٦ •

فلن تزال لكم والله أثبتها
فيكم إلى نفخة الزحمن فى الصور[٣٦]

إذ يستمد للصورة أركانها وزواياها من الآيات :

« والبيت المعمور ، والسقف المرفوع »[٣٧] ، وكذا من قوله تعالى :

« إن هـذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا »[٣٨] وقوله تعالى : « قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور »[٣٩] .

هـذا إلى جانب تأثره الواضح بالمشاهد الدينية إزاء الأيمان الصادقة وغيرها ، أو مشهد السعى فى البيت المعمور كشعيرة دينية إلى مشاهد القيامة التى استوقفه منها نفخة الصور ، وغرف الجنة العليا التى أعدت للمؤمنين .

ويقول الفرزدق أيضا على مستوى الأبيات المتناثرة :

ورواح معتسفة وغدوتها
شهرا تواصله إلى شهر[٤٠]

متأثرا بمعنى الآية الكريمة « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر »[٤١] .

كما يقول :

قد خنقت تسعين أو كربت
تدنو الآخر أرذل العمر[٤٢]

---

(٣٦) ديوان الفرزدق ١/٢١٤ .
(٣٧) سورة الطور ٤ .
(٣٨) سورة الإنسان ٢٢
(٣٩) سورة الأنعام ٧٣ .
(٤٠) ديوان الفرزدق ١/٢٦١ .
(٤١) سورة سبأ ١٢ .
(٤٢) ديوان الفرزدق ٢٦٦ .

متأثرا بدلالة الآية الكريمة : « ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شــيئا »[٤٣] .

ومن ذلك قوله فى أكثر من مشهد معا وكلها مرتبطة بقداسة الخلافة كما روج لها شــعراؤها :

إذا يثورون أفواجا كأنهـــــم
جراد ريح من الأجداث منشــور
لو لم يبشر به عيسى وبينـــه
كنت النبى الذى يدعو إلى النور [٤٤]

إذ يســتعرض الصورة التى رسمتها الآية الكريمة فى تصوير مشــاهد القيامة « يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر »[٤٥] وكذا فى قوله تعالى «وهو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور »[٤٦] إلى جانب حسه الدينى العام فى حديثه عن بشارة عيسى عليه الســلام ، وبيان محمد ﷺ وفصاحته وما جاء به عن الفرقان الهادى إلى النور . ويدخل فى هــذا الإطار أيضا ما رسمه الأحوص فى قوله من أبيات غزلية ينعكس فيها حسه الإســلامى :

كأنــى من هواك أخـــو فراش
تجلجل نفســه بين التراقـــى
حلفت لك الغـــداة فصـــدقينى
برب البيت والســـبع الطباق
لأنت إلى الفــؤاد أشــد حبــا
من الصادى إلى الكأس الدهاق [٤٧]

---

(٤٣) سورة الحج ٥ . (٤٤) الفرزدق ١/٢١٤ .
(٤٥) سورة القمر ٧ . (٤٦) سورة الحديد ٩ .
(٤٧) ديوان الأحوص ١٦٤ .

فهو يجمع أشتات الصورة مما استلهمه من دلالة الآيات « كلا إذا بلغت التراقى »[48] ومن قوله تعالى « إن للمتقين مفازا ، حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وكأسا دهاقا »[49] والآية الكريمة « ألم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقا »[50] إلى جانب فهمه الدينى برب البيت .

وبذا يبدو من هذا الركام العشوائى المتناثر فى دواوين الشعراء كيف رحبوا بالمصدر الأول من المصادر الإسلامية ، وتنافسوا فى الإفادة مما ورد فى الآيات الكريمة ، بشكل غير مباشر أو مباشر أحيانا ، ذلك أننا لا نتحدث عن التضمين عندهم ، بل نكتفى هنا بمجرد التأثر الذى يكشف عن صدق للآية الكريمة فى ذهن الشاعر ، وهو أمر طبعى لقرب هؤلاء الشعراء من القرآن من ناحية فهو امتداد للعصر الأول ، ولأن العصر عصر تدوين يدعو إلى تأملهم ما يدور فى علوم التفسير وما دون منها من ناحية أخرى . ومع بقية المؤثرات بصورة أكثر منهجية وتوزيعا يمكن أن نستكمل هذا الحوار .

فقد بدا للقصص الدينى رصيد ضخم من التأثير فى شعراء هذا العصر ، وكأنهم راحوا يتبارون فى الإفادة منه ، على نحو ما نجد من تأثير قصة نوح عليه السلام فى لوحات كاملة للشعراء على غرار ما يقوله القطامى :

نرجو البقاء وما من أمة خلقت
إلا سيهلكها ما أهلك الأمما
أما سمعت بأن الريح مرسلة
فى الدهر كانت هلاك الحى من إرما
وقوم نوح وقد كانوا يقول لهم
ياقوم لا تعبدوا الأوثان والصنما

---

(٤٨) سورة القيامة ٢٦ . (٤٩) سورة النبأ ٣٤ .
(٥٠) سورة نوح ١٥ .

فكذبوا من دعا للخير واجتنبوا
ما قال وامتلأت آذانهم صمما
فلا هم رهبوا ما قد أظلهم
ولا نبيهم عمي ولا كتما (٥١)

إذ يشكل لوحته من مادة القصص القرآني من الأمم القديمة وصور هلاكها ودلالة هذا الهلاك على عصيانها ، ويستبدل من هذا الهلاك على طريقة دمار إرم ذات العماد عن طريق الريح المرسلة تعكس غضب الخالق عليهم ، أو ما كان من مكابرة قوم نوح وقد دعاهم فعموا وصموا وتجنبوا الخير الذي جاءهم به فحق عليهم انتقام ربهم سبحانه منهم .

وفي لوحة ثانية للقطامي يقول متأثرا بنفس القصة في معرض الإنذار والوعظ :

فما من جدة إلا ستبلى
ويبقى بعد جدتها الجبار
وأنذركم مصائر قوم نوح
وكانت أمة فيها انتشار
وكان يسبح الرحمن شكرا
ولله المحامد والوقار
فلما أن أراد الله أمرا
مضى والمشركون لهم جوار
ونادى صاحب التنور نوحا
وصب عليهم منه الوبار
وضجوا عن مجيئته إليهم
ولا ينجي من القدر الحذار

---

(٥١) ديوان القطامي ١٠٠ .

وجاش الماء منهمرا إليهم
كأن غثاءه خرق نشار
وعامت وهى قاصدة بإذن
ولولا الله جار بها الجوار
إلى الجودى حتى صار حجرا
وحان لتالك الغمر انحسار
فهذا فيه موعظة وحكم
ولكنى امرؤ فى افتخار (٥٢)

وهنا يأخذ التأثر بالمعجم القصصى القرآنى أبعاداً أكثر تفصيلا وعمقا إذ عكف الشاعر على جوانب من القصة يحكيها ويوظفها فى أبياته التى ختمها بصراحة موعظته وحكمه بعد أن قدم بحكمة أخرى تطابقها ، وبين الحكمتين الأولى والأخيرة يلتقط من مشاهد القصة ما كان من إنذار نوح عليه السلام لقومه وتسبيحه لربه شكرا وحمدا ، ورفض قومه لدعوته وقد ضجوا منه وضاقوا به ، حتى جاءهم الطوفان عقابا من ربهم ، ولم يكن لهم منه نجاة ولا حذر إلا من عصم الله ، فكانت نجاة نوح ومن معه فى سفينته وقد استوت على الجودى وسارت باسم الله مجريها ومرساها .

وعلى نفس المستوى من القياس للمواقف التأثيرية صور الفرزدق خصمه من خلال ما صوره موقف ابن نوح قائلا :

فلما عتا الجحاد حين طغى به
غنى قال : إنى مرتق فى السلالم
فكان كما قال ابن نوح سأرتقى
إلى جبل من خشية الماء عاصم (٥٣)

---

(٥٢) ديوان القطامى ١٤٣ .
(٥٣) ديوان الفرزدق ٢/٣٠٩

وكأنما استوقفه وجه الشبه المحدد بين عصيان الجحاد وبين عصيان ابن نوح لأبيــه .

ومن ذلك أيضا قول جرير :

لو تعلمين الذى نلقى أويت لنــا
أو تسـمعين إلى ذى العرش شكوانا

كصاحب الموج إذ مالت سـفينته
يدعـو إلي الله إسرارا وإعلانا

يا أيها الراكب المزجى مطيتــه
بلغ تحيتنــا لقيت حمـلانا (٥٤)

ومن مثله قوله أيضا :

ومسـلم جرار الجيوش إلى الغدا
كما قاد أصحاب السـفينه نوح

يداك يد تسقى السـمام عدونا
وأخرى بريات السحاب تفوح. (٥٥)

فمن الواضح من لقاء هـذه الشواهد أن القصص الدينى أصبح قاسـما مشتركا يتعاوره شـعراء العصر حيث راحوا ينهلون منه فى الصياغة الجمالية لقصائدهم ، ومن القصة القرآنية أفادوا من توظيفها فى موطن العظة والاعتبار ، أو من التماس التشـابه بين المواقف فى عصرهم وبين أحداث هـذا القصص الدينى ، ولذا بدت الإفاضة واضحة فى تفاصيل القصة ـ أحيانا ـ من قبيل تأكيد تلك العظة ، وبعث الاطمئنان إلى مواضع الاعتبار منها ، وإن كان يلاحظ ـ أيضا ـ أنها تنمو نمواً تفصيليا تعرضه القصة الدينية ، على نحو ما ظهر فى حوارهم حـول مقدماتها من السـفينة ، وصاحبها ، وابنـه ،

---

(٥٤) ديوان جرير ٣٠١/١ .

(٥٥) ديوان جرير ٣٨٨/٢ .

وقومه ، ثم تشغلهم من أمر السفينة ذاتها : كيف صنعها ، وكيف سارت وكيف مالت ، كما سيطر عليهم من صورته كنبى كيف تبنى دعوة قومه إلى التوحيد ، وكيف عصوه ورفضوها ، وكيف استمر فى دعوته لعبادة الرحمن ، وهم ينكصون عن تلك العبادة ، ويتحدون صاحب الرسالة ويخذلونه ؛ ومما زاده حزنا وأسفا من صورة ابنه وعصيانه ، وكيف تصور إمكانية النجاة بصعوده إلى الجبل ، وهى عناصر صاغتها القصة القرآنية فى كثير من الآيات الكريمة من مثل قول الله سبحانه وتعالى : « وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين »(٥٦) .

« وقوم نوح من قبل انهم كانوا أظلم وأطغى »(٥٧) .

١ ـ فهؤلاء قوم نوح وهذه صفاتهم كما رصدها القرآن الكريم والتقطها منه الشعراء ، وهم يدخلون فى زمرتهم أمثالهم من الأقوام والأمم :

« مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم »(٥٨) .

٢ ـ وها هو نوح عليه السلام منذ اصطفاه الله واختاره للرسالة إلى موقفه من قومه :

« إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين »(٥٩) .

« ولقد رسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله »(٦٠) .

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين »(٦١) .

---

(٥٦) سورة الذاريات /٤٦ . (٥٧) سورة النجم ٥٢

(٥٨) سورة غافر ٣١

(٥٩) سورة آل عمران / ٣٣ (٦١) سورة هود ٢٥

(٦٠) سورة الأعراف ٥٩

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما »[62] .

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن »[63] .

« قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا »[64] .

« قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين »[64] .

« وقال نوح إنهم عصونى »[65] .

« وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا »[66] .

٣ — وها هو مشهد السفينة ، وموقفه من ابنه وقومه ، وصورة الطوفان ، وكيف نجا عليه السلام ومن آمن معه :

« ولقد نادانا نوح فلنعلم المجيبون »[68] .

« فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا »[69] .

« فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله »[70] .

« ويصنع الفلك وكلما مر عليه قوم سخروا منه »[71] .

« ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا »[72] .

« ونادى نوح ابنه يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين »[73] .

« ونادى نوح ربه فقال ربى إن ابنى من أهلى ، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح »[74] .

---

(٦٢) سورة العنكبوت / ١٤ — (٦٣) سورة هود ٣٦
(٦٤) سورة هود ٣٢ — (٦٥) سورة الشعراء / ١١٦
(٦٦) سورة نوح ٢١ — (٦٧) سورة نوح ٢٦
(٦٨) سورة الصافات ٧٥ — (٦٩) سورة المؤمنون ٢٧
(٧١) سورة هود ٣٨ — (٧١) سورة هود ٤٢
(٧٠) سورة المؤمنون ٢٨ — (٧٢) سورة الإسراء ٣
(٧٤) سورة هود ٤٥ ، ٤٦

« قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم »[75] .

« قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك »[76] .

« فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون »[77] .

٤ — ومن واقع القصة بهذا التعدد فى المشاهد وعلى النحو من الاقتباس والإفادة لدى الشعراء كان موضوع العظة والاعتبار مرصودا ومستخلصا منها فى بعض آيات القرآن الكريم ذاتها :

« كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود »[78] .

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده »[79] .

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك »[80] .

« وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية »[81] .

وقد يغلب عليه الإطالة والتفصيل فى رسم اللوحة من خلال القصص الدينى الذى يتخذه أساسا لعرض موقفه الفنى على نحو ما اصطنعه الفرزدق فى قصيدته الميمية المشهورة حول هجائه إبليس ، وتصوير صراعه معه حتى انتصر عليه ، حين بدا تائبا عن فسقه ومجونه فراح يقول له ساخرا متهكما :

ألم ترنى عاهدت ربى وأننى
لبين رتاج قائم ومقام
على قسم لا أشتم الدهر مسلما
ولا خارجا من فى سوء كلام

(٧٥) سورة هود ٤٣
(٧٦) سورة هود ٤٨
(٧٧) سورة الشعراء ١١٩
(٧٨) سورة ق ١٢
(٧٩) سورة النساء ١٦٣
(٨٠) سورة الشورى ١٣
(٨١) سورة الفرقان ٣٧

ألم ترنى والشعر أصبح بيننا
ذروء من الإسلام ذات حوام

وبعد استعراضه هذا الموقف يعقد الموازنة قبل التوبة وبعدها فى بيتين متواليين :

أطعتك يا إبليس سبعين حجة
فلما انتهى شيبى وتم تمامى
فررت إلى ربى وأيقنت أننى
ملاق لأيام المنون حمامى

وكأنه يتخذ من هذا كله مدخلا يتجاوز قصته هو نفسه معه على مدار سبعين عاما من عمره ، ليؤكد القرائن من خلال قصص دينى يؤكد مقولته حول إضلال البشر من لدن آدم عليه السلام ، وهنا يتناول ما كان من قصة بدء الخليقة وصراع ابليس مع آدم حتى وسوس له فأساء إليه :

وآدم قد أخرجته وهو ساكن
وزوجته ، من خير دار مقام
وأقسمت يا إبليس أنك ناصح
له ولها ، إقسام غير إثام

وهو بذلك يزداد ضيقا به وبوسوسته التى يرفضها مرارا كلما تذكر بعضا من قصصه ، فإذا هو يردف قصته مع آدم عليه السلام قائلا :

وما أنت ياإبليس بالمرء أبتغى
رضاه ، ولا يقتادنى بزمام
فكم من قرون قد أطاعوك أصبحوا
أحاديث كانوا فى ظلام غمام

صدق الله العظيم فى كل آياته ، فمنها برزت القصة متكاملة

الأطراف واضحة المعالم ، الأمر الذى اندفع إليه الشعراء — كما رأينا — فى كثير من مواقفهم الفنية ، وكرروا رجوعهم إليها فى مصدرها ، فأخذوا منها ما أخذوه فى مواطن العظة والاعتبار أو عرضوا منها ما عرضوه وجها للشبه من خلال قضية العصيان ، أو الجزاء الذى حل بالقوم .

ولعل مجال القصص الدينى بدأ من أوسع المجالات أمام الشعراء ، ومعه تعددت الصور واللوحات الفنية ، ودأب بعضهم على البحث والتقصى وراء هذا القصص حتى يستمد منه صوره ، فمن قصة إبليس أيضا ظهر تأثر الشعراء ، وبدا الموقف عندهم موزعا بين الإيجاز والتفصيل ، وكأن إبليس يصبح رابطا مشتركا لكثير من قصص الأقوام التى عصت الرسل أو رفضت الدين وكابرت ، وحول رصيد من هذه الأبيات قد اتضح الموقف يزداد جلاء من خلال الفرزدق أيضا على سبيل الإيجاز :

وقد كنت ضرابا لها ياابن يوسف
جماجم من عادى الإمام وشيعا
إلى الغى إبليس النفاق وأوضعا
جماجم قوم ناكثين جرى لهم

كما يرد له أيضا فى دائرة الإيجاز قوله :

لقد ضرب الحجاج ضربة حازم
كبا جند إبليس لها وتضعضعوا
أضاء لها ما بين شرق ومغرب
بنور مضىء والأسنة شرع
وخرت شياطين البلاد كأنها
مخافة أخرى فى الأزمة خضع(٨٧)

---

(٨٢) ديوان الفرزدق ١/٣٩٩ .

(٨٣) ديوان الفرزدق ١/٤١٧ .

بل يتمنى لو استطاع أن ينتقم لنفسه منه ، وأن يجزيه من سوءات ما أحله به من قبل :

سأجزيك من سوءات ما كنت سقتني
إليه جروحا فيك ذات كلام

وإلى جانب قصة آدم ينتقل إلى قصته مع أهل الحجر فى موقفهم من ناقة صالح وما كان من قدار حين عقر ناقة نبى الله صالح عليه السلام وقد أمروا أن يتركوها فعصوا أمر ربهم :

ألم تأت أهل الحجر والحجر أهله
بأنعم عيش فى بيوت رخام
فقلت : اعقروا هذى اللقوح فانها
لكم ، أو تنيخوها لقوح غرام
فلما أناخوها تبرأت منهم
وكنت نكوصا عند كل ذمام

وكأنه راح يجمع أشتاتا من القصص الدينى الذى يجمعه سلوك إبليس بين إيقاع فريسته فى شرك الخديعة ثم تنكره له وفراره منه ، وهو ما صوره فى مشهد آخر من نفس القصيدة حين جعل فرعون أخا له وقد صور غرقه وجيشه فى البحر الأحمر فيقول :

يبشرنى أن لن أموت وأنه
سيخلدنى فى جنة وسلام
فقلت له : هلا أخيك أخرجت
يمينك من خضر البحور طوام
رميت به فى اليم لما رأيته
كفرقة طودى يذبل وشمام
فلما تلاقى فوقه الموج طاميا
نكصت ، ولم تحتل له بمرام

وحين يريد الخلاص إلى العبرة وموضع الاعتبار يعمم مشهد الخديعة الذى تكرر فى المشاهد :

وبذلك بدا القصص القرآنى مصدر أخذ لدى شعراء العصر ، يستمدون من جزئياته المختلفة حوارهم وصورهم ، ويزيدون فى تفاصيلها أو يوجزون فيها على نحو ما رأينا فى موقفى الفرزدق . ومازال الشعراء يدورون حول ذلك القصص فيستخدمون تأثيرات مكررة من قصة يوسف عليه السلام ، مما نجد له صدى عند جرير فى مدحه أيوب بن سليمان بن عبد الملك حيث يقول :

الله أعطاكم من علمه بكم
حكما وما بعد حكم الله تعقيب
أنت الخليفة للرحمن يعرفه
أهل الزبور وفى التوراة مكتوب
كونوا كيوسف لما جاء إخوته
واستعرفوا ، قال : ما فى اليوم تثريب
الله فضله والله وفقه
توفيق يوسف إذ وصاه يعقوب[(٨٤)]

فهو يستمد من القصة القرآنية وصية يعقوب ، وكيف كانت مكانة يوسف عليه السلام وقد اجتباه ربه ، وكيف عفا من إخوته حين أتوه وتعرفوا عليه ، كما تأثر بحلم الملك وفكرة السبع العجاف فى قوله :

وأنت لا تورد بالأجواف
غير ثمانى أينق عجاف[(٨٥)]

فلا شك أن كل هذه العناصر التى عكف عليها استمدها مما أوردته آيات القرآن الكريم :

« إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ، قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا »[(٨٦)] .

---

(٨٤) ديوان جرير ١/٣٤٩ . (٨٥) ديوان جرير ٢/٧٣٣ .
(٨٦) سورة يوسف ٤ ــ ٥ .

«وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث» (87) .

« يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف » (88) .

« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء » (89) .

« وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون » (90) .

« ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه » (91) .

« قالوا أإنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا » (92) .

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه » (93) .

« قال : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » (94) .

على أننا لا نزعم فى رصد هذا المعجم القصصى أن الشاعر قد التزم بكل عناصر القصة التى استوقفته . فمن الواضح هنا أنه أقام تأثره بها على الاختيار ، إذ يختار من عناصر القصة ما يبدو متسقا مع موضوعه ، ومع ما يمكن أن يطرحه فيما يرمى إليه من تأكيد الموقف التقريرى فى العظة والاعتبار ، أو التصويرى فى المدح أو فى الهجاء أيضا ، إذ أفسح الشاعر لنفسه مجالا لطرح بعض ما أفاده من القصص القرآنى اتساقا مع المواقف المتعددة ، كما حدث فى موقفه من قصة السامرى على نحو من قول جرير :

يا آل بارق لو تقدم ناصح
للبارقى فإنه مغرور

(87) سورة يوسف 21 .

(88) سورة يوسف 46 .

(89) سورة يوسف 56 .

(90) سورة يوسف 58 .

(91) سورة يوسف 69 .

(92) سورة يوسف 90 .

(93) سورة يوسف 99 .

(94) سورة يوسف 92 .

كالسامرى غداة ضل بقومه
والعجل يعكف حوله ويخور [٩٥]

ويبدو أنه لم تشغله من قصة السامرى إلا دلالتها على ذلك الضلال الذى ردده حتى جعله مثلا وموضعا للاعتبار :

ولما دعوت العنبرى ببلدة
إلى غير ماء لا قريب ولا أهل
ضللت ضلال السامرى وقومه
دعاهم فظلوا عاكفين على عجل [٩٦]

فهو يستوحى معانيه مما ورد من آيات قرآنية حول قصة السامرى من مثل قوله تعالى :

« واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار » [٩٧] .

« فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار » [٩٨] .

« قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ » [٩٩] .

« إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم » [١٠٠] .

« ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » [١٠١] .

« ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل » [١٠٢] .

« قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم » [١٠٣] .

« قال فإنا فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى » [١٠٤] .

---

(٩٥) ديوان جرير ٢٦٦/١
(٩٦) ديوان جرير ٩٥٢/٢ .
(٩٧) سورة الأعراف ١٤٨ .
(٩٨) سورة طه ٨٨ .
(٩٩) سورة هود ٦٩ .
(١٠٠) سورة الأعراف ١٥٢ .
(١٠١) سورة البقرة ٩٢ .
(١٠٢) سورة البقرة ٥٤ .
(١٠٣) سورة البقرة ٩٣ .
(١٠٤) سورة طه ٨٥ .

وغالبا ما يستهدف الشاعر من القصص الدينى الاعتبار والعظة كما رأينا فى كثير من الشواهد السابقة ، ولذا بدا من حق الشاعر أن يجمع كما من هذا القصص فى فنه ، فهو لا يحكى قصة بعينها ، ولا يقف عند التأصيل لعناصرها وموادها الفنية ، ولكنه يأخذ ما يتراءى له من هذا وذاك حسب طبيعة المواقف ، طالما كان هدفه منها الاستشهاد على ما يقول وتوكيده ، وكذلك راح الفرزدق يجمع فى مدح سليمان بن عبد الملك بين كثير من قصص الرسل فى قوله :

جعلت لأهل الأرض أمنا ورحمة
وبرءاً لآثار القروح الكوالم

كما بعث الله النبى محمدا
على فترة والناس مثل البهائم

فلما عتا الجحاد حين طغى به
غنى قال : إنى مرتق فى السلالم

فكان كما قال ابن نوح سأرتقى
إلى جبل من خشية الماء عاصم

رمى الله فى جثمانه مثل ما رمى
عن القبلة البيضاء ذات المحارم

جنودا تسوق الخيل حتى أعادها
هباء وكانوا مطرخمى الطراخم

نصرت كنصر البيت إذ ساق فيله
إليه عظيم المشركين الأعاجم (١٠٥)

فهو يستغل رصيدا دينيا من قصص القرآن الكريم سجلته الآيات فى سور مختلفة حول قصة أهل الفيل وقصة ابن نوح ثم بعثة رسول الله ﷺ :

---

(١٠٥) ديوان الفرزدق ٣/ي٣٠ ٠

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل »[١٠٦] .

«قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم »[١٠٧] .

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول »[١٠٨] .

ويبقى عند جرير أيضا رصيد بارز من تأثره بقصص الأنبياء التى سجلها فى أبيات متوالية ، على النهج السابق للفرزدق على غرار ما يقوله فى قصيدته فى مدح ابن أحور المازنى ، حيث يذكر أبناء اسماعيل مفتخرا من خلالهم :

أبونا أبو إسحاق يجمع بيننا
أب كان مهديا نبيا مطهرا
ومنا سليمان النبى الذى دعا
فأعطى بنيانا وملكا مسخرا
وموسى وعيسى والذى خر ساجدا
فأنبت زرعاً دمع عينيه أخضرا
ويعقوب منا زاده الله رفعة
وكان ابن يعقوب أميناً مصورا
فجمعنا والغر أبناء سارة
أب لا نبالى بعده من تغدرا
أبونا خليل الله والله ربنا
رضينا بما أعطى الإله وقدرا

---

(١٠٦) سورة هود ٤٣ . (١٠٧) سورة المائدة ١٩ .
(١٠٨) سورة الفيل .

بنى قبلة اللــه التى يهتدى بهــا
فأورثنا عزا وملكــا معمــرا [109]

فهو يعتمد على ذلك السرد المتدفق الذى يستعرض من خلاله قصص الأنبياء فى معرض عراقة الأنساب وشرفها من لدن إبراهيم أبى الأنبيــاء عليــه وعليهم الســلام ، إلى إســحاق ، وسليمان ، ويعقوب ، وموسى ، وعيسى ويوسف عليهم الســلام ، كما يشير إلى الكعبــة التى بناها إبرهيم وإســماعيل عليهما الســلام لتكون للناس قبلة طهورا ، وهو يستمد هــذا كله من الآيات القرآنية حول قصص هؤلاء الأنبياء أيضا :

« واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا »[110] .

« ووهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا »[111] .

« واذكر فى الكتــاب موسى إنه كان مخلصا وكان رســولا نبيــا »[112] .

« وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم »[113] .

« ووهبنا له إســحاق ويعقــوب وجعلنــا فى ذريته النبــوة والكتــاب »[114] .

« وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل »[115] .

« وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والعاكفين والركع الســجود »[116] .

---

(١٠٩) ديوان جرير ٤٧٣/١
(١١٠) سورة مريم ٤١ .
(١١١) سورة مريم ٤٩ .
(١١٢) سورة مريم ٥١ .
(١١٣) سورة آل عمران ٨٤
(١١٤) سورة العنكبوت ٢٧
(١١٥) سورة البقرة ١٢٧ .
(١١٦) سورة الحج ٢٦ .

«وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان »[117] .

« وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس »[118] .

« فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب »[119] .

وربما اكتفى الشعراء باللمح السريع والإشارة الخاطفة إلى القصة القرآنية ، مما نجد منه صورا عند جرير حين يعرض للإفادة من قصة هود عليه السلام ، أو قصة سليمان وداود عليهما السلام في قوله في قصائد له مختلفة :

رأى الحجاج عافية ونحوا
على رغم المنافق والحسود
دعا أهل العراق دعاء هود
وقد ضلوا ضلالة قوم هود[120]

كما يشير إلى قصة داود عليه السلام فى قوله :

فى آل يربوع يلاقى المصدقا
ونسج داوود علينا حلقا[121]

ومن ذلك قول الفرزدق :

ورثت أباك الملك تجرى بسمته
كذلك خوط النبع ينبت فى الأصل

(١١٧) سورة النساء ١٦٣ .

(١١٨) سورة البقرة ٨٧ .

(١١٩) سورة ص ٤٥ .

(١٢٠) ديوان جرير ٢/٧٢٧ .

(١٢١) ديوان جرير ٢/٧٩٣ .

كداوود إذ ولى سليمان بعـــده
خلافته نحلا من الله ذى الفضل[١٢٢]

فكلاهما يفيد من الآيات القرآنية التى وردت حول هذا القصص الدينى « ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود »[١٢٣] ، « ولقد آتينا سليمان وداوود علما »[١٢٤] ، « وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير »[١٢٥] .

ويأتى ضمن ما ردده الشعراء على ذلك النحو من سرعة الأداء والاستشهاد ما أنشده الفرزدق متأثرا بقصة آدم عليه السلام فى غير قصة إبليس السابقة ، فى قوله :

وكانت جنتــى فخرجت منهـــــا
كآدم حين لج به الضرار[١٢٦]

من قوله تعالى « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة »[١٢٧] ، « يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة »[١٢٨] .

ومن قبيل هــذا التأثر السريع أيضا قول جرير من قصة ثمود ، وهو بصدد هجاء الفرزدق :

وشــبهت نفســك أشــقى ثمــود
فقــالوا ضللت ولم تهتــــد

(١٢٢) ديوان الفرزدق ٢/١٤٥ قوله ورثت أباك الملك : أراد ورثت عن أبيك الملك . السمت : القصد . الخوط : الغصن . النبع : ضرب من الشــجر .

(١٢٣) سورة هود ٦٠ . (١٢٤) سورة النمل ١٥ .
(١٢٥) سورة النمل ١٦ . (١٢٦) ديوان الفرزدق ١/٩٤ .
(١٢٧) سورة البقرة / ٣٥ . (١٢٨) سورة الأعراف ٢٧ .

وقد أجلوا حين حل العـذاب
ثلاث ليـال إلى الموعـــد [١٢٩]

وكذا قوله .

ونبئت أشـقى جعفر هاج شـقوة
عليهـا كما أشـقى ثمود مبيرها

يصـيحون يستسقونه حين أنضجت
عليهم من الشعرى التراب حرورها[١٣٠]

ومن قصة ثمود أيضا راح الفرزدق ينسج قوله :

إن نحـن لم نمنـع بطاعتنـا
والحـب للمهـدى والشـكر
فغدت علينـا فى منازلنـا
رسـل العـذاب برغـوة البكـر
أشـقى ثمـود حين ولهـه
عن أمـه المشـئوم بالعقــر
لمـا رغـا همـدوا كأنهـم
هابى رماد مؤثف القـدر [١٣١]

وقد رصدنا من قبل الآيات التى أفاد منها هنا « فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام »[١٣٢] ، « فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر »[١٣٣] • وكذلك الحال فى الموقف من قصة يونس عليه السلام ، إذ يقول الفرزدق :

---

(١٢٩) ديوان جرير ٢/٨٤٢ (١٣٠) ديوان جرير ١/٣٦٩
(١٣١) ديوان الفرزدق ١/٢٦٣ • رغوة البكر : أى بكر ناقة صالح إذ رغا على قوم ثمود فأهلكوا • أشقى ثمود : هو الذى عقر الناقة •
(١٣٢) سورة هود / ٦٥ • (١٣٣) سورة القمر ٢٩ •

دعوت الذى ناداه يونس بعـــد ما
نوى فى ثلاث مظلمات ففرجا [١٣٤]

فهو يستوحى المعنى من الآية الكريمة « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعـــد خلق فى ظلمات ثلاث »[١٣٥] أو من القصـــة القرآنية « وذا النون إذ ذهب مغاضـــبا فظن أن لن نقدر عليـــه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين »[١٣٦] ومن قصـــة يوسف عليه السـلام أيضا الإشارة السريعة عند الفرزدق من خلال صفح يوسف عن إخوته ، كما رأينا من قبل ، إذ يتكرر التأثر فى معرض المدح بفعـــل الأمر الذى يخفف من حدته هنا الاســـتعانة بالقصص القرآنى :

كن مثل يوسف لـمـا كاد إخوته
سل الضغائن حتى ماتت الحقـــد [١٣٧]

ومن قصة ثمود أيضا تراه يردد على نحو من السرعة :

فصاروا كمن قد كان خالف قبلهـم
ومن قبلهم عاد عصت وثمـودها [١٣٨]

وقـــوله :

أمار بكم عن دينه كل ناكث
كما الأمم الأولى أبيرت ثمودها[١٣٩]

---

(١٣٤) ديوان الفرزدق ١/١١٣ .
(١٣٥) سورة الزمر ٦ .
(١٣٦) سورة الأنبياء ١٧ .
(١٣٧) ديوان الفرزدق ١/٣٩ .
(١٣٨) نفســـه ١/١٧١ .
(١٣٩) نفســـه ١/١٥١ .

وقوله أيضـــا :

وكـــان لهـــم كبكر ثمـــود لمـــا
رغا ظهراً فدمرهـــم دمارا[140]

ومن قصة داوود عليه الســـلام أيضا يستمد الفرزدق فى قوله :

فأنت أحق الناس بالعـــدل والتقى
وأنت ترى الأرض الحيا وطهورها
فأصبحتما فينا كداوود وابنـــــه
على سنة يهدى بها من يسيرها [141]

وكذلك فى قوله :

بنيت الذى أحيا سليمان وابنـــه
وداوود والجن الذى كان ســـخرا
فأصـــبح جسرا خالـــدا ويدكـــه
إذا دك عن يأجوج ردما فنشبرا [142]

وقـــوله :
ومن ســـمك الســـــماء له فقامت
وســـخر لابن داوود الشـــمالا[143]

إذ يتضح تأثره المباشر بالآيات « وســـخرنا مع داود الجبـــال يسبحن والطير »[144] ومن قوله تعالى أيضا : « فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب »[145] والآية الكريمة « قال عفريت من

---

(١٤٠) الفرزدق ١/٣٥٠ .
(١٤١) نفســـه ١/٣٤٧ .
(١٤٢) نفســـه ١/٣٤٨ .
(١٤٣) نفســـه ١/٧٠
(١٤٤) نفســـه ١/٧٩ .
(١٤٥) سورة ص ٣٦ .

الجن أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك »[146] ، وهكذا تطرد الظاهرة ، ومن خلالها يبدو كبار شعراء العصر أشد حرصا على الاستقصاء ، والتعرض لأطراف شتى من هذا القصص القرآنى ، فمن قصة قوم « تبع » أيضا يستمد الفرزدق قوله :

علي ابنك وابن الأم إذ أدركتهما
المنايا وقد أفنين عادا وتبعا[147]

وقوله :

ليدرك مسعاه الكرام ولم يكن
ليدركها حتى يكلم تبعا [148]

فهو يتأثر بما أوردته الآيات « وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد »[148] ، « أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم »[150] .

ومن قصة ذي القرنين أيضا يعرض قوله :

أتيت بني الشرقي تحسب عزهم
على عهد ذى القرنين كان تضعضعا[151]

وقوله :

علي عهد ذى القرنين كانت سيوفهم
عمائم هامات الملوك البطارق [152]

---

(١٤٩) سورة ق ١٤ .
(١٤٧) ديوان الفرزدق ١/٤٠٣ .
(١٤٨) نفسه ١/٣٩٧ .
(١٥٠) سورة الدخان ٣٧ .
(١٥١) ديوان الفرزدق ١/٤٠١ .
(١٥٢) نفسه ١/٥١ .

ولعله يتأثر فى ذلك بالآيات الكريمة « ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا ، إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيء سببا »[153] ، ومن قوله تعالى « قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا »[154] .

ومن قصة نوح عليه السلام تبدو الإشارة الموجزة عند الفرزدق أيضا فى قوله :

ومن نجى من الغمرات نوحا
وأرسى فى مواضعها الجبالا[155]

وقد رأينا تفاصيل القصة كما عرضها القرآن الكريم بنص الآيات وهو يبدو واضح التأثر هنا بنتيجتها من قوله تعالى « فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين »[156] .

وعلى هذا النحو بدا القصص القرآنى مصدر ثراء لفن الشعر لدى شعراء بنى أمية ، ووجدوا فيه مجالا فى مجالات عديدة لم يقتصر فيها على حديث المدح ، بل ورد أيضا فى أحاديث الهجاء الأمر الذى يدل على جودة استيعاب الشعراء لهذا القصص من ناحية من ناحية ، وحرصهم على الصدور عنه فى كل موضوعات شعرهم من ناحية أخرى .

وتظل المعالجة الفنية من خلال القصص الدينى واضحة الدلالة على طبيعة الاستقراء كما قام به الشعراء لكل القصص القرآنى تقريبا ، ولعلهم وجدوا من فسحة الوقت والنظم المتأنى الهادىء مما لم يتهيأ للجيل السابق ، ولعلهم — من ناحية أخرى — أفادوا من تدوين

---

(١٥٣) سورة الكهف ٨٣ — ٨٤ .

(١٥٤) سورة الكهف ٨٦ — ٨٤ .

(١٥٥) ديوان الفرزدق ١/٧٠ .

(١٥٦) سورة العنكبوت ١٥ .

القرآن الكريم ، وقد اطمأن المسلمون إلى كل آية فيه ولم يعد ثمة حرج فى أن يستمد منه الشاعر ، خاصة أن علوم التفسير قد أخذت من المادة القرآنية مصدرا لها تعالجه ، وتدور حوله •

فإذا أضفنا إلى هذه المواقف أن الفرق الكلامية قد بدأت حوارها وجدلها حول قضايا دينية ، تبين لنا أن هؤلاء الشعراء قد حرصوا على ألا يتخلفوا عن تلك الثقافات ، بل راحوا ينهلون منها ، ولكنهم آثروا الرجوع الى مصادرها الأولى من القرآن الكريم ، فكانت المؤثرات أقرب إلى النص المقدس منها إلى ما يدور حوله من تفسير أو عرض تاريخى ، ولنا مع هذا الموقف بقية حوار بعد استكمال جزئيات المعجم الإسلامى الذى أفاد منه شعراء العصر من خلال صور أخرى متعددة ازدحمت فيها بعض الأبيات بعديد من المصطلحات ، والمسميات الاسلامية ، التى تأتى — بدورها — وليدة المعجم الدينى ولا علاقة لها بجاهلية الأداء التى رأينا الشعراء يحرصون عليها فى العصر باعتباره عصر إحياء للعصبية الجاهلية وأحساب العرب وأيامهم وقد راح بعض الشعراء يستقى بعض مصطلحاته من واقع حسه الدينى فحسب ، على نحو ما نجد فى بعض نماذج من شعرهم ، إذ يتحدث الفرزدق عن الإسلام والإلحاد قائلا لممدوحه وهو يقرن الإسلام بالمصحف :

أبرت زحوف المسلمين وكدتهم
بمستنصر يتلو كتاب المصاحف (١٥٧)

وقول جرير عن الإلحاد :

دعوت الملحدين أبا خبيب
جماحا هل شفيت من الجماح (١٥٨)

وقول الفرزدق عن الإسلام والأذان :

رأوا جبلا دق الجبال إذا التقت
رؤوس كبيرهن ينتظمان .

---

(١٥٧) ديوان الفرزدق ٢/١٥ •

(١٥٨) ديوان جرير ١/٤٩٠ •

رجالا عن الإسلام إذ جاء جالدوا

ذوى النكث حتى أودحوا بهوان

وحتى سعى فى سور كل مدينة

مناد ينادى فوقها بأذان (١٥٩)

وعن الإسلام والحق ومعاداة الباطل :

فما الناس إلا فى سبيلين منهما

سبيل لحق أو سبيل لباطل (١٦٠)

وعن الحق والباطل أيضا وصراعهما فى الحياة :

ألا تفترى إذ لم تجد لك مفخراً

ألا ربما يجرى مع الحق باطله (١٦١)

وعن الخير والشر فى تناقضات الحياة وسلوكيات البشر :

فقد كنت ناراً يصطليها عدوكم

وحرزاً لما ألجأتم من ورائيا

وباسط خير فيكم بيمينه

وقابض شر عنكم بشماليا (١٦٢)

وعن الحول والقوة باعتبار صدى الصيغة الدينية المرددة :

وهم ليلة الأهواز حين تتابعوا

وهم بجنود من عدو وخاذل

كفاك بحول من عزيز وقوة

وأعطى رجالا حظهم بالشمائل (١٦٣)

---

(١٥٩) ديوان الفرزدق ٢/٣٣٤ .

(١٦٠) نفسه ٢/٣٣٨ .

(١٦١) نفسه ٢/١٧٤ .

(١٦٢) ديوان جرير ١/٨٤ .

وعن الحق والباطل ربطاً بالضلالة والهدى على نسق واحد :

لقد جرد الحجاج سيفه
لكم فاستقيموا لا يميلن مائل
فما يستوى داعى الضلالة والهدى
ولا حجة الخصمين حق وباطل (١٦٤)

وعن الرشد والغواية من نفس المنظور أيضا :

إذا خير السيدى بين غواية
ورشد أتى السيدى ما كان غاويا (١٦٥)

وعن الجهاد الإسلامى والشرك وما بينهما من صور الصراع :

عادات خيلك أن يبتن عوابسا
بالدارعين ولا تراهسا رودا
ما إن نزلت بمشركين بربهم
إلا تركت عظيمهم مستعبدا (١٦٦)

وعن الجهاد أيضا وطابعه الدينى من قبل الله سبحانه وتعالى

فجرد لهم سيف الجهاد فإنما
نحرت بتفويض إلى ذى الفواضل (١٦٧)

وعن شهادة المسلمين عند عبيد الله بن الحر بدلا من الشهادة القبلية :

---

(١٦٣) ديوان الفرزدق ٢/١٣٨ .
(١٦٤) ديوان جرير ١/٤٠٣ .
(١٦٥) ديوان الفرزدق ٢/٣٥٩ .
(١٦٦) ديوان جرير ١/٣٨٣ .
(١٦٧) ديوان الفرزدق ٢/١٣٨ .

فإن لم أصبح شاكراً بكتيبة
فعالجت بالكفين غل جديد
هم هدموا داري وقادوا خليلتي
إلى سجنهم والمسلمون شهودي (١٦٨)

وعن الاستشهاد فى القتال باعتباره موضع فخر لأهل الشهيد .

إذا ما قرب الشهداء يوما
فما للتيم يومئذ شهيد (١٦٩)

وعن الأنفال :

لولا الجزى قسم السواد وتغلب
في المسلمين فكنتم أنفالا (١٧٠)

وعن المؤمنين :

فدى لك أمى اجعل عليهم علامة
وحرم عليهم صالحات الحلائل
نزيلك بين المؤمنين وبينهم
إذا دخلوا الأسواق وسط المحافل (١٧١)

وعن الملائكة وجبريل عليه السلام والمدد الإلهى للمسلمين بهم جندا فى القتال :

إلى باعث المولى لينزل نصره
فأنزل للحجاج نصرا مؤزرا
ملائكة من يجعل الله نصرهم
له يك أعلى فى القتال وأصبرا

---

(١٦٨) شعراء أمويون ١/١٠٢ .
(١٦٩) ديوان جرير ١/٣٣٠ .
(١٧٠) ديوان جرير ١/٤٩٠ .
(١٧١) ديوان الفرزدق ٢/١٣٩ .

رأوا جبرئيل فيهم إذ لقوهم
وأمثاله من ذى جناحين أظهرا [172]

وعن الملائكة والمصطفين الأخيار فى موضع الشهادة :

قال الملائكة الذين تخيروا
والمصطفون لدينه الأخيار
كانت منافقة الحياة وموتها
خزى علانية عليك وعار [173]

وعن ليلة القدر وتفضيلها على بقية أيام الزمن ولياليه :

لقد فضلت حسنا على الناس مثلما
على ألف شهر فضلت ليلة القدر
عليها سلام الله من ذي صبابة
وصب معنى بالوساوس والفكر [174]

وعنها أيضا عند جرير إلى جانب مشهد القبر والعذاب :

لعلك ترجو أن تنفس بعدما
غممت كما غم المعذب فى القبر
فما أحصنته بالسعود لمالك
ولا ولدته أمه ليلة القدر [175]

وعن المشيئة الإلهية عند عمر بن أبى ربيعة :
مقيم بإذن الله ليس ببارح
مكان الثريا قاهر كل منزل [176]

---

(١٧٢) ديوان الفرزدق ١/٢٤٢ .
(١٧٣) ديوان الفرزدق ١/٣٧٤ .
(١٧٤) ديوان جميل ٥٨ .
(١٧٥) ديوان جرير ١/٤٢٥ .
(١٧٦) ديوان عمر ١٧٣ .

وعن القدر الإلهى عند الفرزدق :

ولكن أتونى آمنـاً لا أخافهـم
نهـارا وكان الله ما شـاء قدرا (177)

وعند جميـل :

فقلت له : فيها قضى الله ما ترى
على وهل فيما قضى الله من رد ؟ (178)

وعند عبيد الله بن الحر :

فعسى الله أن يدافع عنـى
ريب ما تحذرين حتى أءووبا
ليس شىء يشاؤه ذو المعـالى
بعـزيز عليـه فادعـى المجيبـا
أنا فى قبضـة الإله إذ كنـ
ـت بعـيداً أو كنت منك قريبـا (179)

وعن ميثاق الله يقول جميـل :

فقد جد ميثاق الإله بحبهـا
وللذى لا يتقى الله من عهـد (180)

وعلى هـذا النحو تكررت الشواهد ـ وهى كثيرة جدا ـ عند الشـعراء ، وفى كثير من الأبيات نجد صدى التأثير الإسلامى من خلال اعتماد الشاعر على هـذه المصطلحات والمسـميات الإسـلامية ، التى استوحاها مما استوعبه من المعجم الدينى ، يقول كعب بن معدان الأشـقرى :

---

(177) ديوان الفرزدق 1/295 .
(178) ديوان جميل 55 .
(178) شعراء أمويون 3/25 .
(180) ديوان جميل 55 .

خلت إياد وما يرد ضلالهـــــبا
داعى الرشاد وما لها من زاجــر [١٨١]

ويقول جميــل :

فإن كان رشــداً حبها أو غواية
فقد جئتــه ما كان منى على عمـــد
لقــد لج ميثاق من الله بيننــا
وليس لمن لم يوف لله من عهــد [١٨٢]

ويقول مالك بن الريب :

ألم ترنى بعت الضلالة بالهـــدى
وأصبحت فى جيش ابن عفان غازيا [١٨٣]

وعلى هـــذا النحو نستطيع أن نقف على رصيد ضخم من المؤثرات الإسلامية على هـــذا النمط من خلال استقراء دواوين شعراء العصر ، ليظل الموقف شاهدا مؤكدا طبيعة الانتماء إلى هذا المعجم الإســلامى ، وشـــدة الحرص على الأخذ منه أكثر مما أخذوا من معجم العصر ، أو تيار البداوة • ومع صورة أخرى من الأفكار والمعانى الإســلامية التى تداولوها قد يزداد الموقف توكيدا ووضوحا •

ذلك أن هـــذه الأفكار والمعانى الإســلامية تبدو أكثر عمقا فى تأثيرها فى الشـــعراء ، لأن مجرد الإفادة من المصطلح وإعادة عرضه لا تصـــل بالشـــاعر إلى هـــذه الدرجة من عمق الأداء فى الترويج لفكرة دينية ، أو معنى إســلامى قد يفتح مجالا من مجالات الفلسفة والجدل ، ولذلك قد يلتقى مع الفرق الكلامية التى شهدها العصر على ســبيل الاتفاق أو التعارض ، ولكن يظل التأثير من هـــذا النوع

---

(١٨١) شعراء أمويون ٣/٤٠٧ •
(١٨٢) ديوان جميل ٤٣ •
(١٨٣) شعراء أمويون ١/٤٣ •

جامعا بين أفكار إسلامية خالصة وأخرى بدأت تدخل فى دائرة الفلسفة ، وتتبلور من خلال الجدل العقلى الذى دأبت عليه بيئات المتكلمين .

ومن هذه الشواهد التى استوقفت الشعراء ما نجده حول الفكر الغيبى عند الفرزدق حين يعرض لقضية خلود النفس والروح وغيرها من قضايا ميتافيزيقية وكأنما ارتبطت هذه المعانى فى جانب منها بدور المسلم فى الدفاع عن دينه ، وطبيعة سلوكه من هذا المنطلق ، ويصبح هذا الدفاع مضرب المثل للشعراء ، فيقول الفرزدق :

فزد خالدا مثل الذى فى يمينة
تجده عن الإسلام من خير ذائد (١٨٤)

وعندئذ ينسب الجند إلى دين الله والسيف إلى جند الله فى قوله :

جنود لدين الله نضرب من طغى
ومسلمة السيف الحسام يقودها(١٨٥)

ويصبح المروق من الدين مصطلحا يستخدم فى التعبير والهجاء كما قال ابن قيس الرقيات :

إذا نحن شئنا صاربتنا كتيبة
حرورية أمست من الدين مارقه(١٨٦)

وهكذا لم تقف المصطلحات عند المسلك الحربى أو القتالى ، بل تجاوزته لتشمل سلوك المسلم فى حياته اليومية ، وكيف ينطلق

(١٨٤) ديوان الفرزدق ١/١٣٢ .
(١٨٥) ديوان الفرزدق ١/١١٧ .
(١٨٦) ديوان ابن قيس الرقيات ١٩٢ .

عمليا من الأفكار الدينية التى أرساها الإســلام ، فكثر حديث الشعراء حول صلة الأرحام ، وقطعها فيقول ابن قيس :

تذكرنــى قتلــى بحرة واقـــم
أصيبت وأرحاما قطعن شــوابكا

فقطــع أرحام وفضت جمــاعة
وعادت روايا الحلم بعــد ركائكا(١٨٧)

ويقول أيضا على نفس النسق :

وأقطــع للأرحام لم يرقبوا بهــا
من اللــه إلا يوم ذاك وأبصرا(١٨٨)

ومن الحلال ، والحرام ، والعدل ، يقول الفرزدق وإن كان يستغل المغانى فى صورة غزلية :

فيم بالله لئن تقتلين محبــــا
لك بالوصــل مخلصــا بـــذالا
ولعمــرى لئن هممت بقتلــى
لبما قد قتلت قبلى الرجـــالا
حديثيى عن هجــركم ووصــالى
أحراما ترينــه أم حـــلالا
فاحكمى بيننــا وقولى بعـــدل
هل جزاء المحب إلا الوصالا(١٨٩)

إذ يظل متعلقا بألفاظ المعجم الإســلامى من خلال حسه العــام الذى يجســده أسلوب القســم بالمولى عز وجل ، ثم حــديثه عن

---

(١٨٧) ديوان ابن قيس ١٢٩ — ١٣٠ .

(١٨٨) نفســه ١٣٩ .

(١٨٩) ديوان الفرزدق ١/١٦١ .

الإخلاص والبذل والإيثار كسلوك دينى ، إلى جانب حواره حول الحلال والحرام والعدل فى الحكم .

ولا يعنى هـذا أن الشعراء دأبوا على تحويل المصطلحات إلى مواقف الغزل ، ولكن حتى فى هـذا الموقف لم ينس الشاعر أن يصدر عما اكتسبه من تلك الأفكار التى تجدد له طبيعة سلوكه الإسلامى ، فيتحدث الفرزدق أيضا عن المحرم وغير المحرم فى قوله عن الحمى :

أباحوا حمى قد كان قدما محرما

فأضحى على شيبان غير محرم (١٩٠)

وعن مراعاة المحارم كسلوك دينى قويم تدعو إليه العقيدة :

وقد علموا أنى أنا الشاعر الذى
يراعى لبكر كلها كل محرم
وإنى لمن عادوا عدوا وإننى
لهم شاكر ما خالفت ريقتى فمى (١٩١)

وعن صلات الأرحام أيضا كما رددها ابن قيس من قبل يقول الفرزدق محذرا من قطعها ومغبة تجاهلها :

ولا تقطعوا الأرحام منا فإنها
ذنوب من اعمال يخشى إثامها

فترعى قريش من تميم قرابة
وتجزى أياما كريما مقامها (١٩٢)

---

(١٩٠) ديوان الفرزدق ٢/١٩٤ .
(١٩١) نفسه ٢/١١٩ .
(١٩٢) نفسه ٢/٢٤١ .
(١٩٣) ديوان الأخطل ١/٨٥ .

وعن الرجس والطهارة يقول جرير :

لا يدخلن عليك إن دخولهـــم
رجس وإن خروجهم تطهير (194)

وعند الأخطل :

أمعشر قيس لم يمتع أخـوكم
عمـير بأكفان ولا بطهـور (195)

وعن الدعوة لصالح الأعمال يقول الأخطل فى شكل حكمى عام :

والناس همهم الحيـاة وما أرى
طول الحيـاة يزيد غير خبـــال
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد
ذخرا يكون كصالح الأعمال (196)

وعن إقامة الحدود يقول جرير عن منظور دينى بحت حول إقامة الحد اســتنادا إلى شرع الكتاب :

فقـد حلت يمينك إن إمـــام
أقام الحـد واتبع الكتــــابا (197)

وعن القصاص يقول جميل فى موطن الفخر :

وكنا إذا ما معشر نصبوا لنـــا
ومرت جوار طيفهم وتعيفــــوا

---

(194) ديوان جرير 1/366 .
(195) ديوان الأخطل 1/66 .
(196) ديوان الأخطل 1/140 .
(197) ديوان جرير 1/652 .

وضعنا لهم صاع القصاص رهينة
ونحن نوفيها إذا الناس طففوا [١٩٨]

وعن الموقف من المغتاب والمراثى يقول ابن قيس :

أيها المستحل لحمى كله
من ورائى ومن وراك الحساب
استفيقن فليس عندك علم
لا تنامن أيها المغتاب
تختل الناس بالكتاب فهلا
حين تغتابنى نهاك الكتاب [١٩٩]

إذ يضيف إلى استنكار السلوك على المستوى الاجتماعى ما ورد بحقه فى الكتاب نهيا وزجرا وتهديدا بما يكون من العقاب يوم الحساب.

وعن الغيبة والنميمة أيضا يقول جرير :

أعفابا تجاوز حين أجنت
نخيل أجا وأعنزه الربابا
أصابوا الجار ليلة غاب عنهم
فبئس القوم إذ شهدوا وغابا [٢٠٠]

وعن النفاق وجزاء المنافق يتردد القول عند جرير فى أكثر من موقف ، فيقول راسما من الموقف لوحة فنية عرضها ضمن مدحته :

---

(١٩٨) ديوان جميل ٨٥ نصبوا لنا : عادونا . الصاع : مكيال .
(١٩٩) ديوان ابن قيس ٨٤ .
(٢٠٠) ديوان جرير ٢/٦٥٢ .
طففوا : نقصوا المكيال . تعيفوا : زجروا الطير ليتفاءلوا أو يتشاءموا بطيرانها .

من سد مطلع النفاق عليهم
أم من يصول كصولة الحجاج
فإذا رأيت منافقين تخيروا
سبل الضجاج أقمت كل ضجاج
داويتهم وشفيتهم من فتنة
غبراء ذات دواخن وأجاج
ولقد كسرت سنان كل منافق
ولقد منعت حقائب الحجاج (٢٠١)

ويقول محذرا من استمراء الرعية للنفاق :

هو الخليفة فارضوا ما قضى لكم
بالحق يصدع ما فى قوله جنف
يقضى القضاء الذى يشفى النفاق به
فاستبشر الناس بالحق الذى عرفوا (٢٠٢)

ومتوعداً من ينافق بانكشاف أمره ليلقى مصير المنافقين قبله :

تشد فلا تكذب يوم زحف
إذا الغمرات زعزعت العقابا
عفاريت النفاق شفيت منهم
فأمسوا خاضعين لك الرقابا (٢٠٣)

ومؤكدا جزاء المنافق من خلال منطق واحد يحسمه حد السيف :

عبد العزيز الذى سارت برايته
تلك الزحوف إلى الأجناد فاصطرموا

---

(٢٠١) ديوان جرير ١/١٣٧ — ١٣٨ .
(٢٠٢) نفسه ١/٢٤٤
(٢٠٣) نفسه ١/١٧٥ .
(٢٠٤) نفسه ١/١٢٩ .

ما كان من بلد يعلو النفاق به
إلا لأسيافكم ممن عصى لهم (٢٠٤)

وغالبا ما يرتبط عنده النفاق بالفتنة على نحو قوله :

فحكمك يا مهاجر حكم عدل
ولو كره المنافق والمريب
إذا مرضت قلوبهم شفاهم
نطاسي بدائهم طبيب (٢٠٥)

وعلى نفس النسق نظم قوله قارناً بينهما :

واطفأت نيران النفاق وأهله
وقد حاولوا في فتنة أن تسعرا
فلم تبق منهم راية يرفعونها
ولم تبق من آل المهلب عسكرا (٢٠٦)

وكم تحدث القرآن الكريم عن النفاق والمنافقين ، وآخذهم على سلوكهم ووصفته الآيات ، وتوعدهم : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم أو لا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون (٢٠٧) • « ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هو منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون » (٢٠٨) إلى غير ذلك من توصيف القرآن لتلك الفئة ، بحكم ما ظهر منها من خطر على الدعوة فى عصر المبعث ، واستمر خطرهم على مدار عصور الخلافة الإسلامية ، فتناول الشعراء سلوكهم بالتجريح من هذا المنطق الدينى إلى جانب المنطق الاجتماعى والأخلاقى أيضا •

---

(٢٠٥) ديوان جرير ١/٤١٠ •

(٢٠٦) ديوان جرير ١/٤٧١ •

(٢٠٧) سورة الحشر ١١ •

(٢٠٨) سورة المجادلة ١٤ •

وجوب رفض النفاق على إطلاقه فى أى من صوره يقول جميل فى صياغة حكمية عامة :

ومن هو ذو وجهين ليس بدائم
على العهد حلاف بكل يمين [209]

وعن تحية الإسلام كصورة جوهرية من صور حسه الدينى يقول جرير :

حييت وجهك بالسلام تحية
وعرفت ضرب كريمة لكريم

والله فضلك والديك فأنجبا
وعددت خير خؤولة وعموم [210]

وعن الاستعاذة بالله يقول أيضا من المنطلق الدينى :

أعوذ بالله العزيز الغفار
وبالإمام العدل غير الجبار

من ظلم حمان وتحويل الدار
فاسأل بنى صحب ورهط الجزار [211]

ثم يقول فى التعيير بعدم قراءة القرآن الكريم أو محاولة تدبر آياته :

إن البعيث وعبد آل مقاعس
لا يقرآن بسورة الأحبار [212]

---

(٢٠٩) ديوان جميل ١٢٦ .

(٢١٠) ديوان جرير ٢/٦٥٨ .

(٢١١) نفسه ١/٤٤٥ .

(٢١٢) نفسه ٢/٨٩٧ .

وهو يقصد بذلك انهم لا يقرأون القرآن ، ولا يعكفون على تلاوته كمسلمين . وعن اللغو فى اليمين والعزم يقول الفرزدق من المنظور الإسلامى :

ولست بمأخوذ بلغو تقوله
إذا لم تعمد عاقدات العزائم (٢١٣)

وعن الحق والضلال يقول الأخطل :

وقد كان يوما راهط من ضلالكم
فناء لأقوام وخطبا من الخطب (٢١٤)

كما يقول :

كانوا موالى حق يطلبون به
فادركوه وما ملوا ولا لغبوا
إن تك للحق أسباب يمد بها
ففى أكفهم الأرسان والسبب (٢١٥)

أما عن علاقة الدين بالدنيا فقد انطلق شعراء العصر يرسمون المواقف والمشاهد على غرار قول الفرزدق حول جزاء الخائن فى الدنيا والآخرة :

ولا شىء شر من شريرة خائن
يجىء بها يوم ابتلاء المحاصل
هو العار فى الدنيا عليه وبيته
به يوم يلقى الله شر المداخل (٢١٦)

---

(٢١٣) ديوان الفرزدق ٣٠٧/٢ .

(٢١٤) ديوان الأخطل ٤٩/١ .

(٢١٥) نفسه ٨٥/١ الموالى : الأصحاب . الحق هنا هو حق عثمان بن عفان رضى الله عنه .

(٢١٦) ديوان الفرزدق ١٣٨/١ .

وخير ما يتصوره الفرزدق هو التقاء الدنيا فى صلاح الأعمال مع الجهاد فى سبيل الله مع التدين حيث يقول :

جنود لدين الله تضرب من طغى
ومسلمة السيف الحسام يقودها
أبار لكم عن دينه كل ناكث
كما الأمم الأولى أبيرت ثمودها
أرى الدين والدنيا بكم جمعا لكم
إذا اجتمعت للعاملين جدودها (٢١٧)

وهنا تكتمل صورة الفضيلة فى شخص ممدوحه إذا ما غلب عليها هـذا السلوك الدينى وقد تعددت أبعاده ٠

كما ردد شعراء العصر بعضا من الأفكار الغيبية التى طرحوها من منظـور دينى محض ، وشغل مشهد القيامة بما فيه من موت ونشور ، وبعث وحساب حيزا هائلا من أذهانهم أسقطوه فى مساحة كبيرة من الشعر مما نجد منه لدى الفرزدق فى صورة الموت والقبور مفلسفا موقفه الخاص من زيارة القبور :

إن الزيادة فى الحياة ولا أرى
ميتا إذا دخل القبـور يزار (٢١٨)

وعن الموت والنشور يقول جرير :

دعا وهو حى مثل ميت فإن يمت
فهذا له بعد الممات نشـور (٢١٩)

وعن الموت أيضا يقول الفرزدق فى قصائد مختلفة على نحو ما جاء فى هجائه لجرير :

---

(٢١٧) ديوان الفرزدق ١/١٧١ ٠
(٢١٨) نفسـه ١/٣٧٥ ٠
(٢١٩) ديوان جرير ٢/٨٧٧ ٠

فهل أحد يا ابن المراغة هارب
من الموت إن الموت لابد نائله [٢٢٠]

أو قوله على المستوى الحكمى العام :

فهون وجدى أن كل أبى امرى
سيثكل أو يلقاه منها لزامها [٢٢١]

وقوله فى استقراء البعد الإنسانى الشامل للموقف الغيبى إزاء الموت :

أرى كل حى لا يزال طليعة
عليه المنايا من فروج المخارم
وما أحد كل المنايا وراءه
ولو عاش أياماً طوالا بسالم [٢٢٢]

وقوله :

ما مات بعد ابن عفان الذى قتلوا
وبعد مروان للإسلام والحرم [٢٢٣]

ثم قوله :

مثل ابن مروان والآجال لاقية
بحتفها كل من يمشى على قدم [٢٢٤]

وإذا كان حديث الموت غير مغرق فى بعده الدينى ، فهو يزداد وضوحا حين يمزجه الشعراء بمشاهد القيامة ، على نحو ما يقول الفرزدق حول الساعة وأشراطها :

---

(٢٢٠) ديوان الفرزدق ٢/١٧١ .
(٢٢١) نفسه ٢/١٩٣ اللازام : الموت
(٢٢٢) نفسه ٢/٢٠٦ .
(٢٢٣) نفسه ٢/٢١٠ .
(٢٢٤) نفسه ٢/٢٢٤ .

إن القيـــامة . قد دنت أشراطهـــا
حتى أمية عن فزارة تنزع [٢٢٥]

ويقول جرير مفاخرا وهاجيا معًـا :

لنـا الفضل فى الدنيا وأنفك راغم
ونحن لكم يوم القيامة أفضل [٢٢٦]

ويطيل الفرزدق فى رسم المشهد فيقول :

تمنى المســـتزيدة لى المنـايا
وهــن وراء مرتقب الجـــدور
فـــلا وأبى لمـــا أخشى ورائـــى
من الأحــــداث والفـــزع الكبير
أجـــل على مـــرزئة وأدنـــى
إلى يوم القيـــامة والنشــــور
من البقـــر الذين رزئت خلـوا
على المضلعات من الأمـــور [٢٢٧]

أما عن مشـــهد البعث وما يحدث فيه فيقول الفرزدق أيضـــا كما يتخيله :

لقـــد خاب من أولاد درام من مشى
إلى النار مشـــدود الخناقة أزرقا
إذا جاءنى يوم القيـــامة قائـــد
عنيف وســـواق يســـوق الفرزدقـــا
أخاف وراء القبر إن لم يعافنى
أشـــد من القبر التهـــابا وأضيقا

---

(٢٢٥) ديوان الفرزدق ١/٤٠٨ .
(٢٢٦) ديوان جرير ١/١٤٣ .
(٢٢٧) ديوان الفرزدق ٢/٣٩ . مرتقب الجدور : أراد نفسه أى أنه يرقب الموت .

إذا شربوا فيها الصديد رأيتهم
يذوبون من حر الصديد تمزقا[228]

وهنا تتعدد لديه جزئيات الصورة وتزداد دلالة ووضوحا ابتداء من الشد إلى النار ، إلى القائد العنيف الذى يسوق العباد يوم الحساب ، إلى مخاوف القبر وما بعده من صور الحساب خاصة ما يترصد الكفار من صور العقاب وقد استوقفه منها ما يشربونه من حر الصديد وهو يمزق أمعاءهم تمزيقا .

وعن استسلامه لكل هذا المشهد يقول فى شكل حكمى :

فصبرا تميم إنما الموت منهل
يصير إليه صابر وجزوع[229]

كما يقول :

بنى بأعلام الجزيرة صرعوا
وكل امرئ يوما سيأخذ مضجعا[230]

وأيضا :

أتعدل أحسابا لئاما أدقة
بأحسابنا ؟ إنى إلى الله راجع[231]

وعن نشر الموتى يقول جرير على نفس الوتيرة على لغة التشبيه لما رآه من الفزع :

كانت وقائع قلنا لن نرى أبدا
من تغلب بعدها عين ولا أثر

---

(٢٢٨) ديوان الفرزدق ٢/٣٩ .

(٢٢٩) نفسه ١/٤٠٩ .

(٢٣٠) نفسه ١/٤١٠ .

(٢٣١) نفسه ١/٤٢٠ .

حتى سمعت بخنزير طغا جزعا
منهم فقلت أرى الأموات قد نشروا[232]

ويقول في باب الهجاء وإسقاط حق خصمه في الفخر بقومه في دنيا أو آخرة :

تخزيك أحياء تيم إن فخرت بهم
والخزى أموات تيم إن هم نشروا[233]

وعن عذاب القبر يقول جرير عن معاناة المعذب من أهوال ما يراه وما يحسه :

لعلك ترجو أن تنفس بعدما
غممت كما غم المعذب في القبر[234]

ويقول الفرزدق مصورا الموقف حول العذاب المرسل الكامن في هجائياته :

إذا غاب كعب بني جعيل عنهم
وتنمر الشعراء بعد الأخطل
يتباشرون بموته ووراءهم
مني لهم قطع العذاب المرسل[235]

وعن عذاب النار يقول الفرزدق أيضا متخذا منه مادة تصويرية :

وإن تبعثوني بعد سبعين حجة
أكن كعذاب النار ذات الجحائم[236]

---

(232) ديوان جرير ۱/۱۵۷ .
(233) ديوان الفرزدق ۲/۲٤۷ .
(234) ديوان جرير ۱/۲۱٦ .
(235) ديوان الفرزدق ۱/۲٦۰ .
(236) ديوان جرير ۱/٤۲٥ .

كما يقول عن الجحيم والسعير وتوصيف القيامة والموت طبقـا لصـورته :

أقام على حى المزون قيـامة
من الموت إلا أنهـا هى أشـهر
وقد ضاق ذرعا مصطلوها بحرها
وعادت جحيما نارها تتسـعر (٢٣٧)

وعن جهنم وعذابها يقول الفرزدق أيضا :

ومازلت حتى فرق الله بيننـــا
له الحمـد منى فى أذى وجهاد
تجـدد لى الذكرى عذاب جهنـم
ثلاثا تمسى من بهـا وتغـادى (٢٣٨)

ومن حديث العقاب والحساب يقول عمر ويستغل المشهد فى الغزل كعادته إذ يخشى القصاص الإلهى من فتاته إذا أثمت بقتله فى هواها دون رحمة أو اشفاق عليـه :

لا تقتلينى يا عثيـم فإننـى
أخشى عليك عقاب ربك فى دمى
إن لم يكن لك رحمـة وتعطف
فتحرجى من قتلنا أن تأثمى (٢٣٩)

ويكثر ورود الذنب والتوبة والغفران عند الشـعراء الغزلين على منطق جميـل :

أبوء بذنبى إننى قد ظلمتهـا
وانى بباقى سرها غير بائح (٢٤٠)

---

(٢٣٧) ديوان الفرزدق ٢/١٤٩ .
(٢٣٨) نفسـه ١/١٠٨ .
(٢٣٩) ديوان عمر بن أبى ربيعة ١٩٠ .

ويتمنى عمر الغفران الدنيوى فى عالمه الغزلى فيقول :

أهجرتنـــا ثم اعتللت لنـــا
ولقـــد ترى أن ما لنـــا ذنب (٢٤١)

ويقول بين العذر وغفران الذنب :

فأعذرينـــى إن كنت صاحب عـــذر
واغفرى لى إن كنت أذنبت ذنبا (٢٤٢)

ويقول أيضا عن الصفح والرحمة وعلاقتهما بالذنب :

وأعوذ منك بك الغـــداة لتصفحى
عما جنيت من الذنوب وترحمى (٢٤٣)

ومنه أقرب إلى عالم الغزل بين الواشى والجرم والذنب :

وســـمعت بى قول الوشـــاة بـــلا
ذنب أتيت ولا جـــــرم (٢٤٤)

وهو يسند مشكلته إلى القضاء والقدر فيقول قانعا به وراضيا :

لكـــن ربـــى كـــان قـــدره
فقضاء ربى أفضل الحكـــم (٢٤٥)

وعن المتوبة فى الموقف الغزلى أيضا يقول :

أبينى لنـــا إن كان هـــذا تجنبا
لصرم فتصريح الصريمة أجمـــل

---

(٢٤٠) ديوان جميل ٣٠ .
(٢٤١) ديوان عمر ١٥
(٢٤٢) نفســه ٣٧ .
(٢٤٣) نفســه ٤٥ .
(٢٤٤) نفســه ١٩١ .
(٢٤٥) نفســه ٢٠٠ .

وإن كان إنكارا لأمر كرهتـــه
فرابك إنى تائب متنصـــل (٢٤٦)

وعن الإساءة والتوبة معاً عند الأحوص يقول فى نفس الإطار الغـزلى :

هبينـى امرأ بريئـاً ظلمتـه
وإما مسـيئا مذنبـاً فيتوب (٢٤٧)

كما يقول حول الظلم والذنب والبراءة والإساءة والإنابة والعتبى :

أقول التماس العذر لمـا ظلمتنى
وحملتنى ذنبـاً وما كنت مذنبـا
هبينى أمرأ إما بريئاً ظلمتـه
وإما مسيئا قد أناب وأعتبـا (٢٤٨)

ويحسن هنا أن نسـجل أن تعرض شـعراء الغزل للتيار الدينى بهذا الشكل إنما يكشف عن سـيادة تأثيره ، حتى فى أبعد الموضوعات عنه ، ولكن الشـعراء بذلوا محاولاتهم للإفادة من المعجم الإسلامى بأى من الأشكال باعتباره جدولا ثقافيا تكتمل به الهيئة الفكرية التى يصدرون عنها . ويبقى فى هـذا الجانب الغيبى من المؤثرات حديث الشعراء وما أدواره حول فكرة الخلود تأثرا بالدين ومشاهد الغيب على نحو ما يتصوره الفرزدق من خلود النفس والروح فى قوله من منطق حكمى ارتدى فيه ثوب الواعظ والمرشد الموجه :

تزود فما نفس بعاملة لهـا
إذا ما أتاها بالمنـايا حديدهـا

---

(٢٤٦) نفسـه ١٥٨ .
(٢٤٧) ديوان الأحوص ٨٧ .
(٢٤٨) نفسـه ٨١ .
(٢٤٩) ديوان الفرزدق ١/١٥٠ .

فيوشك نفس أن تكون حياتها

وإن مسها موت طويل خلودها

وسوف ترى النفس التى اكتدحت لها

إذا النفس لم تنطق ومات وريدها(٢٤٩)

وبذا وجدت الأفكار الإسلامية والمعانى طريقها إلى مختلف موضوعات الشعر فى كل البيئات فلم تخضع للتخصص الفنى الذى شهدته كل بيئة على حدة ، بل بدت قاسماً مشتركا بين كل الشعراء وما زالت المشاهد الأخروية تسيطر عليهم بما ينتظر فيها من غفران وعفو إلهى كما يقول المرار بن سعيد :

وقد لعبت مع الفتيان ما لعبوا

وقد أجد وقد أغنى وأفتقر

أستغفر الله من جدى ومن لعبى

وزرى فكل امرىء لابد متزر

وإنما لى يوم لست سابقه

حتى يجىء وإن أودى به العمر(٢٥٠)

وهو يقترب بفكرته من عالم المرجئة والقائلين بشمولية العفو الإلهى وإن لم يسرف فى سلوكه إسراف متطرفى الإرجاء .

وعن الثواب من الخالق سبحانه يقول الفرزدق جامعاً بينه وبين عظمة الخالق واختبار العبد وخشوعه :

تهون عليك نفسك وهو أدنى

لنفسك عند خالقها ثوابا

فمن يمنن عليك النصر يكذب

سوى الله الذى رفع السحابا

---

(٢٥٠) شعراء أمويون ١/٤٤٦ .

تفرد بالبــلاء عليــك رب
إذا ناداه مختشــع أجابا [٢٥١]

وعن التوبة بعيدا عن عالم الغزل يقول جرير :

لعمرى لنعم النحــى كان لقــومه
عشــية غب البيــع نحــى حمــام

بتوبة عبــد قد أناب فــــؤاده
وما كان يعطى الناس غير ظــلام [٢٥٢]

وهكذا ردد الشــعراء من الأفكار الإســلامية ما يرتبط بقضايا الغيب ، إذ أفسحوا لها مكانها — بل أماكنها — فى صور مختلفــة حسب طبيعة الموضوعات ، فمنهم من أفاد منها على حقيقة الدلالة ، وتلبها رصدها فى شــعره ، ومنهم من الغزلين — بصفة خاصــة — من راح يتعامل معها من خلال معالجة غزلية ، تنم عن استيعابه تلك المعانى وصدوره عنها بطريقته الخاصة فى التحاور معها ، وربما عمدنا هنا إلى تكثيف الشواهد التى تكفل بعد ذلك طرح الرؤية التحليلية لها وصولا إلى الفصل فى الموقف الفنى للشــعراء بشكل عام .

وقد وصل الأمر بالشعراء إلى حــد الاهتداء بالإيقاع الصوتى لبعض الآيات القرآنية ، فراحوا يترنمون بنفس الإيقاع فى قصائدهم على نحو ما يمكن أن نرصده من خلال بعض الشواهد من شــعرهم ، على طريقة ابن قيس الرقيات فى قوله :

إن هــذا الليــل قد غســقا
واشــتكيت الهم والأرقا [٢٥٣]

---

(٢٥١) ديوان الفرزدق ٨٣/١ .
(٢٥٢) ديوان جرير ٢١٣/١ . غب البيع : تم البيع .
(٢٥٣) ديوان ابن قيس ١٨٧ .

إذ يتأثر لفظيا بالآية الكريمة « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل »[٢٥٤] . كما يقول :

وكاد نساؤهم يلقين غيا
تركن وفر عنهن البعول[٢٥٥]

تأثرا بإيقاع الآية الكريمة « فسوف يلقون غيا »[٢٥٦] .

وفى نفس الاتجاه يقول كعب بن معدان الأشقرى :

على بصائر كل غير تاركها
كلا الفريقين تتلى فيهم السور

يمشون فى البيض والأبدان إذ وردوا
مشى الزوامل تهدى صفهم زمر

إنا اعتصمنا بحبل الله إذ جحدوا
بالمحكمات ولم نكفر كما كفروا

جاروا عن القصد والإسلام واتبعوا
دينا يخالف ما جاءت به النذر[٢٥٧]

فهو يأخذ الأنساق اللفظية والتعبيرية على المستوى الإيقاعى من الآيات القرانية « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون »[٢٥٨] ومن قوله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا »[٢٥٩]

---

(٢٥٤) سورة الاسراء ٧٨ .

(٢٥٥) ديوان ابن قيس ١٣٤ .

(٢٥٦) سورة مريم ٥٩ .

(٢٥٧) شعراء أمويون ٢/٣٨٢ .

(٢٥٨) سورة الجاثية ٢٠ .

(٢٥٩) سورة آل عمران ١٠٣ .

وقول تعالى « وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون »[٢٦٠] .
ويقول كعب أيضـا :

قتلى بقتلى قصاص يستفاد بهـا
تشفى صدور رجال طالمـا وقروا

فى معرك تحسب القتلى بسـاحته
أعجاز نخل زفته الريح ينقعر[٢٦١]

إذ يهتدى فى إيقاع ألفاظه ودلالتها أيضا بما ورد فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى »[٢٦٢] وفى الآية الكريمة « تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر »[٢٦٣] وفى نفس النسق من التأثر اللفظى والصوتى يقول جميل فى غزله وهو ما ورد فى أكثر من موضع :

فإن كان رشـداً حبها أو غواية
فقد جئته ما كان منى على عمـد

لقـد لج ميثاق من الله بيننـا
وليس لمن لم يوف لله من عهـد[٢٦٤]

من قوله تعالى « قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا »[٢٦٥] .
والآية الكريمة « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »[٢٦٦] .
وقوله تعالى : « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق »[٢٦٧] .

---

(٢٦٠) سورة يونس ١٠١ .
(٢٦١) شعراء أمويون ٢/٤٠٢ .
(٢٦٢) سورة البقرة ١٧٨ .
(٢٦٣) سورة القمر ٢٠ .
(٢٦٥) سورة الجن ٢١ .
(٢٦٦) سورة البقرة ٢٥٦ .
(٢٦٧) سورة البقرة ٤٠ .

والآية « أوفوا بعهدى أوف بعهدكم »[٢٦٨] .

ومن نفس الدرجة من التأثير يرد قول الشمردل اليربوعى :

من صـوب سـارية كأن بمتنه
منها الجمان ولؤلوا منثـورا[٢٦٩]

من الآية الكريمة « إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا »[٢٧٠]

وعند جرير يقول فى فخره الدينى لقومه :

تغشى الملائكة الكـرام وفاتنـا
والتغلبى جنـازة الشـيطان
يعطى كتـاب حسـابه بشماله
وكتابنـا بأكفنـا الأيمـان[٢٧١]

تأثرا بقوله تعالى « فأما من أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم »[٢٧٢] .

والآية الكريمة « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه »[٢٧٣] .

كما يقول فى الرثاء :

فهـد الأرض مصرعـه فمـادت
رواسيها ونضبت البحـور[٢٧٤]

---

(٢٦٨) شعراء أمويون ٢/٥٣

(٢٦٩) سورة الانسان ١٩

(٢٧٠) ديوان جرير ٢/١٠١٥.

(٢٧١) سورة الإسراء ٧١

(٢٧٢) سورة الحاقة ٢٥

(٢٧٣) ديوان جرير ٢/١٩٤

(٢٧٤) ديوان جرير ٢/١٩٤

متأثرا بالآية الكريمة « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا »(٢٧٥) .

ثم يقول أيضا :

حمدتم وبشرنا بفضل نداكم
وكان كشىء قد أحطنا به خبرا(٢٧٦)

من ألفاظ الآية الكريمة « كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا »(٢٧٧) أو من قوله تعالى « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا »(٢٧٨)

فإذا ما قال :

من يهده الله يهتد لا مضل له
ومن أضل فما يهديه من هاد
فيهم ملائكة الرحمن ما لهم
سوى التوكل والتسبيح من زاد
أنصار حق على بلق مسومة
أمداد ربك كانوا خير أمداد(٢٧٩)

بدا عمق التأثر اللفظى بالآيات القرآنية « من يهد الله فما له من مضل »(٢٨٠) .

« والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض »(٢٨١) .

---

(٢٧٥) سورة النحل ١٥
(٢٧٦) ديوان جرير ٢/٧٠٨
(٢٧٧) سورة الكهف ٩١
(٧٨)سورة الكهف ٦٨
(٢٧٩) ديوان جرير ٢/٧٤٣
(٢٨٠)سورة الزمر ٣٧
(٢٨١) سورة الشورى ٥

« يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين »[282] .

وإذا ما قال جرير أيضا :

من آل مروان ما ارتدت بصائرهم
من جوف قوم ولا هموا بإلحاد

حتى أتتك ملوك الروم صاغرة
مقرنين بأغلال وأصفاد[283]

بدا قريبا من إيقاع الآية الكريمة « وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد »[284] .

وفي قوله :

دعت أمك العمياء ليلة منقر
ثبورا لقد زلت وطال ثبورها[285]

متأثرا بالآية الكريمة « لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا »[286] .

ويتحاور الفرزدق في دائرة الغزليين في مقدماته :

فلئن سفكت دما بغير جريرة
لتخلدن مع العذاب الأليم[287]

تأثرا بمشهد العذاب المبشر به على لغة السخرية في الآية : « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم »[288] .

---

(٢٨٢) سورة آل عمران ١٢٤ (٢٨٣) ديوان جرير ٢/٧٤٥

(٢٨٤) سورة ابراهيم ٤٩ (٢٨٥) ديوان جرير ٢/٨٨٣

(٢٨٦) سورة الفرقان ١٤

(٢٨٧) ديوان الفرزدق ٢/٢٢٧ .

(٢٨٨) سورة آل عمران ٢١ .

ثم يقول الفرزدق أيضا :

بمدرعين الليـل مما وراءهـا
بأنفس قوم قد بلغن التراقيـا [289]

من إيقاع الآية الكريمة « كلا إذا بلغت التراقى »[290] . وكذا يقول القطامى :

فإن قدرت على شىء جزيت بـه
والله يجعل أقواما بأرصـاد[291]

من الآية الكريمة « إن ربك لبالمرصاد »[292] . ويقول عبيد الله ابن الحـر :

ألم يجعـل الله قلبى حين ينزل بى
هم تضيقنى ضيقا ولا حرجـا [293]

تأثرا بألفاظ الآية الكريمة « ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السـماء »[294] .

ثم يقـول عبيد الله بن الحـر أيضا مطمئنا نفسـه إلى حتمية القدر والموت :

يانفس لا تجزعى إنى إلى أمـد
وكل نفس إلى يوم ومقـدار
إنى إلى أجل إن كنت غالـتـه
إليه ما منتهى علمى وآثارى [295]

---

(289) ديوان الفرزدق ٢/٣٥٣ .

(290) سورة القيامة ٢٦ . (291) ديوان القطامى ٨٧

(292) سورة الفجر ١٤ .

(293) شعراء أمويون ١/٩٨ .

(294) سورة الأنعام ١٢٥ .

(295) شعراء أمويون ١/٢٧٤ .

تأثرا بقوله تعالى « وكل شيء عنده بمقدار »[٢٩٦] .

ويقول الأحوص :

كل الحبال حبال الناس من شعر
وحبلها وسط أهل النار من مسد [٢٩٧]

من الآية الكريمة إيقاعاً وتصويراً «في جيدها حبل من مسد»[٢٩٨] .

ويقول الأحوص أيضا :

ستبقى لها في مضمر القلب والحشا
سريرة ود يوم تبلى السرائر [٢٩٩]

من الآية الكريمة : « إنه على رجعه لقادر ، يوم تبلى السرائر » [٣٠٠] .

وعند الأحوص أيضا في غير الغزل إذ يصور ممدوحه :

يمانية شطت فأصبح نفعها
رجاء وظنا بالمغيب مرجما
تخيره رب العباد لخلقه
وليا وكان الله بالناس أعلما [٣٠١]

من قوله تعالى « رجما بالغيب »[٣٠٢] والآية الكريمة « وربك أعلم بمن في السماوات والأرض »[٣٠٣] . ومن هذا القبيل أيضا قول عمر بن أبي ربيعة :

---

(٢٩٦) سورة الرعد ٨ .

(٢٩٧) ديوان الأحوص ١١١ .

(٢٩٨) سورة المسد ٥ .

(٢٩٩) ديوان الأحوص ١١٨ .

(٣٠٠) سورة الطارق ٩ .

(٣٠١) ديوان الأحوص ١٩٦ .

(٣٠٢) سورة الكهف ٢٢ .

(٣٠٣) سورة الاسراء ٥٥ .

أقتليه قتلا سريحا مريحا
لا تكوني عليه سوط عذاب
أو أقيدي فإنما النفس بالنـ
ـفس قضاء مفصلا في الكتاب [304]

من الآية الكريمة وباشارة مباشرة « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا » [305] والآية « فصب عليهم ربك سوط عذاب » [306] • ومنه قول عمر أيضا في عرض إحدى لوحاته الغزلية :

ياليتني مت إن لم ألق من كلفي
مفرحا وشآني نحوها النظر
تقول إذ أيقنت أني مفارقها
ياليتني مت قبل اليوم ياعمر [307]

حيث يستوحي اللفظ من إيقاع الآية الكريمة على تباعد ما بين الصورتين والموقفين « قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » [308] • وفي قول عمر :

قلت ما جشمتنا من حبكم
يا ابنة الخيرين أدهى وأمر [309]

على نسق الإيقاع في الآية الكريمة « بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » [310] • ولعمر أيضا قوله :

صدقت ومن يعلم فيكتم شهادة
على نفسه أو غيره فهو أظلم

---

(٣٠٤) ديوان عمر ٢٤ •
(٣٠٥) سورة المائدة ٣٢ •
(٣٠٦) سورة الفجر ١٣ •
(٣٠٧) ديوان عمر ٧٢ ٧٦ •
(٣٠٨) سورة مريم ٢٣ •
(٣٠٩) ديوان عمر ٩١ •
(٣١٠) سورة القمر ٤٦ •

فلا تصرميني إن تريني أحبكم
أبوء بذنبي إنني أنا أظلم [٣١١]

تأثرا بالآية الكريمة « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه »[٣١٢] والآية « إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار »[٣١٣] .

ثم يقول عمر :

إن الوشاة كثير إن أطعتهم
لا يرقبون بنا إلا ولا ذمما [٣١٤]

تأثرا بألفاظ من الآية الكريمة « لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة »[٣١٥] ثم يتكرر هذا التأثير عنده في مثل قوله :

صد عمداً فباء إذ صد عني
ياخليلي بإثمه وبإثمي

ومن مثل تلك الصيغ القرآنية ما أورده قيس لبنى تأثرا في قوله :

لقد كنت حسب النفس لو دام وصلنا
ولكنما الدنيا متاع غرور [٣١٦]

تأثرا بالآية الكريمة « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »[٣١٧] .
ويقول الفرزدق :

أحيا العراق وقد ثلت دعائمه
عمياء صماء لا تبقي ولا تذر [٣١٨]

---

(٣١١) ديوان عمر ١٨٥ .
(٣١٢) سورة البقرة ٢٨٣ .
(٣١٣) ديوان عمر ١٩٣ .
(٣١٤) سورة المائدة ٢٩ .
(٣١٥) سورة التوبة ١٠ .
(٣١٦) شعر قيس لبنى
(٣١٧) سورة الحديد ٢٠ .
(٣١٨) ديوان الفرزدق ١/٣٤٩ .

تأثرا بألفاظ الآية الكريمـة « وما أدراك ما سـقر ، لا تبقى ولا تذر »[319] .

وعلى هـذا النحو تتعدد الشواهد وتكثر مع شـعراء العصر ، وكأن ثمة سبقا فنيا راحوا يحققونه من خلال تنافسهم حول مادة المعجم الإسـلامى ، مما يظل دليلا قويا على أن هـذا التيار قد ظل صاعدا بقوته ورسوخه فى نفوس الشـعراء ، على الرغم من تعدد التيارات الحضارية والثقافية الوافدة من خـلال الأمم المفتوحة . بل لعله راح يعوض العصر — إلى حد كبير — ما افتقده شـعراؤه من سلوك دينى قويم إذ كادوا يتجاهلون رحلة القيم فى عصر صدر الإسـلام ، ليقفزوا قفزا إلى الجاهلية على لغة العصبية والفحش والاقذاع خاصـة منهم شـعراء النقائض الذين أهدروا كل القيم الدينية أمام إحياء المـادة الجاهلية ، فإن بقى لهم منها شىء فهو تلك المـادة المرصودة من واقع المعجم الإسـلامى .

ومما يلفت النظر فى هـذا المعجم أيضا أن التنافس قد ظهر بين الشـعراء حول كل أنماط المؤثرات الإسـلامية التى حاولنا توزيعها هنا تسهيلا لتناولها ، ومحاولة لحصرها نسـبيا دخولا إلى الموقف التحليلى لها واستخلاص النتائج من خلالها ، فقد اجتاحت كل الموضاعات من شـعر المديح إلى الهجاء ، إلى الرثاء ، إلى شـعر السياسة ، حتى فن الغزل الذى يمكن أن نتصوره بمنأى عن هـذا المؤثر وجدناه يستوعب منه الكثير لدى شـعراء الحضر والبدو على السواء ، وعلى هذا يكشف المعجم — أول ما يكشف — عن حجم المؤثرات الإسلامية وقد تحولت إلى ظاهرة فنية تسود بين الشعراء ، فتشمل شـعر العصر كله بكثير من صورها وملامحها ، فلم تفرق بين شـاعر متدين وآخر رقيق العقيدة ، بل لعلها لم تفرق بين مسلم ونصرانى إذا وضعنا فى اعتبارنا — وهـذا ضرورى — صـدى هذا المعجم باعتباره المعرفى

---

(319) سورة المدثر 28 .

وليس سلوكاً لدى شاعر كالأخطل انتصر لنصرانيته كثيراً ، ولكنه لم يتردد في أن ينهل من هـذا المعجم خاصة أمام ممدوحيه من خلفاء المسلمين وتكفى رائيته فى عبد الملك على ذلك شاهداً كاملاً منذ قولة فيه مصوراً مرة خلافته لله فى المسلمين على لغة القداسة التى اصطنعها شعراء الخلافة :

الخائض الغمر والميمون طائره
خليفة الله يستسقى به المطر

ومن ثم راح يدعو له دعاء إسلامياً بنصر من الله

إلى امرىء لا تعدينا نوافله
أظفره الله فليهنئ له الظفر

وهو ما يعود إلى تصويره فى إمارته للمؤمنين :

فهو فداء أمير المؤمنين إذا
أبدى النواجذ يوم باسل ذكر

بل يتحدث الأخطل عن الضلالة وكأنما أدرك أبعادها ، فيعرضها من منظور سياسى طبعا :

وتستبين لأقوام ضلالتهم
ويستقيم الذى فى خده صعر

فإذا انصرف إلى تعميم الصورة المدحية نسب جد الأمويين إلى الله سبحانه كما كان فى تصويره لعبد الملك نفسه :

أعطاهم الله جداً ينصرون به
لا جد إلا صغير بعد محتقر

وإن كانت هنا سـمة واضحة تظل شديدة الواقعية حول الفواصل الكبرى بين الأخطل وبقية شعراء العصر ، إذا نجد ندرة واضحة فى توقفه عند آيات بعينها ، وكيف يأتى بذلك وهو لا يقف عندها إلا من خلال ما يترامى إلى مسامعه منها ، ولذا نجد المعجم الإسـلامى لديه أقرب إلى طرح ما وجده متناولا ومطروقا على ألسنة الشـعراء ، وبقى له منه فى صميم شعره ما طرحه حول العبادات الإسـلامية من هجاء إما لينتصر لنصرانيته ، أو ليدافع عنها ضد من هجـاه بها من شـعراء النقائض الكبار خاصة جرير والفرزدق .

وعودا إلى هذا المعجم فيما عدا الأخطل تتراءى لنا صورته وقد كشف عما يدور فى أذهان الشعراء من قضايا العبادات ، والتوحيد ، والبعث والحساب ، وغير ذلك من صور الفكر الدينى التى ظهرت جلية فى شعر الشعراء . ولم يقف الشعراء عند حدود المعانى أو الدلالة ، بل وصل الأمر ببعضهم إلى حد التقاط ألفاظ أو صور أو مواقف معينة ، ترصدها آيات قرآنية ليستعين بها فى تزيين شعره أو تعميق دلالاته ، الأمر الذى وجدناه يسود كل الاتجاهات على وجه التقريب .

فإذا ما عدنا إلى معجم الشعر الإسـلامى فى عصر رسول الله ﷺ والراشدين من بعده تبين لنا أن شـعراء تلك الفترة قد استمدوا من المعجم فى موضوعات بعينها ، بما يتسق مع واقعية الفن الملتزم أخلاقيا واجتماعيا ، حين يأخذ مادته من معطيات عصره ، وبهذا تميز المعجم الإسـلامى لدى شعراء الدعوة فى كثرة حديثهم عن رسول الله ﷺ مدحا له ، أو دفاعا عنه أو ردا على هجاء أصابه ، كما ظهرت الصور المتعددة حول الدعوة إلى الهجاء ، ونصرة الدعوة الإسـلامية ، وقهر شعراء مكة ، وكلها أمور ترد بوضـوح إلى طابع العصر ، ذلك أن رسول الله ﷺ كان موجودا بين صفوف المسـلمين . وعلى هـذا يعد دوران المعجم الشـعرى حول شخص الرسول وصفاته أمرا مبررا ، يتسق مع طبيعة الفترة الزمنية للجيل السابق من الشـعراء ، بالإضافة إلى قدر واضـح من الحرج عند شـعراء العصر من تضمين الآيات

القرآنية ، أو الإسراف فى الإشارة إليها ، فى فترة لم يدون فيها القرآن الكريم أو السنة الشريفة ، مما انعكس بدوره على الشعراء فى ندرة التأثيرات النصية من تلك الأصول الدينية ، خشية اختلاطها بالنص الشعرى • فإذا أضفنا إلى هذا أن ثمة ازدواجية تأكدت فى قسمة جمهور المتلقين فى صدر الإسلام بين مسلم ومشرك ، أدركنا طبيعة المؤثرات الإسلامية على ذلك القدر المحدود — أحيانا — مع انتشار المؤثرات الجاهلية التى لم تمت بين عشية وضحاها من النفوس •

أما معجم شعراء بنى أمية فقد صحبه اختلاف فى طبيعته النوعية والكمية معا عما رأينا فى صدر الإسلام ، ذلك أن جمهور الشاعر قد اختلفت طبيعته أيضا ، صحيح أن ثمة أحزابا سياسية تقض مضجع الخليفة ، وتريد أن تنقض على الحكم ، فتسلبه إياه ، وقد يصل الأمر بها إلى تكفير الحاكم باعتباره مغتصبا ما ليس له بحق من خلافة المسلمين ، ولكن هذا الجمهور قد يصبح موضع هجوم من قليل من الشعراء ، ومحل ثناء ومدح لدى الكثيرين منهم ، فقد تحولت عاصمة الخلافة إلى منطقة جذب يلتقى فيها الشعراء من حول الخليفة مؤيدين ومدافعين عن شرعية الحكم فى أسرته ، ومن هنا بدا قبح المواجهة للخلافة من قبل شعراء الأحزاب الأخرى ، وكذلك من قبل شعراء الخلافة أنفسهم ضد تلك الأحزاب •

وطبقا لهذا التصور يبدو شاعر العصر الأموى فى صورته الاجتماعية أكثر هدوءا من ناحية جمهوره ، عما كانت عليه حال الشاعر فى صدر الإسلام بين مسلم ومشرك تعكسه بلورة مدرستى مكة والمدينة بين أقطاب كبار هنا أو هناك تظل الفجوة بينهما كبيرة جدا لتعكس معركة التوحيدية مع الوثنية ، وهى الصورة التى تختفى من الجمهور الأموى أمام نهاية الوثنية ووحدة الجمهور — إلى حد واضح — على المستوى الدينى ، باستثناء النصارى من تغلب وغيرها •

من هنا راح الشاعر الأموى ينتقى من المعجم الإسلامى ما يستطيع أن يزين به قصيدته ، ويدعم به أفكاره وصورها ومعانيها وموسيقاها، بعيدا عن ذلك الخوف أو الحذر الذى سيطر على شعراء ما قبل التدوين ، أما وقد دون القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، واطمأن المسلمون إلى سلامة النصين المقدسين ، فلا مشاحة - إذن - من التضمين بنصوص من أى منهما فى الأعمال الشعرية زيادة فى قيمتها وضمانا لأداء دورها لدى الجمهور المسلم .

ومن هنا راح شاعر بنى أمية يدعم شعره بالنصوص المقدسة - كما رأينا - على كل المستويات ، سواء عن طريق التضمين المباشر ، أو الصياغة غير المباشرة ، حيث يستوحى المعنى ، أو يفيد من معانى الآيات القرآنية لفظا وصياغة ، أو تصويرا ومعنى .

ويبدو واضحا طبيعة تطور المعجم الإسلامى ، وتنوع صوره وأشكاله كما ظهر لدى شعراء العصر ، إذ حاولوا صياغة كل ما استوعبوه ، وطرح ما استقر فى أذهانهم من الحس الدينى على مستوى الآيات معنى أو إيقاعا ، أو حتى من الأفكار والقيم الإسلامية التى حكمت حياة المجتمع ، وأفسحوا لها المجال لتظهر فى قصائدهم .

ولعل فى انتشار فن المدح وتوجيهه وجهة سياسية لصالح الحزب الأموى أو الأحزاب المناوئة له ، ما شجع الشعراء على مزيد من العودة إلى المعجم الإسلامى ، وعلى التنويع فى مصادر الأخذ منه كلما سنحت أمامهم فرصة للإفادة والتأثر ، وبدأ الشعراء يزكون فنهم من خلال شواهد التاريخ مدعومة بشواهد وثيقة من القصص القرآنى ، الذى استغل معظمه فى مواضع العظة ، وبث العبرة ، وتأكيد الاعتبار .

وعلى هذا النحو ظل المعجم الإسلامى للقصيدة الأموية وشاعرها موزعا بين الثبات والتغاير فى آن ، وهو ثبات عناصر وملامح أرساها

شعراء الدعوة فى العصر السابق ، ثم تغاير استجاب من خلاله الشعراء لطبيعة جمهورهم ، كما سمحت لهم به أيضا ظروف الإبداع وحالة الاطمئنان والهدوء بعد تدوين النصين المقدسين ، والاطمئنان أيضا إلى انتصار الفتوح الإسلامية التى امتدت إلى آفاق بعيدة شرقا وغربا ، ومعها اتسعت المساحة الجغرافية التى استوعب جمهورها مقومات هذا المعجم .

بل إن كثافة الحس الإسلامى وكثافة المعجم — بالصورة التى رأيناها — فى هذا العصر تظل مؤكدة الدلالة على أن الموقف الحضارى للإسلام لم يكن أقل تأثيرا من تيارات أخرى كثيرة ، أسهمت فى تطور القصيدة الأموية وتجديدها ، بل لعل كثافة المعجم تظل شاهدا على أن الرافد الإسلامى ظل متماسكا أمام تلك الزوافد الحضارية ، لتظل قدرته مؤكدة على الانتشار ، وتعمق نفوس المبدعين والمتلقين على السواء . ويبدو الحكم هنا موضوعيا إذا قيس بما رصدناه من صور كثيرة تؤكد هذه الحقيقة وتدل عليها ، بالإضافة إلى ضخامته وكثافته أيضا إذا قيس بأى مؤثر حضارى آخر ، قد نجده قليل الانتشار أو السيادة فى القصيدة الأموية أو — على الأكثر — بدا قريبا منه أمام زحف الحس الحضارى والسياسى .

فإذا أضفنا إلى المعجم الإسلامى ما شهده العصر من حركة الزهد التى بدأ فى إرساء قواعدها طائفة من زهاد العصر ممن اتخذوا من العبادة والتقشف مسلكا فى الحياة ، كرد فعل لانصرافهم عن زخرف الدنيا ، إذا أضفنا هذا الجو الدينى — على انتشاره فى العصر — استطعنا أن نتعرف على طبيعة التيار الدينى الذى تدفق من واقع نفوس الشعراء ، فملأ دواوينهم ، وبدا طبيعيا لهم أن يصدروا عنها بتلك الكثافة . ويحسن هنا أن نسجل أن نزعة الزهد هذه لم تنشأ من فراغ ، ولم تكن وليدة العصر وحده بقدر ما كانت امتدادا طبيعيا لتقشف السلف ، وحرصهم على العمل للآخرة ، كل ما هنالك أن الزهد قد بدأ يتبلور كفلسفة إسلامية تحاول أن تخلص لنفسها ، حتى

لا تختلط بها صيغ أخرى من رهبنة المسيحية أو فكرتها حول التثليث أو الخطيئة أو تعذيب الجسد أو ما أشبه ذلك مما تتضمنته أيضا فلسفات الأمم المفتوحة ومذاهبها ، ومع استمرار نقاء الزهد الإسلامى تعمق التيار الدينى نفوس الشعراء ، فأمدها بتيار يدعم الجوانب الدينية التى سبق عرضها جملة وتفصيلا ، ولعل تجاوز شعر الزهد هنا فى الدراسة يظل علامة دالة على صدوره كاملا من المعجم الإسلامى ، ولعل الرجوع إلى مظانه الأولى لدى الزهاد الأمويين تكفى دلالة على ذلك ، فمن باب أولى أن يظل جديرا بدراسة خاصة باعتباره هو نفسه معجما إسلاميا له أصوله ومقوماته ، مما يجعل إضافته هنا فى زحام التيارات الأخرى الكثيرة ضربا من السلب لحقه فى درس مستقل يمكن الرجوع إليه فيما شغل به من دراسات متخصصة حول العصر الأموى[1] .

وربما ظل تعامل الشاعر الأموى مع مادة المعجم بهذا التنوع علامة دالة على رد الفعل لديه بما قد يكشف عدم تدينه إذا ما قارناه بمعجم الزهاد وما دار على لسان الحسن البصرى أو أبى الأسود الدؤلى أو غيرهم ممن شغلوا بتدينهم سلوكا وعملا ودعوة وتنظيرا وتطبيقا .

أما هذا الزخام الذى غصت به دواوين الشعراء فى الغزل أو الهجاء بصفة خاصة فيظل بمثابة كشف عن ضرب من استقصاء جوانب الفكر واستقراء مادته فى جميع مصادره فكان المعجم الإسلامى إلى جانب المعجم الجاهلى فى عصر الإحياء ، وإلى جانبهما معجم العصر الجديد بكل دلالاته السياسية والاجتماعية والحضارية المتنوعة .

وقياسا على هذا الفهم لك أن تعايش ديوان الشاعر الأموى وتدرس من المعجم الإسلامى لديه الكثير بشرط ألا تربط ذلك بتدينه من عدمه ، فقد وقعت المفارقة بين المعجم كفكر وثقافة وبين السلوك الذى طغت عليه معالم الحضارة ، وإلا اعتبرنا كل شعراء العصر زهادا وهم ليسوا كذلك على الاطلاق .

---

(١) راجع التطور والتجديد فى الشعر الأموى للدكتور شوقى ضيف .

بل ربما كان هـذا الإلحاح على مادة المعجم الإسـلامي ضربا من ردود الفعل لدى الشعـراء ممن أدهشتهم المـادة الجاهلية فى عصر الإحياء. فكانت المـادة أمامهم على قدر من التنوع الذى دفع بهم إلى هـذا التكثيف سـواء فى لغة التصوير أو التقرير الذى دعموا بها أشعـارهم .

وعلى مستوى الدلالة التى يكشفها تعامل أولئك الشعـراء ـ على كثرتهم ـ مع المعجم الإسلامى تظل المادة موزعة بين أبعاد مختلفة، يبقى ظاهرا منها ومسيطرا تلك الدلالة النفسية التى دفعت بالشاعر الأموى إلى محاولة احتواء كل مصادر ثقافته لشـق طريق الفحولة وتثبيت مكانته فى عصره ، أو ربما لم يقصد إلى التنافس حول تلك الفحولة فظل كاشفا عما كمن فى وجدانه من حس تراثى بدا هـذا المعجم جانبا منه لا يسـتطيع إلا أن يأخذ منه أخذا واعيا يكمل به مدركاته ومصادر فكره .

أما على مستوى الدلالة السلوكية أو الموقف الأخلاقى فربما وجدنا المفارقة واردة بينه وبين ما تحكيه أخبار الشـعراء وسيرهم ثم ما تؤكده قصائدهم ـ بل دواوينهم ـ التى تخصصت من أى من الفنون الشـعرية حتى أصبح الشاعر فى إطار البلاط الأموين متزلفا منافقا إلى حـد بعيد ، خاصة منهم من بالغ فى طرح قداسة الخلافة حتى جعلهـا تفويضا إلهيا ، ووظف فى هـذا الاتجاه حسه الدينى حين استوقفه فكر الجبرية ليطوعه فى تأكيد الظاهرة حول شخص الخليفة الأموى ، فإذا خرجت من عالم الممالأة والنفاق التقبيت بصيغ من الفحش والاقذاع بما يعكس تخاذل الشاعر أمام القيم الإسـلامية التى ـ وإن تغنى بها ، وحشا بها شعره وزينه ـ بدا منفصلا عنها بشكل واضح ، وربما كان خضوعه لإيقاع الخصومة والرغبة فى تصفيق الجمهور والاندفاع إلى تحقيق الفوز على الخصم ، ربما كان هـذا كله من وراء المفارقة السلوكية التى تعكسها مواقف الشعـراء حتى

ليكاد يضعك فى مفترق الطرق فلا تكاد تحسم أمره هل بدا متدينا أو رقيق العقيدة • ولدينا عند شعراء النقائض نصيب كبير يحسم الموقف من هـذه الزاوية خاصـة حين غالى شاعر النقيضة فى المساس بالأعراض والتغني بالعصبيات وتزييف الأنساب وتغيير الحقائق، من وراء هذا كله ضرب من التناسى المؤكد أو التجاهل المقصود لكثير من تلك القيم التى استوقفته فى المعجم الإسـلامى • وعند غير هؤلاء وأولئك تتعدد سلوكيات شـعراء الغزل بما يكاد يضمها فى إطار سلوكى متشابه ـ خاصة المدرسة العمرية ـ بما يكفى لأن نتلقى من ديوان الشاعر معجما إسـلاميا يفقد العلاقة الايجابية بما يترجمه موقفه الدينى وما يعكسه فى هـذا الإطار •

أما لدى شـعراء السياسة فقد شـغلتهم قضية الالتزام الحزبى ودفعت بهم إلى ضروب من المبالغات حول نظرياتهم وأحزابهم ومبادىء فرقهم بما لا يطمئن فى النهاية إلى انعكاسات حقيقية لهذا المعجم فى سلوكهم ، إذ مازال الشاعر قاصدا إلى توظيف محدد لشـعره ، يدفع به إلى تأويل الآيات وانتقاء المعانى التى يستطيع من خلالها النفاد إلى حيث يريد ، بل حيث يريد منه حزبه ، وقد رأينا موقف الأخطل السياسى من بنى أمية وكيف يمن على الخليفة بدوره فى نصرته حتى كاد يكفر كل الأحزاب الأخرى ، وهى اللغة التى تداولها أيضا شعراء تلك الأحزاب فى محاولة لتكفير الخلافة •

أما عن الدوافع السياسية والاجتماعية فتظل واردة من خلال هـذا الركام النفسى والسلوكى على اختلاف تصانيف الشـعراء ، وكذا تخصص البيئات المختلفة خاصة ما كان من أمر شـعر المدح والسياسة فى الشـام ، أو شـعر النقائض والشـعر السياسى فى العراق ، ثم الشـعر الغزلى العذرى والحضارى فى بوادى ومدن الحجاز •

وتبقى السمات الفنية الواردة حول استخدام الشـعراء لهذا المعجم رهنا بالطابع الغالب على أداء الشاعر الواحد مما يؤكد استمرارية

الفروق الفردية بين الشــعراء ، أو قل الفروق الواضحة بين البيئات المختلفة ، على نحو ما انتشر من الصيغ التقريرية المباشرة التى انسحب أمامها التصوير فى أدب السياسة وشــعر الاحتجاج ، وكذا فى المدح السياسى وقليل من الهجائيات . وقياساً على عكس ذلك نجد التصوير فى شــعر الغزل وفى كثير من النقائض أيضا لأن الشاعر يبدو هادئا أمام تجربته التى تمرس بتصوير نظائر لها حتى تحول الاتجاه الغزلى إلى مدرســة لها حدودها وخصائصها الفنية المتميزة ، أو لأن الشاعر يبدو ملحاً على إظهار فحولته فى عصر من عصور الجدل والصراعات الفكرية ، فكيف يظهرها إلا من خلال تداخل هــذا الركام الفكرى فى القصيدة بما يدعم موقفه ويحوز به التفوق على خصمه حتى يفحمه .

وربما ظلت هــذه السمات رهنا بانعكاسات مواقف الشــعراء إزاء الفرق المتجادلة المتناحرة فى أفكارها ، فأصبحت تلك الأفكار مشاعا بين الشــعراء ويظل للشاعر حق الاختيار للفرقة التى يأخذ بمبادئها ، ومن ثم يمارس حقه فى استغلال مصطلحاتها وتوجيهها فى شعره إلى حديث يريد ، ومن هنا كان تطويع الألفاظ مرة فى عالم الغزل ، وأخرى فى الهجــاء ، وثالثة فى المــدح ، ورابعة فى الســياسة أو العصبية وهكــذا ...

فإذا استطعنا أن نتلمس من هــذا المعجم سمات الحياة الأموية من خلال شــعرائها بدت الصورة واضحة جلية ، ويبقى امتدادهــا الصحيح رهنا بانتقالنا إلى الحياة العباسية .

***

الفصل الثالث

فى العصر العباسى

١ ــ إتجاهات الحياة العباسية .
٢ ــ روميات الشعراء .
٣ ــ التاريخ الإسلامى .
٤ ــ المذاهب الفكرية .
٥ ــ الزهد والتصوف .
٦ ــ سمات المعجم .

ومع ما شهدته البيئة العباسية من تطور فى فنون الشعر ، وتعدد فى موضوعاته ظلت صلة شعراء العصر بالتراث الإسلامى وطيدة بشكل يلفت النظر ، وحين نقول يلفت النظر على الرغم من أنه موقف طبيعى على الصعيد التاريخى إذ أن العصر هو امتداد للعصر الإسلامى ، فإنما نقصد بذلك إلى ما عرف عن البيئة العباسية من انتشار تيارات الفساد الاجتماعى ، والتحلل الأخلاقى ، وانهيار الكثير من القيم فى إطار الزندقة والمجون واللهو ، والعبث بقضايا الغيب وأصول العقيدة لدى بعض كبار شعراء العصر ، والإسراف فى ممارسة المتعة المحرمة فى مجالس الندماء ، وشرب الخمر وغيرها من صور العربدة والتحلل من كثير من القيم ويكفى شاهداً أن يتتبع الموقف الجغرافى للمجون العباسى فى المدن المختلفة ، ثم فى الأديرة خارج المدن ، ثم فى المتنزهات والرياض والحدائق ، وفى دور الشعراء ومجالس الغناء ودور القيان ، بل حتى فى القصور العباسية ذاتها ، فماذا بقى إذن لغيرها من التيارات ؟

ووسط هذا الزحام من أصوات اللاهين والمجان وعربدة السكارى والذمورين اللاهثين وراء اللذة المؤقتة شهد العصر نغمة اسلامية رددها الشعراء فى جل موضوعات الشعر ، فلم يعرف المعجم الإسلامى سبيلا إلى الخفوت أو الأفول ، بل زاحم الحضارة وقاوم سلبياتها ، واستمال الكثير من شعرائها وانتشر فى كثير من الموضوعات التقليدى منها والمستحدث على السواء .

ولعل أكثر صور المعجم الإسلامى انتشارا ما ورد على ألسنة شعراء المدح ممن أداروا حوارات دينية مكررة حول فضائل ممدوحيهم ، فصور فريق منهم حركة الجهاد الإسلامى ضد الروم وغيرهم من أعداء الإسلام ، وراحوا يترقبون حركة الخلافة فى نصرة الدين ، والدفاع عن الرعايا حرصا على توثيق الغزوات ، وتصوير

الحروب من حيث دوافعها وأحداثها ونتائجها ، ورصد الانتصارات التى زادت أحداث التاريخ توثيقا ، بل ربما أضافت إليها من التفاصيل كثيرا من الصور فى عصر شهد مكانة الشاعر وسيلة إعلامية يعتمد عليها كل الاعتماد •

ومع قصيدة المدح بدا موضوعها أكثر قابلية للتطويع لاكتساب صور من هذا التيار الإسلامى ، واستيعاب كثير من صور معجمه وتقاريره • فقد اتسعت حدود دائرة الفضيلة فشملت وقائع وأحداثا جساما ، عاشها الخلفاء فى حروب دامية مع أعداء الإسلام من الروم ، الأمر الذى جعل الممدوح العباسى يظهر كفارس مسلم يدافع عن الدين ، ويحتسب عند الله أجره قبل أى اعتبار آخر ، على النحو الذى رسخه قول أبى تمام فى دوافع المعتصم فى فتح عمورية :

هيهات زعزعت الأرض الوقور به
عن غزو محتسب لا غزو مكتسب [1]

ودوافع تدبيره للغزو :

تدبير معتصم بالله منتقم
فى الله مرتقب فى الله مرتغب

وهو ما طرحه فى صورة أكثر وضوحا ومباشرة :

يا فارس الإسلام أنت حميته
وكفيته كلب العدو المعتدى [2]

وكذا على نحو ما صوره من شجاعته التى ركزها فى ثغور الدولة ، لكى يحمى حماها ، ويدفع عن الإسلام خصومه :

أصبحت مفتاح الثغور وقفلها
وسداد ثلمتها التى لم تسدد

---

(١) الديوان

(٢) الديوان ٢/١٣٨ كلب العدو : أذاه وشره •

فهو يشكل الصورة — هنا — من منظور دينى محض ، رسخ فى ذهنه قياسا على ما عرضه فى لوحة عمورية حين كرر إسناد فتحها وتحطيم حصونها إلى الله سبحانه :

من بعد ما أشبوها واتقين بها
والله فتاح باب المعقل الأشب

وبذا تزداد صورة الخليفة إشراقا حين يغلفها الشاعر بذلك الطابع الدينى المحض ، لا من حيث الدوافع فحسب ، بل من حيث التقدم الفعلى فى القتال ، على النحو الذى سجله أبو تمام أيضا حين نسب تقدم المعتصم إلى الإرادة الالهية لا إلى قدراته البشرية فى قوله :

رمى بك الله برجيها فهدمها
ولو رمى بك غير الله لم تصب

فلا مانع لدى الشاعر من أن يجعل ممدوحه البطل المسلم مجرد أداة يرمى بها الله خصوم دينه ، ولو كان الممدوح وسيلة من عند غير الله لكانت الهزيمة من نصيبه ، وهو ما نجده يتردد أيضا عند أشجع السلمى فى قوله :

وليهنك الفتح والأيام مقبلة
إليك بالنصر معقودا نواصيها
أمست هرقلة تهوى من جوانبها
وناصر الله والإسلام يرميها
إن الخليفة سيف لا يجرده
إلا الذى ملك الدنيا وما فيها (٣)

وكأن كلا من الشاعرين راح يصوغ فى فنه معنى الآية الكريمة حول حروب رسول الله ﷺ وغزواته « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »(٤) .

---

(٣) الأغانى ١٨/ ١٧٤ . (٤) سورة الأنفال ١٧ .

ولذا ردد بعض شعراء الزهد ما ينطق بالربط بين أحداث التاريخ الإسلامى على هذا النحو الذى قاله عبد الله بن المبارك فى منطق الجهاد مؤكدا ما يذهب إليه بالكتاب الكريم ، وما ورد عن رسول الله ﷺ :

ولقد أتانا عن مقال نبينا
قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى وغبار خيل الله فى
أنف امرئ ودخان نار يلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا
ليس الشهيد بميت لا يكذب (٥)

وتتوالى الأحداث ومعها يزداد مدد المعجم الدينى وتزداد دائرة الفضيلة الإسلامية اتساعا وعمقاً ، حتى مع نتائج الحروب التى لم يستهدف منها الخلفاء غنائم ولا اكتساب ، بقدر ما سيطر عليها من قداسة الرغبة فى نصرة الدين ، على المنهج الذى عرضه أبو تمام أيضا ، حول المقارنة التى عقدها بين فتح عمورية وبين يوم بدر فى قوله :

إن كان بين صروف الدهر من رحم
موصولة أو ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتى نصرت بها
وبين أيام بدر أقرب النسب

وكأن هذا الربط لم يكن إلا نتاجا طبيعيا للمسلك الدينى القويم ، الذى خرج على أساسه المعتصم غازيا ، وبذا كانت نتائج الفتح مجسدة فى تعبير السماء عن سعادتها به قبل الأرض :

فتح تفتح أبواب السماء له
وتبرز الأرض فى أثوابها القشب

(٥) النجوم الزاهرة ٢/١٠٣ .

كما سعد به الإسلام تصريحا فى قول أشجع :

يثنى على أيامك الإسلام
والشاهدان : الحل والإحرام
وعلى عدوك يا ابن عم محمد
رصدان : ضوء الصبح والإظلام(٦)

وهو مابدا شديد الوضوح أيضا فى مدح أبى تمام لأبى سعيد محمد ابن يوسف الثغرى فى قوله :

يوم به أخذ الإسلام زينته
بأسرها واكتسى فخرا به الأبد
يوم يجىء إذا قام الحساب ولم
يذممه «بدر» ولم يفضح به «أحد»(٧)

وإذا هو أيضا يضحك الأرض المقدسة من منظور دينى كما أسعد به السماء :

ضحكت له أحياء مكة ضحكها
فى يوم بدر والعتاة الشهد(٨)

ولم يكن أبو تمام الفارس الوحيد الذى صور بلسانه روعة النصر الدينى فى عمورية أو غيرها من روميات الخلافة العباسية ، فقد شاركه فى ذلك على بن الجهم بنفس المستوى الانفعالى ، والصدق التصويرى فى عرض نفس الفتح أيضا وما كان من استحسان نتائجه :

مناظر لا يزال الدين منها
عزيز النصر ممنوع المرام(٩)

وإذا بالنتائج تبنى على نفس المقدمات الدينية على شاكلة قول أبى تمام :

---

(٦) البيان والتبيين ٣/٣٢٥ (٧) ديوان أبى تمام ٢/١٢
(٨) ديوان أبى تمام ٢ ١٣٨ (٩) ديوان على بن الجهم ٩

وعمـورية ابتدرت إليهـــا
بوادر من عــزيز ذى انتقــام

وإذا بالشرك يلقى مصرعه أمام جحافل المسلمين ، لتكون الحرب ـــ فى جملتها ـــ دينية ، وليكون الخروج إليها جهادا إسلاميا يترجم ما كان من تهاوى عمورية ، ورفع راية الإســلام ، على نحــو ما صوره قول أبى تمام أيضا :

حتى تركت عمـود الشرك منقعــرا
ولم تعرج على الأوتاد والطنب

ومن هنا كان تأكيد قوله :

أبقيت جد بنى الإســلام فى صعد
والمشركين ودار الشرك فى صبب

أو فى نتائج المعركة فى ختام القصيدة ذاتها :

أبقت بنى الأصفر المراض كاسمهم
صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

وهى صور تداولها الشعراء ، وتعاورتها ألسنتهم ، وتزاحمت عليها خواطرهم ، فكانت قريبة منها أيضا صــورة أبى الشيص حــول هزيمة الشرك أمام الإســلام على هــذا العمق التصويرى الطريف :

شــددت أمير المؤمنين قوى الملك
صدعت بفتح الروم أفئدة الترك
فريت ســيوف الله هام عــدوه
وطأطأت للإسلام ناصية الشرك[١٠]

وفى موازاة التحول الذى أصاب قصيدة المدح الأموية حين وزعها شاعر العصر بين مدح تقليدى وبين لوحات السياســة الخالصة نجــد

---

(١٠) أشعار أبى الشيص ٨٥

القصيدة العباسية تأخذ نفس المنحى من القسمة على مستوى الشكل ، ولكن من منظور آخر يعكس طابع التحول الذى أصاب العلاقات الخارجية والداخلية فى الدولة ، فقد أخذت الخلافة بمبدأ القسوة والعنف مع أهل الفتن والمناوئين لها من بقايا الفرق السياسية ، حتى كادت ـ بذلك ـ تسكت أصوات المعارضة وعندها تهاوى الصوت السياسى الذى ارتفع فملأ الأذان فى عصر بنى أمية من قبل الشيعة والخوارج والزبيريين .

وفى مقابل هذا التهاوى ارتفعت أصوات أخرى تهاون معها خلفاء بنى العباس ، ربما من قبيل المجاملة أو من قبيل الخوف والحذر أو المهادنة ، وربما أخذ الخلفاء ـ آنئذ ـ درسا أليما من وقائع الأحداث التى دالت لهم من بنى أمية ، فأرادوا أن يضمنوا لسياستهم أنصارا من الأمم المفتوحة التى شاركت فى إسقاط الحكم الأموى من ناحية أخرى ، وهو الأمر الذى نجم عنه توجيه معظم طاقات الخلفاء
من ناحية أخرى ، وهو الأمر الذى نجم عنه توجيه معظم طاقات الخلفاء
إلى السياسة الخارجية حول مناطق الثغور ، وترقب حركات الروم التى قصدت إلى تهديد الدولة الإسلامية ، ومن ثم عرفت القصيدة المدحية قسمة جديدة لها على أساس من تلك السياسة الخارجية فكانت معرضا للمدح والهجاء معا ، حيث راح الشاعر يتبنى قضايا الإسلام من منظور تعارضه مع قضايا الشرك عى عكس ما تراءى لنا من صراعات الفرق الإسلامية وتكفير بعضها بعضا على نحو من الصراحه ترجمة قول نصر فى المرجئة :

إرجاؤكم لزكم والشرك فى قرن
فأنتم أهل إشراك ومرجونا

وبذا كان طرح هذه الصور على سبيل التناقض قاسما مشتركا بين كبار شعراء العصر على النحو الذى اصطنعه أبو تمام فى بائيته فى عمورية ، وعلى النحو الذى سارت فى إطاره حركة الجهاد الدينى

على المستوى الداخلي أيضا في مثل نهوض المعتصم بالله ضد قائد جيوشه (الأفشين) حين انكشف له أمره ، وتبينت خيانته ، وافتضح نواياه التي جسدتها محاولته لإعادة ديانة الفرس (المجوسية)، وما تأكد حوله من أن قوما من الفرس كانوا يكاتبونه باسم (إله الآلهة) ، وأنه كان دائم التربص بالمسلمين حتى كشف الله للمعتصم أمره فصلبه ثم أحرقه (سنة ٢٢٥ هـ)[١١] .

ووجد أبو تمام فرصته في هذا الجو الغامض الكئيب ، ليطرح أبعاد الموقف من منظور ديني محض ، عرض فيه من لوحات الفن ما يعكس أثر المعجم الإسلامي في نفسه ، على نحو ما ردده في قصيدته الرائية المشهورة ومطلعها :

الحق أبلج والسيوف عوار
فحذار من أسد العرين حذار [١٢]

وفيها يقول موثقا صلة الخليفة بدينه وتمسكه به ودفاعه الدائم عنه :

ملك غدا جار الخلافة منكم
والله قد أوصى بحفظ الجار

فلعله بذلك أشار إلى دلالة الآية الكريمة « والصاحب بالجنب وابن السبيل »[١٣] .

أو حديث رسول الله ﷺ « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

وهو يضخم من حجم الفتنة حين تصل إلى درجة معصية الله تعالى ، على نحو ما كان من كاوس بن خيذر (الأفشين) :

---

(١١) تراجع تفاصيل تلك الوقائع في مقدمة ابن خلدون ٣/٥٦٨ ، الطبري ٩/١٠٤ .

(١٢) ديوان أبي تمام ٢/١٩٨ ، ابن الأثير ٥/٢٥٩ .

(١٣) سورة النساء ٣٦ .

يارب فتنــة أمــة قد بزهـــا
جبــارها فى طاعة الجبـــــار

مصورا بعد ذلك طغيانه وكفره فى لوحة كاملة ، يعرض فيهـا موقفه منــذ خرج على المعتصم ، وتنكر له ، وبطر على نعم الله التى غمرته فى ظلال حكمه :

كم نعمــة لله كانت عنــده
فكأنهــا فى غــربة وإســار

ثم يؤكد ما كمن فى صدره من كفر بالله ، وكيف طبع على النفاق :

حتى إذا ما الله شــق ضميره
عن مستكن الكفــر والإصــرار
ونحا لهــذا الدين شــفرته انثنى
والحــق منــه قانىء الأظفـــار

متأسيا فى ذلك بالمعانى والصور التى وردت فى الآيات القرآنية فإذا بالطغيان ينتهى إلى « دار البوار » :

جالت بخيذر جولة المقـــدار
فأحله الطغيــان دار بـــوار

مســتوحيا فى ذلك معنى الآية الكريمة (وأحلوا قومهم دار البوار)[14] وكذا فى قوله :

مكــرا بنى ركنيــه إلا أنــه
وطد الأساس على شــــفير هار

متأثرا أيضا بدلالة النص القرآنى من قوله تعالى « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هــار »[15] واذا بالشــاعر لا يترك الأفشين حتى يكشف طابع

(١٤) سورة إبراهيم ٢٨ .
(١٥) سورة التوبة ١٠٩ .

عقيدته ، وما كان من جنايتة على الاسلام لولا أن كشف الله أمره :
فاذا هو من رؤوس الشرك وعباد النار :

مشبوبة رفعت لأعظم مشرك
ما كان يرفع ضوءها للساري
صلى لها حيا وكان وقودها
ميتا ويدخلها مع الفجار

مستأنسا فى ذلك بدلالة الآية الكريمة (وإن الفجار لفى جحيم)[16] وإذا هو يعاود تصوير عشقه للكفر ، وحرصه عليه ، فلا يكاد يجد معادلا للموقف إلا من خلال ما التقطه من التاريخ الأدبى من غزل الفرزدق فى زوجته « نوار » وما حدث من ندمه من جراء تطليقه إياها ، فيقول أبو تمام عن الأفشين وكفره معرجا على هذا التاريخ :

فإذا ابن كافرة يسر بكفره
وجدا كوجد فرزدق بنوار

ومن ثم اشتد حرصه على إخراج الأفشين من دائرة المسلمين ممن أخلصوا لدينهم ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، فيستعيد آنئذ من مشاهد التاريخ الإسلامى إحدى صور الرعيل الأول ، ويختص منهم أبا بكر وما كان من صحبة الوفاء لرسول الله ﷺ فى الغار على النحو الذى صوره القرآن الكريم « إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا »[17] فاذا بالأفشين يلحق بأقرانه من المارقين المرتدين ، وينضم إلى حزب الكفار على عكس ما عرفه الإسلام من تلك الصحبة المقدسة التى بدا الدين قوامها الأول :

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن
لاثنين ثان إذ هما في الغار

---

(١٦) سورة الانفطار ١٤ . (١٧) سورة التوبة ٤٠ .

ولا يكاد أبو تمام يختتم قصيدته ، حتى يستطرد عودا إلى كشف أبعاد أخرى من كفر الأفشين بالنبوة والهدى ، ليبدو جزاؤه بذلك من جنس عمله :

كادوا النبـوة والهـدى فتقطعت
أعناقهم فى ذلك المضـمار

تنفيذاً بذلك لجزاء الذين أفسدوا فى الأرض « أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » (١٨) ذلك أن مكر هـؤلاء لا يساوى شـيئا أمام قدرة الخالق على الانتقام منهم « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » (١٩) وهؤلاء ينالون جزاءهم بناء على مقدمات أسرفوا فيها وتمادوا فى غيهم « ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شـديد العقاب » (٢٠) . ولم تكن الإطالة فى التوقف عند أبى تمام كشفاً لقصر المعجم الإسـلامى عليه دون بنواه من شـعراء العصر العباسى ، بقدر ما تبدو مؤشراً لشيوع الظاهرة حتى عند من خاضوا القول فى الزندقة من قبله ، إذ نجد بشارا فى مستهل العصر العباسى يحاول أن يشـيع فى أبياته من هـذا الحس الإسـلامى بعضا من المعانى التى حاول فيها أن يقترب من شـعراء عصره فى القدرة على الأخذ ، والإفادة من المعجم الإسـلامى ، وربما كان المديح أقرب الموضوعات أمامه لاستيعاب هـذه المعانى الإسـلامية ، وتلك القيم التى أعاد بشار طرحها فى دائرة فضيلة ممدوحه من منطق التقوى ، والحرص على دينـه ، والذود عنه ، وما يصحب ذلك من وقاره وحلمه حتى ليبالغ فى تصوير هـذه الصفات حين يقرنها بما كان فى رسول البشرية عليـه الصلاة والسـلام ، فيقول بشـار فى الخليفة المهـدى :

---

(١٨) سورة المـائدة ٣٣ .

(١٩) سورة الأنفال ٣٠ .

(٢٠) سورة الأنفال ١٣ .

فتـى قريش دينـا ومكـرمة
وهبت ودى له بمـا وهبـا
يعطيـك ما هبت الريـاح ولا
يطمـع فى دينه وإن قربـا
شـهم وقـور يزين غرتـه
حلم وزان الوقار ما اجتنبـا
نرى عليـه سـيما النبـى وإن
حارب قوما أذكى لهم لهبـا[21]

كما قال فيه أيضا مصورا الموقف بينه وبينه ، حين منعه من القول الصريح فى الغزل ، أو التعرض لطريق الغواية والسىء من القول :

تثاقلت إلا عن يد أستفيدهـا
وزورة أملاك أشـد بها أزرى
وأخرجنى من وزر خمسـين حجة
فتى هاشمى يقشعر من الوزر
فلا تعجبى من خارج من غواية
نوى رشدا قد يعرض الأمر ذى الأمر
فهذا وإنى قد شرعت مع التقى
وماتت همومى الطارقات فما تسرى[23]

فهو لا يكشف عن تأثر مباشر بمعان معينة لآيات بعينها ، ولكنـه يبدو قادرا على تلمس أبعاد سـبيل الرشـد والهداية حين ينأى بنفسه عن غوايتها وضلالها ، ثم هو يأخذ من هـذا السلوك الدينى ما يضفيه على الخليفة الذى يقشعر من الوزر ، ثم ما يضفيه على نفسـه وقد اثر طريق الهداية وشرع فى سبيل التقى ما يتنافى مع منطقة العبثى الذى أحس فيه خفة ظله فبالغ فى تصويرها حين قال فى نفس الموقف من منظور يبعد عن هذا الحس الدينى ويتنافر معه :

---

(٢١) ديوان بشار ١/٣٢٧
(٢٢) ديوان بشار ٢/٢٥٠

ونهـانى الملك الهمـا م عن النسيب وما نوتيبـه
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئا أبيتـه
والله رب محمـد ما إن قصدت ولا نوتيه

ولم يقف الشـعراء عند موضوع المديح وحده بل أفسـح للمعجم الإسـلامى مجالات أخرى كثيرة كثر فيها حوارهم على صعيد الموضوعات المختلفة حربية كانت أو غير حربية، الأمر الذى يكشف عن دقة صلتهم بهذا المعجم ، فأخذوا منه الكثير من المعانى والصور فى زهدهم ، وهنا بدا إخراج الصورة جديدا بحكم سـيرة الشاعر الزاهد حين يستوقفه — أيضا — ذلك الطابع الدينى للحروب على النحـو الذى ذهب إليه أبو العتاهية حين ذكر خروج الرشيد لقتال بندار هرمز بطبرستان (٢٣):

ألا إن حـزب الله ليس بمعجـز
وأنصـاره فى منعـة المتحـرز
أبى الله أن يعصى لهارون أمره
وذلت له طوعا يد المتعـزز
إذا الراية السـوداء راحت أو اغتدت
إلى هارب منهـا فليس بمعجـز
أطاعت لهارون العـداة لدى الوغـى
وكبو للإسـلام بندار هرمـز

وبذلك انتشر الحس الإسـلامى فى لوحات الحروب لدى شعراء المديح الذين نالوا مكانة مرموقة فى هـذا الفن ، أو من آثر منهم طريق الزهد على نحو ما كان من أبى العتاهية الذى لم تكد صورة تخلو لديه من ذكر الله سبحانه وتعالى ، والإلحاح على ذكر الدين ونسبة النصر فى الحروب إلى الله وهو النحو الذى ردده مسلم بن الوليد أيضا فى ثنايا مدحه داود بن يزيد :

والله أطفأ نار الحرب إذ سعرت
شرقاً بموقدها فى الغرب داوود

(٢٣) شـعر أبى العتاهية ٦٣.

ناضلتهم — زائد الإسلام تقرعهم
عنـــه ثلاث ومثنى بالمواحيـــد
يجود بالنفس إن ضن الجواد بها
والجود بالنفس أقصى غاية الجود
لا يعدمنك حمى الإسلام من ملك
أقمت قلته من بعـــد تأويـــد
أجرى لك الله أيام الحيـــاة على
فعل حميد وجد غير منكـــود
لا يفقد الدين خيلا أنت قائدها
يعهدن فى كل ثغر غير معهـــود

من هنا تبدو اللوحة قائمة على أساس من طرح الحس الإسلامى الذى يترجمه ســلوك القائد فى حروبه ، دون أن يأبه فى ذلك بمطامع دنيوية أو غنائم ، بل يقبل على الموت إقبالا دينيا صرفاً يعكس سلوك المسلم فى قوة إيمـانه ، حين تلتقى فى نفســه الفضائل الدينية القويمة ، تلك التى يستجمعها الشاعر فى قليل من الأبيات على النحو الذى صور فيه يزيد بن مزيد الشيبانى قائلا :

لا يســتطيع يزيد من طبيعتـــه
عن المنية والمعروف إحجـــاما
خيل له ما يزال الدهر يقحمهـا
فى غمرة الموت يوم الروع إقحاما
أذكرت سيف رســول الله سنـته
وبأس أول من صلى ومن صاما
قطعت فى الله أرحام القريب كما
وصلت فى الله أرحاما وأرحاما
يطيب منك مع الآمال صـــاحبها
حلما وعلما ومعروفا وإســلاما(٢٤)

---

(٢٤) ديوان مسلم بن الوليد ٦٢ — ٦٧ .

ولعل الجانب الإسلامي في لوحات المدح الحربي قد طرح على الشعراء من الثقة في انتصارات ممدوحيهم الكثير ، وإذا بالشاعر يتحول من مجرد مادح إلى ناصح ومرشد وموجه ، تدعوه ثقته في تدين ممدوحه والنصر الإلهي المرصود له ، تدعوه إلى أن يزداد عنفا في قتاله ، ويشتد غضبه من أجل الدفاع عن دينه ، على نحو ما كان من تحريض محمد بن يوسف لهارون الرشيد على العودة إلى غزو بلاد الروم وتأديب ملكهم « نقفور » بعد أن نكث عهده معه :

نقض الذي أعطيته نقفور
فعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فإنه
فتح أتاك به الإله كبير

فلقد تباشرت الرعية أن أتى
بالنقض عنه وافد وبشير

ورجت يمينك أن تعجل غزوة
تشفي النفوس مكانها مذكور

نقفور : إنك حين تغدر أن نأى
عنك الإمام لجاهل مغرور

أظننت حين غدرت أنك مفلت
هبلتك أمك ما ظننت غرور

ألقاك حينك في زواخر بحره
فطمت عليك من الإمام بحور

ملك تجرد للجهاد بنفسه
فعدوه أبداً به مقهور (٢٥)

وإذا بصدى الموقف ينعكس لدى أشجع السلمي ولكن بعد الانتصار فراح يهنيء الرشيد لما فتح « هرقلة » وهزم « نقفور »

---

(٢٥) ديوان مسلم ٢٥

مما يذكرنا بموقف أبى تمام من بعده فى فتح عمورية ، يقول أشجع :

وليهنك الفتح والأيام مقبلة
إليك بالنصر معقودا نواصيها
أمست هرقلة تهوى من جوانبها
وناصر الله والإسلام يرميها
إن الخليفة سيف لا يجرده
إلا الذى يملك الدنيا وما فيها (٢٦)

وهو المنهج الذى شاعت فى إطاره صور الانتصارات الحربية من منظور دينى ، حتى أصبحت قاسما مشتركا بين شعراء العصر الذين راح يكرر بعضهم بعضا ، بل راح الواحد منهم يكرر نفسه بين قصائده ، فهو يصدر من نفس المنطلق الذى يسيطر عليه فيه المصدر الإسلامى ، وإذا بالظاهرة تشيع إلى درجة من العمق ، فتشمل كل شعراء العصر — تقريبا — ممن كان منهم على قدر من التدين ، أو حتى الخلفاء الذين أرادوا إظهار تدينهم وواجبهم إزاء العقيدة ، حتى يخففوا من إحساسهم بنفور المجتمع منهم ، فإذا بالحسين بن الضحاك يصور الطابع الإسلامى فى انتصارات ممدوحه قائلا :

نرى النصر يقدم راياته
إذا ما خفقن أمام العلم
وفى الله دوخ أعداءه
وجرد فيهم سيوف النقم
وفى الله يكظم من غيظه
وفى الله يصفح عمن جرم (٢٧)

---

(٢٦) الأغانى ١٩٦ أشعار الخليلى ٩٨ .

(٢٧) نفس المصدر .

وبذا بدأ يوسع من دائرة الفضيلة حين يمس أخلاق الممدوح حتى فى تعامله مع أعدائه ؛ ويسبق ذلك ـ بالضرورة ـ تعامله مع رعاياه ، فإذا هو يسلك سلوكا إسلاميا يدخله ضمن دائرة « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس »[28] على النحو الذي صورته الآية الكريمة .

وعلى هذا النهج ـ أو قريبا منه أيضا ـ اتسعت دائرة الفضيلة ، ورسم الشعراء صورا عديدة للممدوحين من هذه الزاوية الدينية التى عرضوا فيها نماذج مثالية من سلوكهم ، أساسها التقوى والورع والتمسك بمكارم الأخلاق ، على النحو الذى عرضه أبو تمام من خلال حسن التنسيق والترصيع معا فى قوله :

تدبير معتصم بالله منتقم
لله مرتقب فى الله مرتغب

وإلى نحو ما صوره إسحاق الموصلى فى تصويره للمعتصم أيضا من جمعه بين جمال الخلقة والخلق من منظور دينى يراه فيه :

كسى الجلال مع الجمال وزانه
هدى التقى ومكارم الأخلاق[29]

ولذلك يبدو الشاعر شديد الحرص فى حواره الدينى ، فيقترب بالخليفة من سنة رسول الله ﷺ ، حيث يبدو بها متمسكا ، وعليها حريصا ، مما يدعم تلك الصفات الدينية فيه على النحو الذى ذهب إليه مروان بن أبى حفصة فى قوله :

أحيا أمير المؤمنين محمد
سنن النبى حلالها وحرامها
كلتا يديك جعلت فضل نوالها
للمسلمين وفى العدو وبالها

(٢٨) سورة آل عمران ٣٤ .

(٢٩) ديوان إسحاق الموصلى ١٥٦ .

وقعت مواقعها بعفوك أنفس
أذهبت بعد مخافة أوجالها
أمنت – غير معاقب – طرادها
وفككت من أسرائها أغلالها
ونصبت نفسك – خير نفس – دونها
وجعلت مالك ولقياً أموالها (٣٠)

فإذا الممدوح يبدو عنده رجل دين من الطراز الأول ، فهو يسير على نهج رسول الله ﷺ ، ويحرص على إحياء سنته الشريفة من قبيل التشريع ، وبيان القول الفصل فى الحلال أو الحرام ، وعندئذ يأخذ فى إحياء السلوك اقتداء به عليه السلام ، واستفادة بعفوه عند المقدرة ، الأمر الذى يدفع الخليفة إلى حماية رعيته والحفاظ على أمنها ، فإذا ما كان فى مواقف الحروب أصدر عفوه عن الأسرى ، ولم يعرف سبيلا يؤدى إلى البخل على رعاياه ، بل يحمى الرعية ، ويبذل لها ما يكفيها ، ويسد حاجتها .

وتتسع دائرة الفضائل الإسلامية فى أشخاص الممدوحين ، ومعها يزداد حرص الشعراء على عرض تفاصيلها ، وقد استعانوا فى ذلك بما ثقفوه وزاد به وعيهم من مادة المعجم الإسلامى ، فإذا بأشجع السلمى أيضا يعرض فى مدح الرشيد صورة كاملة أساسها ما ردده أبو نواس فى نفس الممدوح أيضا فى قوله :

إمام يخاف الله حتى كأنه
يؤمل رؤياه صباح مساء (٣١)

لتصبح الصورة أكثر تركيبا عند أشجع ، حين يلتقى موجب الشخصية لديه فى السلم بموجبها أيضا فى ميدان القتال فإذا هو :

---

(٣٠) ديوان مروان ٨١ .

(٣١) ديوان أبى نواس ٤٠٣ .

ملك من مخافة الله مغض
وهو مغضى له من الإعظام

ألف الحج والجهاد فما ينفك من سفرتين فى كل عام
سفر للجهاد نحو عدو والمطايا لسفرة الأرحام

طلب الله فهو يسعى إليه بالمطايا وبالجياد السوامى
فيداه : يد بمكة تدعو وأخرى فى غزوة الإسلام

فإذا الممدوح لا يتوانى عن الخروج الدائم فى جهاده الدينى فى سبيل الله ، فهو فى حروبه مجاهد يحتسب عند الله تعالى أجره ، وفى سلمه يلتزم بالصورة الأخرى من الجهاد حول جهاد النفس ، والحرص على أداء فرائض الله تعالى ، وتلبية المناسك فى المشاعر المقدسة سعيا فى طلب رضا مولاه سبحانه ، من خلال يد تدعو وأخرى فى سبيلها الدائم إلى الغزو والاستمرار فى القتال لنصرة الإسلام .

ولعل اللوحة بهذا الشكل قد صارت – أيضا – من ذلك القاسم المشترك بين أبى نواس ومروان ، إذ يبدو التوافق واردا بين كثير من ملامحها وجزئياتها ، إذا ما عرضنا فى موازاتها قول النواسى :

هارون ألفنا ائتلاف مودة
ماتت لها الأحقاد والأضغان

فى كل عام غزوة ووفادة
تنبت بين نواهما الأقران

حج وغزو مات بينهما الكرى
باليعملات شفاؤها الوخدان

يرمى بهن نياط كل تنوفة

في الله رحال بها ظعان

يصلى الهجير بغرة مهدية

لو شاء صان أديمها الأكنان

لكنه في الله مبتذل لها

إن التقى مسدد ومعان (٣٢)

فلم يظهر هارون عنده إلا وقد إمتلك القدرة على تأليف قلوب المسلمين جميعا ، مكتسبا من التاريخ الإسلامى الأبوة الحسنة على النحو الذى سجلته الآيات الكريمة فى رسول الله ﷺ « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »(٣٣) « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »(٣٤) .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك »(٣٥) .

ففى ثنائية من هذا الجهاد المقدس يعيش هارون حياته بين غزو وحج ولا ثالث لهما عنده إلا العبادات ، فهو لا يتورع عن بذل كل شيء فى سبيل الله فكان لذلك تقيا مسددا معانا من الله تعالى فى حربه وسلمه على السواء .

ولعل شعراء العصر قد شغلوا بهذا الطابع الحربى ، وأكثروا من تلوينه بتلك الملامح من الحس الإسلامى ، مما أعاد إلى الأذهان صفحات مشرقة من ذلك التاريخ الإسلامى ، يوم أن كان المدد الإلهى يأتى مساندا المسلمين فى حروبهم عن طريق ملائكة الرحمن ، فإذا بأبى العتاهية يعرض موقف ممدوحه مستوحيا هذه المعانى فى قوله :

---

(٣٢) ديوان أبى نواس . (٣٣) سورة التوبة ١٢٨ .

(٣٤) سورة النحل ١٢٥ .

(٣٤) سورة آل عمران ١٥٩ .

رحلت عن الربع المحيل قعــودى

من ذى زحـوف جمة وجنــود

وراع يراعى الليــل فى حفظ أمة

يدافع عنهــا الشر غير رقــود

بألوية جبريل يقدم أهلهــا

ورايات نصر حوله وبنــود

تجافى عن الدنيــا وأيقن أنهــا

مفارقة ليست بدار خلــود (٣٧)

فما كان من الشاعر إلا أن قرن موقف الشجاعة ولوحة البطولة بسلوك الخليفة ، ومدى تدينه وثقته فى ثواب الله تعالى ، وإدراكه حقائق فناء الدنيا ، عارضا الموقف من منطق المصير الذى شغل به نفســه فى كثير من شــعره ، مستلهما الدلالات الدينيــة التى ازدحم بها عالم الزهاد « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وزينــة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد » « وما الحياة الدنيــا إلا متاع الغرور » .

وبذلك راحت مواقف الشــعراء تتراوح بين الإيجاز والإطالة فى عرض ملامح الفضيلة الإســلامية فى الممدوحين ، وحتى مع ذلك الإيجاز لم يخف تركيز الشعراء المعانى بين ثنايا الأبيات ، فإذا بسلوك الخليفة يبدو منبثقا من واقعه الدينى ، على ذلك النحو الذى صوره مروان فى قوله :

فتى لم يدع بابا من الخير مغلقا

ولم يغش مما حرم الله محــرما

وتلقــاه من فرط الحياء كأنــه

سقيم وإن أمسى صحيحا مسلما (٣٧)

---

(٣٦) شعر أبى العتاهية ٥٢٥ .

(٣٧) الأشباه والنظائر ١/١٣١ .

فهو لا يقرب حدود الله ولا يأتي محرماته ، بل يسعى دأبا في أبواب الخير على إطلاقها ، ليرضى نفسه ورعاياه ، وهو يبدو شديد الحياء وكأنه سقيم من ذلك الخجل الذي لم يطرح في شخصه إلا كسلوك إسلامي منذ ضرب رسول الله ﷺ فيه القدوة الحسنة للمسلمين فقد كان عليه السلام (أشد حياء من العذراء في خدرها) . ومن ثم كان تصويره للمؤمن بألا يكون طعانا ولا لعانا ولا متفحشا . وقد نال الخليفة المهدي حظا وفيرا من مدائح مروان على هذا النهج . فبسط الشاعر في شخصه من فضائل الإسلام كما وفيرا طرحه على سبيل الإيجاز حينا ، وفي تفاصيل أخرى في كثير من الأحيان ، فإذا هو - أي المهدي - يبدو عادلا بين رعاياه ، ينشر بينهم صورا كثيرة من الحياة الكريمة والخير العميم ، ويبدو على وجهه سيما الصلاح وإشراقة التقوى وقد امتزجت بملامح الحق ، حتى ليبدو قليل النوم من شدة قلقه على بيضة الإسلام ، وحرصه على أمته التي راح يحميها في وقت نام فيه الخلق جميعا ، وقد أسندوا إليه أمرهم وأمنهم بينما ظل هو شديد الرأفة بهم ، وكأنه والد يرعى بنيه ، ولكنها الرأفة التي تصحبها قسوته وشدته في الحق ، حين راح يأخذ من الظالم ما ينتصف به للمظلوم مهتديا بتلك الصورة السلوكية المثالية التي رسمها رسول الله ﷺ للخليفة المسلم فكان عليه السلام « بالمؤمنين رءوف رحيم »[38] .

وكان والذين معه « أشداء على الكفار رحماء بينهم »[39] .

ثم كان عليه السلام كما زكاه ربه سبحانه وتعالى « على خلق عظيم »[40] .

ومن هنا راح الشاعر يستقي تلك السيرة العطرة في تعظيم مكانة ممدوحه من خلال سياسته لرعيته ، مما يشير به إلى أصالة

---

(٣٨) سورة التوبة ١٢٨ . (٣٩) سورة الفتح ٢٩ .
(٤٠) سورة القلم ٤ .

الإصلاح فى أعماق هـذا الممدوح ، حتى يكاد يذكرنا بما كان من سيرة الفاروق رضى الله عنه حين أمن رعاياه ، ونشر العدل ، ولم يعُد فى حاجة إلى من يحميه من حراسه ، حتى إذا نام تحت ظل شـجرة قال من رآه من الموالى مندهشـا من موقفه بالقياس إلى الأكاسرة « حكمت فعدلت فأمنت فنمت ياعمر » .

ثم يقول مروان وقد وسع دائرة التصوير لتشمل بنى العباس جميعا ومحددا بعضا منها بالخليفة المهدى :

أيادى بنى العباس بيض سـوابغ
على كل قوم بادئات عوائـد
فهم يعدلون السمك من قبة الهدى
كما يعدل البيت الحرام القواعد
سـواعد عز المسـلمين وإنمـا
ينوء بصـولات الأكف السـواعد
يزين بنى ساقى الحجيج خليفـة
على وجهه نور من الحق شـاهد
يكون غراراً نومه من حـذاره
على قبة الإسلام والخلق راقـد
كأن أمير المؤمنين محمـداً
لرأفته بالناس للناس والـد
على أنه من خالف الحق منهـم
سقته يد الموت الحتوف الرواصد (٤١)

وإذا بالشاعر لا يجد حرجا فى تكرار نفسـه من خلال تلك الصور ، وكأنه لا يتبين من شخص ممدوحه إلا تلك الجوانب المشرقة التى يريدها إسـلامه رونقا وإشراقاً ، على نحو قوله كاشفا سلوكه

---

(٤١) ديوان مروان بن أبى حفصة ٥١ .

فى مواقف سخطه ورضاه ، وتصوير تواضعه لخالقه تعالى ، وما يغلب عليه من التقوى والحفاظ على الحق ونشر العدل :

ولا هو عند السخط منه ولا الرضى
بغير التى يرضى بها الله واقع
تغض له الطرف العيون وطرفه
على غيره من خشية الله خاشع
عليه من التقوى رداء يكنه
وللحق نور بين عينيه ساطع (٤٢)

وهو ما يعود إلى تكراره مرارا على اختلاف طفيف فى ملامح الصياغة على نحو من قوله :

هو المرء أما دينه فهو مانع
صئون وأما ماله فهو باذله
أبى لما يأبى ذوو الحزم والتقى
فعول إذا ما جد بالأمر فاعله
تروك الهوى لا السخط منه ولا الرضى
لدى موطن إلا على الحق حامله (٤٣)

وهو ما يحاول عرضه جملة فى بيت واحد من أبياته قائلا :

إلى طاهر الأخلاق ما نال فى رضا
ولا غضب مالا حراما ولا دما (٤٤)

وعلى أية حال فإن ظاهرة التكرار هذه لم تكن سمة خاصة بفن مروان وحده ، بقدر ما بدت قاسما مشتركا بين شعراء العصر كله ، خاصة منهم من سعى خلف دقائق دائرة الفضيلة ، يستكمل من حولها

---

(٤٢) ديوان مروان ٨٢ . (٤٣) أمالى المرتضى ١/٥٣٣ .
(٤٤) أمالى المرتضى ١/٥٣٥ .

حواره ، فاشترك الشعراء فى المصادر التى نهلوا منها : من الآيات القرآنية ، أو السيرة النبوية الشريفة ، مما قرب بين الصور ، ودفع إلى ذلك التكرار وتشابه الصيغ .

ويبدو ما حدث فى عالم الفضيلة وقد أسهم فى طبع شعر المديح بطابع جديد ، بدا فيه التاريخ الإسلامى عنصرا أساسا من عناصر المد التصويرى ، حتى أصبح من مقومات اللوحة الفنية . ولعل لوحة بشار فى مدح الأمير محمد بن أبى العباس السفاح وقد ولاه عمه المنصور البصرة ، ما يكشف شيئا من ذلك حيث يقول :

رشدت — أمير المؤمنين — وإنما
ظفرت ووليت الأمين المسودا
ونعم أمير المصر يصبح القنا
ودودا وفى الإسلام عفا تأيدا
أبوك أبو العباس جلى بسيفه
وأنت المرجى فى قرابة أحمدا
لكم نجدة العباس فى كل موطن
ويوم حنين إذ أشاع وأشهدا
مقيم يذب المشركين بسيفه
حفاظا وقد ولى الخميس وعردا
بنى لكم العباس فى شرف العلى
وفضل ابن عباس أغار وأنجدا (٤٥)

وكأن بشارا قصد إلى ذلك التكثيف لملامح التاريخ الإسلامى بين أبياته ، إذ اشتد حرصه على توزيع تلك الملامح من خلال كل بيت فيها فإذا هو بصدد مدح أمير المؤمنين قاصدا بذلك الخليفة فى نفس الوقت الذى يتقدم فيه إلى الوالى مادحا ، حتى إذا ما دخل حدود

---

(٤٥) ديوان بشار ٣/٣٥ .

دائرة الوالى طرح عليه من الفضائل الإســـلامية ما يتمتع به من عدل وشـــجاعة ، وما يشفع لذلك عنده من أصالة النسب بحكم القرابة لرسول الله ﷺ ، إذ يتوقف عند الجانب البارز من مكانة العباس مما ترجمه سلوكه العملى يوم حنين (حين رأى رسول الله الناس قد انشغلوا بأنفسهم ، فقال : يا عباس اصرخ : يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السمرة !)[46] فأجابوا : لبيك لبيك ، وكان رجلا صيتا ، فيؤم الرجل الصوت ويقتحم على بعيره ، ويأخذ ســـيفه وترســـه ، حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا اجتمع إليه منهم طائفة اســـتقبلوا الناس فاقتتلوا ، وأشرف رسول ا ﷺ فى ركائبه فنظر إلى القوم يجتلدون فقال : الآن حمى الوطيس « ثم أخذ رسول الله حصيات فرمى بها وجوه الكفار • يقول ابن عباس فما زلت أرى أحدهم كليلا وأمرهم مدبرا »[47] •

وبهذا راح بشار يلتقط من أحداث التاريخ الإســـلامى ما قصد من خلاله إلى تأكيد شرعية الخلافة فى البيت العباسى • ولم يكن وحيدا أيضا فى هـــذا الاتجاه • إذ انتشر وشـــاع على ألســـنة الشعراء الذين عرضوا منه صورا مشرقة عرجت على ماضى الدعوة ، وقصص الرسول عليه الســـلام ، على النحو الذى صوره السيد الحميرى من منطق تشيعه وحرصـــه على تصوير مكانة على رضى الله عنه ، فراح يذكر إسلامه وتصديقه برسول الله حين كذبه الناس ، الأمر الذى يكشف حرص كل شاعر ملتزم على التوقف أمام أحداث التاريخ ووقائعه يستمد منها ما يخدم قضايا حزبه الذى يدافع عنه ، ويتبنى قضاياه ، حتى مع تقلص ذلك الحزب • فعلى غرار ما صنعه بشـــار حول يوم حنين وما كان من موقف العباس فيه ، أخذ السيد الحميرى يرسم صورة للشـــيعة ومشهدا مدحيا لعلى بن أبى طالب يقول فيـــه :

---

(٤٦) ســـيرة ابن هشام ٣/٤٤٤ ـ ٤٤٥

(٤٧) نفس المصـــدر •

من فضله أنه قد كان أول من
صلى وآمن بالرحمن إذ كفروا
سنين سبعا وأياما محرمة
مع النبى على خوف وما شعروا
ويوم قال له جبريل — قد علموا —
أنذر عشيرتك الأدنين إن بصروا
فقام يدعوهم من دون أمته
فما تخلف عنهم منهم بشر
فقال يا قوم إن الله أرسلنى
إليكم فأجيبوا الله وادكروا
فأيكم يجتبى قولى ويؤمن بى ؟
إنى نبى رسول فانبرى غدر
فقال : تبا أتدعونا لتلفتنا
عن ديننا ؟ ثم قام القوم فاشتمروا
من الذى قال منهم — وهو أحدثهم —
سنا وخيرهم فى الذكر إذ سطروا :
آمنت بالله قد أعطيت نافلة
لم يعطها أحد : جن ولا بشر
وأن ما قلته حق وأنهم
إن لم يجيبوا فقد خابوا وقد خسروا
ففاز قدما بها والله أكرمه
وكان سباق غايات إذا ابتدروا (٤٨)

فهو يذكر إسلام على رضى الله عنه فى سن الصبا فكان من أوائل من صدقوا بدعوة رسول الله ﷺ ، وقاموا على تكاليفها من إيمان وعبادات . ثم راح الشاعر يستلهم فى حواره من وحى المعانى

(٤٨) ديوان السيد الحميرى ٢٠٣ — ٢٠٥ .

القرآنية ما يزيد به قوله اعتمادا على ما نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ من أي الذكر الحكيم « وأنذر عشيرتك الأقربين »[49] .

ثم يعرض ما كان من رسول الله من الاستجابة والنهوض بالدعوة بين قومه ، وما كان منهم من التصدي له ، ومعارضته وإيقاع الأذى بالمسلمين الذى تقدمهم على ، وكان أحدثهم سنا وخيرهم ذكرا منذ صدق رسول الله ﷺ . وهو يومئذ ابن عشر سنين ، وكان فى حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام ، أخذه من أبى طالب فى أيام الضائقة وضمه إليه »[50] .

ثم يدخل من إسلامه إلى الثناء عليه فى مواقفه الدينية ، مبينا كيف أكرمه الله تعالى فكان سباق غايات على القوم جميعا .

وقد شكل الشاعر من منظور قصصى محكم تحكيه أفعال الماضى المتوالية مع صيغ الحوار التى يجريها بين رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام ، ثم بينه ﷺ وعشيرته وقومه ، ثم بين كفار مكة وبينه حين كابروا وعاندوا ورفضوا دعوته ، ثم بينه عليه السلام وبين على وقد أجابه إلى دعوته مما يجعل اللوحات الأربع أساسا واضحا لأبنية القصصية التى غلفتها الأبعاد الدينية وازدحمت بها الأبيات .

ويتقدم الزمن ، وتتطور الأحداث ، ولا يكتفى شعراء العصر بوقفة التأمل عن حدود ماضى التاريخ الإسلامى ، بل راحوا يأخذون من امتداده فى عصرهم ما عرض لهم من فتن حول الإسلام ، فراحوا يديرون من حولها الحوار ، ويعرضون جوانبها على نحو ما كان من على بن الجهم وهو بصدد مدائحه للخليفة المتوكل على الله ؛

(٤٩) سورة الشعراء ٢١٤

(٥٠) سيرة ابن هشام ٢٤٥/١

وما ركزه من فنه حول موقفه من المعتزلة ، وانتصاره لمذهب أهل السنة وتأييده لأئمة المسلمين الذين زجت بهم نهاية خلافة المأمون ثم المعتصم ثم الواثق إلى الامتحان في القول بما ذهبت إليه المعتزلة من خلق القرآن مما أوقع الناس في حيرة وفتنة ، راح ضحيتها بعض أئمة المسلمين ممن أجبروا على القول بذلك ، وحبس بعضهم إلى أن جاء المتوكل ، فطرح فيه الشاعر مذهبه من هذا الجانب الإسلامي الذي انبرى فيه لنصرة أهل السنة ، والقضاء على ذلك المذهب المبتدع الذي فرض على الفقهاء فرضيا ، وخاصة أن بعض الخلفاء قد اتخذه مذهبا رسميا للدولة . فقال علي بن الجهم مصورا الموقف بكثير من تفاصيله ، وإن كان ينتزع منه اللوحة المدحية التي أضفاها على الخليفة المتوكل مجالا لمزيد من التركيز :

قامَ وأهلُ الأرضِ في رَجْفةٍ
يخبطُ فيها المقبلُ المدبرُ
في فتنةٍ عمياءَ لانارها
تخبو ولا موقدها يفترُ
والدين قد أشفى وأنصاره
أيدي سبا موعدها المحشرُ
كلُّ حنيفٍ منهمُ مسلمٍ
للكفر فيه منظرٌ منكرُ
فأمر الله إمامَ الهدى
والله من ينصره ينصرُ
وفوّضَ الأمرَ إلى ربِّه
مستنصراً إذ ليس مستنصرُ
ونبذ الشورى إلى أهلها
لم يثنه خشيةُ ما حذروا
وقال والألسن مقبوضةٌ
ليبلغ الغائبَ من يحضرُ

إني توكلت على اللــه لا
أشــــرك بالله ولا أكفــر
لا أدعي القدرة من دونـه
باللــه حـولي وبــه أقــدر
أشـــكره إن كنت في نعمـة
منـه وإن أذنبت أسـتغفر
فليس توفيقي إلا بـــه
يعلـم ما أخفي وما أجهــر
فهـو الذي قلـدني أمـره
إن أنا أشـكر فمن يشـكر ؟
واللــه لا يعبـد سـرا ولا
مثلي على تقصـيره يعـــذر
وجـرد الحـق فأشــجي بــه
من كان عن أحكامه ينفــــر
وانفضت الأعـــداء من حـــوله
كحمر أنفرهــــا قســـور
وصــــاح إبليس بأصحـــابه
حل بنا ما لم نزل نحـــذر
مالي وللغـــر بني هاشـــم
في كل دهـر منهم منـــذر
أكلمـــا قلت : خبـــا كوكـب
منهم بدا لي كوكب يزهــر
يا أعظـم الناس على مسـلم
حقــا ويا أشرف من يفخـــر
الردة الأولى ثنـى أهلهــــا
حـزم أبي بكر ولم يكفــروا
وهــذه أنت تلافيتهـــــا
فعـــاد ما قد كاد لا يذكــر[٥١]

وبذلك توقف الشاعر طويلا عند فتنة الاعتزال ، وكيف تم القضاء عليها من قبل ممدوحه ، مصورا أبعاد الموقف نتيجة بطش الخلفاء ومن شايعهم كما كان من القاضي أحمد بن أبي دؤاد ، والوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، إذ كان الأول معتزليا له دور بارز في تحريض المأمون والمعتصم والواثق على اتخاذ فكرة خلق القرآن مذهبا رسميا للدولة ، ودفع الخليفة إلى امتحان الفقهاء بهذه الفكرة، وأخذهم بالحبس والعنت الشديد حين رفضهم إياها ، ثم صور ما حدث سنة ٢٣١ حينما أمر الواثق واليه على الثغور وخادمه بحضور الفداء بين المسلمين والروم وأمرهما بأن يمتحنا أسرى المسلمين فمن قال « القرآن مخلوق » وأن الله يرى في الآخرة فودي به وأعطى دينارا، ومن لم يقل ذلك ترك في أيدي الروم !! .

من هنا راح الشاعر يبني قصيدته على طابع تلك الفتنة التي أقضت على المسلمين مضاجعهم ، وراحت تهددهم في دينهم ، وتزعج منهم من سار في طريق الإسلام اتباعا لأهل السنة ، حتى إذا ما جاء الخليفة المتوكل أسند إليه الشاعر من حسه الديني الكثير حين جعله « إمام الهدى » وعرض سلوكه الإسلامي اشتقاقا من اسمه فكان متوكلا على ربه ومفوضا إليه أمره ، كما جعله شديد الإيمان لا يشرك بربه أحدا ، ولا يزعم لنفسه قدرة يتجاوز بها حدوده ، فهو يؤمن أن القوة لله جميعا ، ومنه يستمد قوته ، ولا حول

---

(٥١) تقع القصيدة في خمسين بيتا في ديوان الشاعر ، وإنما قام الاختيار هنا للأبيات التي تظهر فيها المؤثرات الإسلامية بوضوح .

رجفة : اضطراب . المدبر : كناية عن الضلال والاضطراب والسير على غير هدى . الفتنة : قصد بها حمل الناس على القول بخلق القرآن .

أيدي سبا : كناية عن التبديد الذي لا اجتماع بعده أي مثل قوم سبأ الذين تفرقوا في البلاد بعد السيل .

له إلا به سبحانه وتعالى ، حتى أعلن ذلك فى وقف توفيقه عليه ((وما توفيقى إلا بالله)) إيمانا منه بأن كل ما يخفيه أو يعلنه يحاسبه به الله ، ثم يعيد الكرة حول تصوير ما تقلده الخليفة من أمور المسلمين وشكره على ما وهبه الله إياه ، وما كان من جرأته فى كشف الحق وتتبع أعداء الدين ممن شاع بينهم صوت إبليس ، حتى بدا المتوكل بذلك أعظم الناس – على حد تصوير شاعره – من منطق التنقيب فى أحداث التاريخ الإسلامى عما يدعم موقفه من خلال نظائر الحدث الذى هو بصدد تصويره ووجد الشاعر ضالته فيما كان أيام أبى بكر رضى الله عنه من حروب الردة ، حيث قضى عليها بحزمه ، وأعاد المرتدين إلى الإسلام ، وكذلك كان موقف المتوكل حين أنهى عصر الاعتزال وأعاد للسنة اعتبارها ولأهلها مكانتهم .

ولم تكن قصيدة ابن الجهم هذه الوحيدة فى الميدان بل امتلأ ديوانه بصور ونماذج من الحس الإسلامى الذى لم يتوقف فيه عند زاوية بعينها ، بل راح يأخذ منه الكثير الذى يدعم به فنه ، ويزيده عمقا فى التقرير والتصوير ففى أبيات متناثرة له فى ديوانه يطرح موقفه من الاعتزال وأهله ناسبا أفكارهم إلى الضلالة والأهواء :

واسمع إلى غراء سنية
يسطع منها المسك والعنبر
موقعها من كل ذى بدعة
موقع وسم النار أو أكثر(٥٢)

وإذا هو يندد صراحة بما كان من أحمد بن أبى دؤاد وترويجه لتلك البدع :

ما هذه البدع التى سميتها
بالجهل منك العدل والتوحيدا(٥٣)

---

(٥٢) ديوان على بن الجهم ٧٦

(٥٣) نفسه ١٢٥

وكذا قوله ساخطا عليه من منظور إهماله للنص متنيا أو سندا :

كم مجلس لله قد عطلته
كي لا يحدث فيه بالإسناد[٥٤]

كما قال فى أولى قصائده فى الحبس وقد ضمهم إلى الروافض :

تضافرت الروافض والنصارى
وأهل الاعتزال على هجائى[٥٥]

فإذا ما استوقفه مدحه للخليفة المتوكل بدا شديد الإعجاب بمسلكه الدينى ، شديد الاعتداد بمذهبه السنى وأصليه من الكتاب والحديث الشريف :

وآثر آثار النبى محمد
فقال بما قال الكتاب المنزل[٥٦]

ثم قال فى رثائه من نفس المنطلق الدينى :

فيا ناصر الإسلام عزك عصبة
زنادقة قد كنت قبل أذودها[٥٧]

ولا تكاد الصورة تتوقف عند حدود هذا الجانب فى شعر ابن الجهم بقدر ما حاول أن يلتقط من المعانى الإسلامية فى جل موضوعات شعره على نحو ما كان من صورة المعتصم عنده كرجل حرب ودين معا فى قوله :

وأنت خليفة الله المعلى
على الخلفاء بالنعم العظام

---

(٥٤) ديوان ابن الجهم ١٢٨

(٥٥) نفسه ٨٤

(٥٦) نفسه ١٦٤

(٥٧) نفسه ٦٣

وليت فلم تدع للدين ثأرا
سيوفك والمثقفة الدوامى
نصبت المازيار على سحوق
وبابك والنصارى فى نظام
مناظر لا يزال عديد منها
عزيز النصر ممنوع المرام
وعمورية ابتدرت إليها
بوادر من عزيز ذى انتقام(٥٨)

فلا يكاد ينظم بيتا منها إلا ويشبعه بهذه الصيغة الدينية فيجعله خليفة الله على منطق التفويض والقداسة الذى ردده كل شعراء الخلافة ، وأفرده بين الخلفاء بكثرة ما أفاء عليه به ربه من النعم ، وقد انتقم لدينه وثأر له من خصومه فى الداخل والخارج على نحو ما كان فى حرق الأفشين وحروب بابك ثم حروب الروم وخاصة حرق عمورية فكان نصر دينيا من المولي سبحانه فيها جميعا .

وفى مزجه سياسة الخلافة بما يحيطها من قداسة الحس الدينى يقول :

أما ومحرم البلد الحرام
يمينا بين زمزم والمقام
لأنتم يا بنى العباس أولى
بميراث النبى من الأنام
تجادل سورة الأنفال عنكم
وفيها مقنع لذوى الخصام
وآثار النبى ومسندات
صوادع بالحلال والحرام(٥٩)

---

(٥٨) ديوان على بن الجهم ٩
(٥٩) نفسه ١١

مشـــيرا بذلك إلى دلالة الآية القرآنية « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شيء عليم »(٦٠) .

حيث يردد ما أذاعه العباسيون أنفسهم من حجج وبراهين تثبت أحقيتهم الشرعية فى الخلافة عن طريق تأويل الآيات الكريمة ، وهو بذلك يلتقى مع مروان بن أبى حفصة فى قوله من نفس المنطق مروجا لحقهم فى ميراث الخلافة دون الشيعة العلوية :

شـــهدت من الأنفال آخر آيـــة
بتراثهـــم فأردتـــم إبطالهـــا

وإذا بقوة الخلافة تبدو دائما رهنا بالجانب الدينى ، على النحو الذى تكرر فى قوله عن شرعية الحكم مرارا فى البيت العباسى من منطق حتمى يطوع فيه فلســفة الجبرية كفرقة دينية لموقفه السياسى :

يابنى العباس يأبى اللـــــه إلا أن تسوسـوا
لكم الملك علينـــا آخر الدهر حبيس (٦١)

وعليه جاء تصويره قوة الخلافة من منطق قوة الدين :

وشكا الدين ما شكوت من العلـ
ـة شكوى قد اجتوتها العقـول
فإذا ما سـلمت فهو سـليم
وإذا ما اعتللت فهو عليـــل
ثـــم لمـــا أقالك اللـــه للديـ
ـن وصـــحت فروعـه والأصـول
أنس البرد والقضيب وهز المـ
ـلك عطفيه واسـتبان السـبيل(٦٢)

---

(٦٠) سورة الأنفـــال ٧٥

(٦١) ديوان على بن الجهم ١٤ .

(٦٢) نفســه ٧٢ . البرد والقضيب هنا من مخلفـات النبى عليه السلام يتوارثها الخلفاء .

وكذا قوله الخليفة :

حسبك الله ناصراً إذا توكلـ
ـت على الله وهو نعم الوكيل
أنك ميثاقنـا الذى أخـذ اللـ
ـه علينا وعهده المسئول
بك نركو الصلاة والصو
م والحج ويزكو التسبيح والتهليل(٦٣)

إذ يدير الحوار فى تفاصيله حول المعجم الإسلامى بين شكرى الدين وسلامته وصحة فروعه وأصوله ، ووضوح السبل وبيانها فيه ، ونصرة الله لخليفته لتوكله عليه وإدراكه مهمته وعهده المسئول ، فهو ميثاق المسلمين مع الله وعندها يصل به إلى قمة المدح الدينى حين يعرض من خلال موقفه هذا فرائض الإسلام جميعها .

بل إن تصوير دار الخلافة لا يكاد ينفصل عند الشاعر عن هذا الجانب الدينى الذى يطرحه مثل قوله :

اختارها الله للإمام الذى
ينصف من نفسه وينتصف (٦٤)

وكذلك البركة التى صورها قوله واصفا لها :

قدرها الله للإمام وما
قدر فيها عيبا لعائبها
أهدى إليها الدنيا محاسنها
وأكمل الله حسن صاحبها (٦٥)

---

(٦٣) ديوان ابن الجهم ٢١ . (٦٤) نفسه ١٥
(٦٥) نفسه ٣٢ .

وكثيرة عنده صيغ هـذا الحوار حول شخص الخليفة من المنظور الإسلامى الذى يقترب فيه الشاعر من حس الجبرية ، توظيفا لفنه ، فى خدمة الخلافة العباسـية :

قـدر الله أن يعز بك الإسـ ـلام والأمر كله مقـدور
لم يزل فيك للذي دبر الأشـ ياء مذ كنت ناشـئاً تدبير
كان يبلوك بالرجـاء والخـو ف اختباراً وهو اللطيف الخبير
ثم ولاك ناصراً لك مولاك فنعـ ـم المولى ونعم النصير [66]

وعلى هـذا النحو وجد الحس الدينى والتاريخى سـبيله إلى نفوس الشـعراء ، فتعمقها فى ظلال إسـلامية وجدت من الشـعراء رحابة صدر وشدة حرص عليها ، على نحو ما ظهر أيضا لدى أبى العتاهية حين عرض من حسـه التاريخى بشكل عام ما لم يقصد به إلى غزوة بعينها ، ولا إلى حدث محدد ، بل طرح مواقف التاريخ على وجه التعميم ، ليكشف من خلالها بعضا مما تشى به من العظـة والاعتبار للأقوام والأمم ، وكأنه يشير إلى ضرورة تأمل تلك الأحداث وصولا إلى تعميق القصيدة فى النفوس وبث المزيد من العظة والاعتبار على نحـو قوله :

أما ورب المسـجدين كليهمـا
أما ورب منى ورب الراقصـات
أما ورب البيت ذى الأسـتا
ر والمسعى وزمزم والهدايا المشعرات
إن الذى خلقت له الدنيا وما
فيها لنازلة تجل عن الصـفات
فتجاف عن دار الغرور وعن دوا
عيهـا وكن متوقعـا للحـادث

---

(٦٦) ديوانه ٣٦ .

أين الملوك ذوو المنابر والدسا
كر والعساكر والقصور المشرفات ؟
هم بين أطباق التراب فنادهم :
أهل الديار الخاليات الخاويات !
هل فيكم من مخبر حيث استقـ
ـر قرار أرواح العظام الباليات ؟
فلقل ما لبث العوائد بعدكم
ولقل ما ذرفت عيون الباكيات
وإذا أردن ذخيرة تبقى فنا
فسن في ادخار الباقيات الصالحات
وخف القيامة ما استطعت فإنما
يوم القيامة يوم كشف المخبآت (٦٧)

وكذا قوله من منطق حكمى على نفس الدرجة من التعميم

وما تعدل الدنيا جناح بعوضة
لدى الله أو مقدار زغبة طائر
فلم يرض بالدنيا ثوابا لمؤمن
ولم يرض بالدنيا عقاباً لكافر (٦٨)

فهو يقسم قسما إسلاميا خالصاً برب المسجدين الحرام والأقصى ، متخذا من الشعائر والمناسك وسيلة يؤكد بها قسمه من منى ، والبيت ذي الأستار ، والمسعى ، وزمزم وما يقدم من هدى فى مواسم الحج ، ليقسم بذلك كله على حقيقة أكدها القرآن الكريم فى كثير من آياته حول غرور الدنيا وزخرفها وزينتها ، وكيف يغتر بها الإنسان فتصير به إلى هلاك ، مما يندفع بعده الشاعر إلى عرض تاريخى

(٦٧) شعر أبى العتاهية ٧٢ ـ ٧٣ .
(٦٨) نفسه ١٤٩ ـ ١٥٠

يتخذ فيه شواهده من الأحداث الكبار من خلال الملوك وذوى المنابر والقصور ، وكيف آلت بهم الحياة إلى القبور ، لا يسمعون مناديا ، ولا يعرفون أين المستقر وأين ينتهى بهم المطاف ، وكذلك الأحياء ممن ضلوا فى محاولة التعرف على نفس القرار ؛ لينفذ الشاعر من ذلك إلى تصوير هول المشهد ، وضرورة تقديم الصالح من الأعمال وادخار الطيب منها « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا »(٦٩) .

ثم ما توج به حديثه من تصوير لمشاهد القيامة ، وكيف تتكشف وتنتثر كل الخبايا « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون »(٧٠) .

ثم يتأكد حسه الدينى — وهو الشاعر الزاهد — من خلال رؤيته للدنيا كدار عمل بلا حساب على عكس الآخرة التى هى دار حساب بلا عمل ، سالكا بذلك سلوك المسلم الفطن الذى تنبه إلى تلك الحقيقة وعلى أساسها تشكل سلوكه فى قوله :

وما تعدل الدنيا جناح بعوضة
لدى الله أو مقدار زغبة طائر
فلم يرض بالدنيا ثوابا لمؤمن
ولم يرض بالدنيا عقابا لكافر (٧١)

وربما قربت صورة البعوضة فى ذهنه من خلال ما جاء فى المثل القرآنى (إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها)(٧٢) وعلى هذا النحو تعددت صور الأخذ ، وتنوعت درجاته فى زحام المصادر الإسلامية ، وقد التقى بعضها حول مصدر واحد محوره ذلك المعجم الدينى قرآنه وحديثه ، ومثله وأحداثه الكبار فى عصور

(٦٩) سورة مريم ٧٦ . (٧٠) سورة النور ٢٤ .
(٧١) شعر أبى العتاهية ١٤٩ — ١٥٠ .
(٧٢) سورة البقرة ٢٦ .

السلف الصالح ، أو حتى فى عصر الشاعر العباسى نفسه ، وبقيت بعد ذلك درجة الكثافة فى استخدام المادة وعرضها محورا للاختلاف بين الشعراء ، ومجالا للتنوع فى الإفادة حسب طبيعة الموضوعات التى عالجها كل منهم ، فكانت المدائح إسلامية — كما أسلفنا — وكان حماس الشاعر الملتزم إزاء قضايا حزبه على النحو الذى رأيناه فى شعر السيد الحميرى ، وما عرض من سيرة رسول الله ﷺ وتصوير مكانة على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعلى هذا النحو أيضا كان ما عرضه فى أبيات له أخرى :

وإذا وصلت بحبل آل محمد
حبل المودة منك فابلغ وازدد
بمطهر لمطهرين أبوة
نالوا العلى ومكارما لم تنفد
أهل التقى وذوى النهى وأولى العلى
والناطقين عن الحديث المسند
الصائمين القائمين القانتـ
ـين بنى الحجى والسوءدد
الراكعين الساجدين الحامديـ
ـن السابقين إلى صلاة المسجد
الفاتقين الراتقين السائريـ
ـن العابدين إلههم بتودد[73]

فلم يكن الشاعر ليستمد معانيه هنا كاملة إلا من الآيات القرآنية التى توصف تلك الصورة الدقيقة لسلوك المسلم الحق فى مثل قوله تعالى :
« الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر »[74]

---

(٧٣) ديوان السيد الحميرى ١٨٧ .
(٧٤) سورة التوبة ١١٢ .

وإذا هم بذلك ذوو الألباب ممن أثنى عليهم الله تعالى فى عديد من الآيات « وما يذكر إلا أولو الألباب »[75] .

وإذا هم المطهرون إفادة لديه من دلالة الآية الكريمة :

« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »[76] وإذا هم أهل العبادة والتقى :

«ومن يتق الله يجعل له مخرجا »[77] .

وأخيرا يعتمد على مصطلحات علوم الحديث التى عرفها العصر من الحديث الصحيح ودقة إسناده ، فيرى العلويين لا يأخذون إلا بالصحيح منها مسندا إلى رسول الله ﷺ ويتركون ما دون ذلك إثباتا منه لصدق مذهبه ويقين مبادئه .

ومع تعدد موضوعات الشعر التى استوعبت المعجم الإسلامى وأفادت منه تعددت أيضا الصور التى انهال عليها الشعراء ، رسما وعرضا . فكان منها ما يتعلق بقضية المصير وحس الغيب ، والوقوف المتأمل عند مشاهد القيامة ، خاصة لدى من كان منهم زاهدا كما عرف عن أبى العتاهية الذى شغلته من حياته أساسا قضية الموت ، فراح يد تجمع بعضا من مشاهد الآخرة أمام عينيه ، ويستحضر قبلها الجوانب الحسية المرئية فى عالم الموت مرددا صوره حول حقيقة دينية لا جدل حولها من خلال الدلالات الدينية فى قوله تعالى « ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون »[78] .

فإذا بحقائق الموت تأتى « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة »[79] .

فيقول أبو العتاهية واعظا ومحذرا :

أأخى مالك ناسيا

يوم التغابن فى الأمور ؟

---

(٧٥) سورة البقرة ٢٦٩ .

(٧٦) سورة الأحزاب ٣٣ . (٧٧) سورة الطلاق ٢ .

(٧٨) سورة المؤمنون ١٦ . (٧٩) سورة النساء ٧٨ .

أفنيت عمرك في الروا
ح إلى الملاعب والبكور
وعليك أعظم حجة
فيما تعد من الغرور
ولعل طرفك لا يعو
د وأنت تجمع للدهور
لو أن عمرك زيد غيه
جميع أعمار النسور
أو كنت من زبر الحديـ
ـد وكنت من صم الصخور
أو كنت معتصما بأعلى الريـ
ـح أو لجج البحور
لأتت عليك دوائر الد
نيا وكرات الشهور [80]

صحيح أن الاقتباسات هنا ليست مباشرة من الآيات القرآنية ، ولكن الشاعر بدا دقيق التمثل للمعاني الدينية التي عرض صورا منها في تحذيره من غرور الدنيا « فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » وفي ذكر التغابن يلتقط المشهد من سورة « التغابن » وفيما التقطه من المشاهد عودة الطرف « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك »[81] وزبر الحديد « آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا »[82] أو الاعتصام بمظاهر الطبيعة « قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم »[83] .

---

(٨٠) ديوان أبي العتاهية ١٧٠ .
(٨١) سورة النمل ٤٠ . (٨٢) سورة الكهف ٩٦ .
(٨٣) سورة هود ٤٣ .

ويظل مشهد الموت عند أبى العتاهية شديد العمق والتأثير فى نفسه ، عما درج عليه غيره من الشعراء من منطق التصوير الحسى ، وكأن كل ما أفزعهم منه محسوسات المشهد على النحو الذى استوقف أبا نواس في نفس العصر فى قوله :

فكأن أهلك قد دعوك فلم
تسمع وأنت محشرج الصدر
وكأنهم قد عطروك بما
يتزود الهلكى من العطر
وكأنهم قد قلبوك على
ظهر السرير وظلمة القبر
ياليت شعرى كيف أنت على
ظهر السرير وأنت لا تدرى !
أو ليت شعرى كيف أنت إذا
غسلت بالكافور والسدر ؟
أو ليت شعرى كيف أنت إذا
وضع الحساب صبيحة الحشر ؟[84]

حيث يبدو فيه بعيداً تماما عن ذلك العمق الدينى فى تصور مشهد الموت وتصوير أبى العتاهية ، الأمر الذى قد يرتد إلى ارتباط شاعر كأبى نواس بمحسوسات وجوده ، وبعده عن التصديق بالغيب كغيب على النحو الذى ردده مجاهرا بموقفه وشكوكه :

حياة ثم موت ثم بعث
حديث خرافة يا أم عمرو

أو فى قوله :

ما جاءنا أحد يخبر أنه
فى جنة مذ مات أو فى نار

---

(٨٤) ديوان أبى نواس ٦٠٩ .

وكلها صور تشير إلى ضعف عقيدة أبى نواس ، وعجزه عن القيام بتكاليف دينه ، ومنها الإيمان المطلق بعالم الغيب « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة »[85] .

ولذا لم يتوقف طويلا أمام تفاصيل الحساب ، وأحداث اليوم العسير على النحو الذى ردده زهاد العصر ، ممن تجاوزوا حدود غمرات الموت إلى منطق الإرشاد والنصح وإقرار الحقائق الغيبية على ذلك النحو الذى ردده قول أبى العتاهية :

مالى رأيتك راكبا لهواكا ؟
أظننت أن الله ليس يراكا ؟

مرددا بذلك قوله تعالى « وهو الذى يراك حين تقوم ، وتقلبك فى الساجدين »[86] ليجعل من هذا المدخل الدينى مفتاحا لحواره حول حتمية الموت أيضا :

انظر لنفسك فالمنية حيث ما
وجهت واقفة هناك حذاكا

ومن ثم يرتدى ثوب الناصح المرشد :

خذ من حراكك للسكون بحظه
من قبل أن لا تستطيع حراكا

مرددا بذلك معنى الآية الكريمة (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) أو من الحديث الشريف (خذ من شبابك لهرمك) ليزيد الموقف تفصيلا فى قوله :

وليوم فقرك عدة ضيعتها
والمرء أفقر ما يكون هناكا

---

(85) سورة البقرة ٣ .

(86) سورة الشعراء ٢١٩ .

مرددا المعنى القرآنى حول سلوك الكافر يوم الحساب ((ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه))[٨٧] ثم يستمر قائلا :

لتجهزن جهاز منقطع القوى
ولتشحطن عن القريب نواكا

ومن ثم يسخر ممن يطلب الخلود الذى سلبته الخليقة من لدن آدم عليه السلام يوم بعد أن طبح حين استمالته وسوسة إبليس إلى شجرة الخلد وملك لا يبلى ((قال هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى))[٨٨] ليكتب على البشر بعد ذلك مصيرهم إلى الفناء ، إلا ما ضمنه الله لهم فى الآخرة من خلود تعويضا لهم عن دناءة الدنيا :

ياليتنى . أدرى بأى وثيقة
ترجو الخلود ؟ وما خلقت لذاكا
حاولت رزقك دون دينك ملحفا
والرزق لو لم تبغه لبغاكا

مرددا أيضا من المعانى الدينية ما دار حول قضية الأرزاق من الآيات الكريمة « والله يرزق من يشاء بغير حساب »[٨٩] .

« وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت »[٩٠] ومن قوله عليه الصلاة والسلام « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتعود بطانا » .

ومن هنا تأتى انطلاقة الشاعر لكى يدعو إلى القناعة على النهج الإسلامى « لئن شكرتم لأزيدنكم » فيقول :

وأراك تلتمس الغنى لتناله
وإذا قنعت فقد بلغت غناكا

---

(٨٧) سورة الحاقة ٢٨ — ٢٩

(٨٨) سورة طه ١٢٠ .

(٨٩) سورة البقرة ٢١٣

(٩٠) سورة لقمان ٣٢ .

ليضيف إلى الصورة بعد ذلك بعداً مرئيا يعتمد عليه منطق الحياة ويترجم واقعها مما يرد به على موقف أبي نواس وأمثاله :

ترجى خلود العيش حينا وضلة
ولم نر من آبائنا من يخلد

لنا فكرة في أولينا وعبرة
بها يقتدي ذو العقل فيها ويهتدي[91]

ثم يكثر تردد مثل هذه المشاهد الغيبية بين الشعراء إزاء قضية الموت والأرزاق وغيرهما ، وإذا بشعراء الزندقة يخوضون غمار هذه المواقف الدينية — فى بعض الأحيان — مما قد يعد بالنسبة لهم موضع تذكر ولحظات تأمل ولكنها خاطفة ، وربما ارتبطت بإحساس بعضهم بطبيعة الندم حين يستعد الشاعر منهم ذاكرته الدينية التى فقدها ، والتى قد تبدو منها ملامح مطروحة — على سبيل المثال — فى مثل قول بشار :

كيف تبكى لمحبس فى طلول
من سيفضى لحبس يوم طويل ؟!

إن فى البعث والحساب لشغلا
عن وقوف برسم دار محيل[92]

مرددا بذلك مدلول الحس القرآنى « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا »[93] « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه »[94] .

---

(٩١) شعر أبى العتاهية ١٢٥ — ١٢٦ .

(٩٢) ديوان بشار ٤/١٥٢ .

(٩٣) سورة آل عمران ٣٠ .

(٩٤) سورة عبس ٣٤ .

وإذا بذلك الحس الغيبي يزداد عمقا عند بشار فيتدفق أيضا فى قوله فى أبيات له بدا فيها شديد الندم على ماضيه والتوبة عن ذنوبه :

أفنيت عمرك والذنوب تزيـــد
والكاتب المحصى عليك شهيد

كم قلت لست بعائد فى سوءة
ونذرت فيهـا ثم صرت تعـود

حتى متى لا ترعوى عن لـذة
وحسابها يوم الحساب شديد

وكأننى بك قد أتتك منيـة
لا شك أن سبيلها مورود (٩٥)

إذ يدير حواره حول الذنوب والملائكة الذين يكتبونها ويحصونها على الإنسان (عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)(٩٦) .

وإذا بالشاعر يدرك من حسه الدينى أن الحساب شديد (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)(٩٧) وأن سبيل المنية لابد مورود وكذلك جهنم (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا)(٩٨) وهى أقوال تتعارض — فى مجملها — مع لحظات المتعة التى عاشها النواسى وبشار فنسى كل منهما فى ظلالها دينه وعقيدته أو تناساه ، وآثر الحس على المعنى ، وكثيرا ما تجاهل ما أكده الإسلام من الحشر والحساب ، وما شغل به أبو العتاهية نفسه فى صوره المكررة .

---

(٩٥) ديوان بشار ١٨٠ .   (٩٦) سورة ق ١٨ .
(٩٧) سورة الحج ٢ .   (٩٨) سورة مريم ٧١ .

يكون الفتى فى نفسه متحـــرزا
فيأتيه أمر الله من حيث لا يدرى
وما هى إلا رقدة غير أنهـــا
تطول على من كان فيها إلى الحشر(٦٩)

وإن كان أبو نواس يحاول تعمق الموقف فى لحظات الندم والرجوع عن لهو المسلم ، أملا فى تصحيح مساره الذى لم يصلح إلا قليلا ، ولكنه فى خضم التأمل يذكر من مشاهد القيامة والغيب أيضا ما طرحه مثـل قوله :

ياسـائل الله فزت بالظفــر
وبالنوال الهنى لا الكـــدر
فارغب إلى الله لا إلى بشر
متنقل فى البلى وفى التغـير
وارغب إلى الله لا إلى جسـد
متنقل من صـبا إلى كبــر
مالك بالنزهات مشــــــتغلا
أفى يديك الأمان من سقر ؟(١٠٠)

فهو يبدو متأثرا بالنص القرآنى حول مصير المؤمنين الذى أعده الله تعـالى لهم (كلوا واشربوا هنيئـا بما أسـلفتم فى الأيام الخالية)(١٠١) ، (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة)(١٠٢) ، (سأصليه سـقر)(١٠٣) ، (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعـد

---

(٩٩) شعر أبى العتاهية ١٤٧ .

(١٠٠) ديوان أبى نواس ٦٣٢ ، النزهات : الطرق الصغار غير الجادة تتشعب عنها وهى فارسية معربة (ج نزهة) .

(١٠١) سورة الحاقة ٢٤ . (١٠٢) سورة يونس ٢٦ .

(١٠٣) سورة المدثر ٢٦ .

ضعف قوة)[104] ولذا يتردد عنده الحديث عن تقوى الله من منطق ذلك الإيمان الغيبى بالآجل والأرزاق المحددة فى قدر الله وعلمه :

ألا يا ابن الذين فنوا وبادوا
أما والله ما ذهبوا لتبقى
وما للنفس عندك من مقام
إذا ما استكملت أجلا ورزقا
وما أحد بزاد منك أحظى
ولا أحد بذنبك منك أشقى
ولا لك غير تقوى الله زاد
إذا جعلت إلى اللهوات ترقى[105]

فيستمد العظة والاعتبار ممن سبقوه إلى ورود حياض المنية ، فكان موتهم رمزا من رموز الفناء البشرى المطلق ، ولذا أفاد الشاعر فى حواره من الآيات القرآنية أيضا حول قضية الأرزاق والموت ، وكذا فى التوقف عند مشهد البعث وقد سئلت كل نفس عما قدمت (علمت نفس ما قدمت وأخرت)[106] ، (يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم)[107] .

ولكن صدق أبى نواس فى حسه الغيبى والدينى لم يكن واضحا فى كل أقواله أو حتى معظمها ، بل كانت مجرد لحظات ندم بدت رهنا بظروفه النفسية إثر ارتكاب المعصية ، أو ربطا بما بلغه من الشيب ، مما جعله قريبا من حس الشعراء عموما ممن عرضوا شكواهم من الشيب ، بصرف النظر عن تدينهم من عدمه ، ففى بعض أبيات له يصور أبو نواس توبته إزاء ذلك المشيب قائلا :

---

(١٠٤) سورة الروم ٥٤ .

(١٠٥) الكامل ٤/١٨٨ المحاسن والمساوىء ٣٥٥

(١٠٦) سورة الانفطار ٥

(١٠٧) سورة الشعراء ٨٨

انقضت شرتى فعفت الملاهى
إذ رمى الشيب مفرقى بالدواهى
ونهتنى النهى فملت إلى العد
ل وأشفقت من مقالة ناه
أيها الغافل المقيم على السهو
ولا عذر فى المقام لساه
لا بأعمالنا نطيق خلاصا
يوم تبدو السمات فوق الجباه
غير أنى على الإساءة والتفريـ
ـط راج لحسن عفو الله[108]

فهو يدرك ما كان من لهوه ، وحقيقة سهوه عن دينه دون عذر يبرر مسلكه مستمدا من الحس القرآنى فى صوره (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود)[109] ورجاءه لعفو الله (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء)[110] (فاعف عنا واغفر لنا وارحمنا)[111] .

ولا يظل حديث الشيب وشكواه إلا فى حدود القواسم المشتركة بينه وبين ذل الشعراء من غير الزهاد إذا تذكرنا ربطه إياه بصرف الغوانى عنه :

حتى إذا الشيب فاجانى بطلعته
أقبح بطلعة شيب غير مبخوث
عند الغوانى إذا أبصرن طلعته
آذن بالصرم من رد وتشتيت

(108) ديوان أبى نواس ٦٢١
(109) سورة الفتح ٢٩
(110) سورة الفتح ١٤٠
(111) سورة البقرة ٢٨٦

وأمام هـذا الشيب قد يبدو نادما - لا زاهدا - على ما أقدم عليـه من المعاصي :

فقد ندمت على ما كان من خطل
ومن إضـاعة مكتـوب المواقيت
أدعوك سبحانك اللهم فاعف كما
عفوت يا ذا العلى عن صاحب الحوت

فلا شك أن مشاهد الحساب بدت قاسما مشتركا بين الزاهـد والتائب من لهوه ، والنادم مؤقتا على سـوء مسلكه ، على اختلاف درجة الصـدق التى انتهى إليها شاعر الخمر عما ذهب إليه الشاعر الزاهد الذى يتردد أمام عينه ويملأ عليه كل حواسـه أينما اتجه ، على نحـو ما أكثر أبو العتاهية من عرضـه وتصويره حتى أسرف فيه فبدا شـديد الاكتئاب :

وموعد كل ذى عمل وسـعى
بما أسـدى غدا دار الثـواب
تقلدت العظـام من الخطـايا
كأنى قد أمنت من العقـاب
بأية حجـة احتـج يـوم الـ
حساب إذا دعيت إلى الحسـاب ؟
هما أمران يوضح عنهما لى
كأنى حين أنظـر فى كتابى
فإما أن أخلـد فى نعيـم
وإما أن أخلد فى عـذاب(١١٢)

مرددا من آيات القرآن الكريم ما ازدحمت به من مشاهد الخلود للمتقين فى جنة عرضها السموات والأرض ، أو مشـاهد الخلود للكفار والمنافقين فى عمق جهنم والدرك الأسفل من النار .

(١١٢) شعر أبى العتاهية ٣٣ - ٣٤

ولعله يردد من صدى هـذه المشاهد :

(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم) •

(يقول هاؤم اقرءوا كتابيه) •

(فمنهم شقى وسعيد) •

وكثيرة هي ملامح الحس الدينى الغيبى عند أبى العتاهية — بحكم زهده — حتى أصبحت قضيته الأولى سلوكا وفكرا وفلسفة حياة ، وكأنه عمد فيها إلى الآيات القرآنية عمدا حتى أصبحت المصدر الوحيد لصوره ، خاصة فى وقفته الطويلة عند مشاهد القيامة :

لله يوم تقشعر جلودهم
وتشيب منه ذوائب الأطفال

إذ يحاول الاقتراب من مشهد ذلك اليوم الذى (يجعل الولدان شيبا) ليراه بعد ذلك :

يوم ينادى فيه كل مضلل
بمقطعات النار والأغلال

مستوحيا معانى الآيات (يوم ندعو كل أناس بإمامهم)[113] •

(إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب)[114] •
وهنا المصير :

للمتقين هناك نزل كرامة
علت الوجوه بنضرة وجمال

(وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة)[115] •

---

(١١٣) سورة الإسراء ٧١ (١١٤) سورة البقرة ١٦٦
(١١٥) سورة القيامة ٢٣

(وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما)[116] .

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا)[117] .

وإذا هؤلاء :

نزولا باكرم سيد فأظلهم
فى دار ملك جلالة وظلال

(لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا)[118] .
(رضى الله عنهم ورضوا عنه) .

وإذا هو متأثر بحديث رسول الله ﷺ (حول السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله .. إلى آخر الحديث الشريف ..) .

وبذا بدا القصص الدينى معينا ثرا لا ينضب حين يغيث الشعراء بكل ما قصدوا إلى تصويره وتأكيده أو تعزيزه ، فقد أخذ أبو العتاهية كثيرا من هذا القصص شواهد على ما يذكره حول الموت من قبيل تأكيد الموقف من خلال ما وقع للأمم الغابرة التى بادت ولم يبق منها إلا خبرها فى القصص القرآنى على نحو ما سجله قوله العام :

سل الأيام عن أمم تقضت
ستخبرك المعالم والرسوم[119]

ثم ما ذهب إليه يقينا من منطق هذا القصص القرآنى حين يذكر ما أصاب « جديس » و « طسم » و « إرم » فى قوله :

ألم تر أن أقسام المنايا
توزع بيننا قسما فقسما

---

(116) سورة طه 111 (117) سورة الكهف 107

(118) سورة النساء 57

(119) شعر أبى العتاهية 355

سـيفنينا الذى أفنى جديسـا
وأفنى قلبها إرما وطسـما[130]

وهو حين يتخذ العبرة من تاريخ أمم فانية قد يطيل الصورة ، ويزيد من عرض التفاصيل والمشاهد الجزئية الدقيقة فيها . وربما بدا أقرب إلى التقرير منه إلى التصوير بحكم المادة المتناولة وأسلوب معالجتها ، فمع عمومية الأداء لا يتوانى عن الإكثار من توجيه النصح والإرشـاد ، وتكرار الدعوة إلى التأمل فى كل ما يقول ، على نحو ما عرضـه من تأملات دعا الناس إلى الاستغراق فيها معـه قائلا :

من أحس لى أهل القبور ومن رأى
من أحسهم لى بين أطبـاق الثرى

لينفذ من هـذا الموقف الكئيب القاتم إلى الاستشهاد بالمـاضى على وجه التعميم وربما من قبيل التعزى وتسلية النفس بهذه الأخبار :

ولقد مضى القرن الذين عهدتم
لسـبيلهم واتلحقن بمـن مضى
ولكم أباد الدهر من متحصن
فى رأس أرعن شاهق صعب الذرى
أين الألى بنوا الحصون وجنـدوا
فيها الجنود تعززا .. أين الألى ؟
أين الحماة الصابرون حميـة
يوم الهياج لحر مجتلب القنـا
أفناهم ملك الملوك فأصبحوا
ما منهم أحد يحس ولا يرى[121]

---

(١٢٠) شعر أبى العتاهية ٣٥٨

(١٢١) نفسـه ١٣ ــ ١٦

حتى إذا ما وصل إلى مالك الملك عرج على المعجم الإسلامي تعريجا خاصا ليعرض منه بعضا من الصفات الإلهية وسمات الرسالة المحمدية :

وهو الخفى الظاهر الملك الذى
هو لم يزل ملكا على العرش استوى

أخذا من المعانى القرآنية (هو الله الملك القدوس السلام) (هو الظاهر والباطن) .

(الرحمن على العرش استوى)[122] .

وهردفا ذلك بحديثه عن بعثة النبى عليه السلام وكيف صلى عليه ربه وملائكته ، وجاء برسالة الهدى :

وهو الذى بعث النبى محمدا
صلى الإله على النبى المصطفى

مرددا بذلك معنى قوله تعالى :

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) وكذا دلالة الآية الكريمة :

(إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) .

ثم يعرض سمات الرسالة على طريق الخير والهداية :

وهو الذى أنجى وأنقذنا بـه
ـ بعد الضلال ـ من الضلال إلى الهدى .

متأثرا بقوله تعالى : (ليخرجكم من الظلمات إلى النور)[123].

(١٢٢) سورة طه ٥
(١٢٣) سورة البقرة ٢٥٧

ولا يكاد أبو العتاهية يقترب من ختام قصيدته حتى يعاوده حزن عميق ولكنه يدعو دعاء إسلاميا للموتى ممن عرفهم مؤكدا – ثانية – حتمية الموت على كل البشر كل حسب ما قدر له وييسر من العمر :

كم من أخ لى قد وقفت بقبره

فدعوته : لله درك من فتى !

ألأخى لم يقك المنية إذ أتت

ما كان أطعمك الطبيب وما سقى

ألأخى لم تغن التمائم عنك ما

قد كنت أحذره عليك ولا الرقى

مرددا بذلك صورا متشابهة جعلها موضع اعتبار ، وموطن عظة أيضا :

فقبلك داوى الطبيب المريض

فعاش المريض ومات الطبيب

وكان طبيعيا أن يجره حديثه حول المصير وقضية الموت إلى التوقف طويلا عند الرثاء ، باعتباره صورة من نفس المستوى البكائى الحزين ، وفى دائرته اتسع المجال أمام الشاعر ليعكس من حسه الإسلامى ومعجمه كثيرا من الملامح والجزئيات ، وشاع الموقف لدى من الشعراء ممن خاضوا فى رثائياتهم كثيرا من قضايا المصير خارج دائرة الزهاد ، وبعد أبى العتاهية ، على نحو ما ظهر عند أبى تمام حين يطرح صورا إسلامية رائعة يخلعها على القائد المشهور محمد بن حميد الطوسى الذى وجهه المعتصم بالله إلى قتال

الخرمية[١٢٤] ففى رثائه يعرض أبو تمام الموقف الدينى بشكل عام حين يجعله مجاهدا فى سـبيل الله :

ألا فى سبيل الله من عطلت له
فجاج سـبيل الله وانثغر الثغر

وإذا هو بصدد تصوير البطل وهو يواجه صفوف الأعداء فلا يعرف تخاذلا ولا إدبارا ، بل يتقدم إلى الموت طامعا فيما بعده من جنـة الشـهداء :

فأثبت فى مستنقع الموت رجله
وقال لها : من تحت اخمصك الحشر

ولذا أفاض الشاعر فى عرض تلك الجوانب الإسلامية للموقف جملة فإذا بالأجر يشخصه أكفـانا له ، وإذا به يتخيل ثيابه تبشر بجنة تنتظره :

تردى ثيـاب الموت حمرا فما أتـى
لها الليل إلا وهى من سندس خضر

(عاليهم ثياب سـندس خضر واستبرق)[١٢٥] .

وإذا هو يجمل فى ضـورته التى مات عليها مسلما نقيا طاهر الأثواب ، لتنتظره روضة من رياض الجنة تتمنى احتواء جسـده الطـاهر :

---

(١٢٤) كان الخرمية قد تضخم أمرهم وخطرهم حين تزعمهم بابك الخرمى الذى ادعى أنه إله وتحصن من المسلمين وامتنع عن الخلافة الإسـلامية عشرين عاما ، فوجه المعتصم إليه الطوسى لمـا عرف من شـجاعته وصبره ، فتحايل عليـه الخرمية وكمنوا له بين الصخور بجيش ضخم أنتقض عليه حين اقترب منهم فتشرذ فى جنبات الأرض جيشـه وأبت نفسـه عليه الفرار فظل وحيـدا حتى خر صريعـا .

(١٢٥) سورة الإنسـان ٢١

مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة
غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر

ولم يتوقف الحس الغيبى بأبى تمام عند دائرة الرثاء هـذه بل ازدادت الصورة وضوحا وعمقا لديه حين عرج على عالم الغيب جاعلا منه موضوعا لطرح قضايا الرزق ، والحساب ، والنشور ، على النحو الذى يبرزه قوله :

ورزقك لا يعـدوك إلا معجـل
على حاله يوما وإما مؤخـر
ولا حـول محتال ولا وجه مذهب
ولا قـدر يزجيه إلا المقـدر
لقد قدر الأرزاق من ليس عادلا
عن العدل بين الناس فيما يقدر
فلا تأمن الدنيا إذا هى أقبلت
عليك فما زالت تخـون وتدبر
تطهر وألحق ذنبك اليوم توبة
لعلك منه - إن تطهرت - تطهر
تذكر وفكر الذى أنت صائر
إليه غـدا إن كنت ممن يفكر
فلابد يوما أن تصـير لحفـرة
بأبنائها تطوى إلى يوم ينشر(١٢٦)

فهو يردد صوره حول القدر المقدور ، وحول المقدر سبحانه : وكيف يصنف الناس فى توزيع الأرزاق بين الافاضـة والتقتير والتوسط (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) .

(قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشـاء وتنزع الملك ممن

---

(١٢٦) ديوان أبى تمام ٤/٥٩٤

تشـــاء وتعز من تشـــاء وتذل من تشـــاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) .

ولذا ينفر الشـــاعر من الاستسلام للدنيـــا ، أو الركون إلى زخرفها ويدعو إلى ضرورة التفكر في المصير ، والانشـــغال بما بعد الموت من النشـــور والحساب والثواب والعقاب .

وتأتي التوبة مجالا يكثر حوله حديث شعراء العصر كرد فعل لما أصاب الحياة العباسية من آثام وفساد أخلاقي ، وتحلل من القيم الإجتماعية والدينية ، مما دفع فريقا من الشعراء إلى إعلان توبته ورجوعه عن الإنزلاق في مدارج اللهو الحضاري ، ومن ثم ظهر على الجانب الآخر من الحياة تيار من الزهد الإسلامي روج له فريق آخر من شـــعراء العصر غير أبي العتاهية .

على أننا لا ينبغي أن نحسن الظن — في كل الأحوال — حول كل ما قيل في توبة بعض الشعراء ، خاصة منهم من أسرف على نفسه في ارتكاب المعاصي كأبي نواس الذي ما عرف سبيلا إلا إلى تحقيق متعه ضاربا صفحا عن التمسك بأي من القيم أو التقاليد ، فإذا به يجاهر بالمعصية ، ويرفع لواء التحلل الأخلاقي ، ويشكك شباب عصره في القيم الدينية ، ويتزعم عصابة السـوء التي جعلها محورا لفخره وزعامته ، ولكنه في لحظات من المراجعة النفســية وحالات الصحوة من سكره وعربدته — ويبدو أنها كانت قليلة في حياته — بدا نادما على ما كان منه ، ومن هنا يتحتم ســوء الظن بسلوك أبي نواس الذي لم يحســن زهده ، ومن ثم يصعب ضـــمه إلى فريق الزهاد ليبقى فقط نادما في لحظات المراجعة تلك ، على نحـو ما رصـــده شعره من مثل قوله :

ما حجتي فيما أتيت ؟ وما
قولي لربي ؟ بل وما عـــذري ..

أن لا أكون قصدت رشدى أو

أقبلت ما استدبرت من أمرى

يا سوأتا مما اكتسبت ويا

أسفى على ما فات من عمرى[127]

فمثل هذا النغم الحزين يصدر عن الشاعر فى لحظات المشيب التى يبكى من جرائها بصرف النظر عن إسلامة من عدمه ، فكثيرة هى أحاديث الشعراء منذ الجاهلية حول شكوى الشيب وشكوى الزمن الأمر الذى لا يسجل أيا من صور التميز لأبى نواس ، ولا هو يكشف عن شىء من صدقه فى تلك التوبة المتصنعة التى يغلب عليها طابع الافتعال فى فترة متأخرة من حياة الشاعر ، لم يتورع بعدها من ممارسة لذته كما شاء له الهوى وكأنه يستوحى بذلك من النص القرآنى مشهد الكفر يوم يلقى ربه فيبدو نادما آملا أن يعود إلى الدنيا (قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت) أو قول الكافر يوم البعث أيضا (يا ليتنى كنت ترابا) .

من هنا نستطيع الزعم بأن توبة أبى نواس قد افتقدت عنصر الصدق ، فبدت مجرد امتداد لتحسر شعراء الجاهلية على ماضى حياتهم ، مع تعديل خفيف فيما ذهبوا إليه بحكم العصر وانتشار المعجم الإسلامى فيه كجدول من جداول ثقافة الشعراء . ولكن الذى لا يخفى أن أبا نواس قد اقتبس من هذا المعجم الإسلامى كثيرا من ألفاظه وصوره بصرف النظر عن صدقه فى توبته من عدمها ، ذلك أن الحقيقة المؤكدة أنه استوحى منه الكثير على النحو الذى يستعرض فيه ما ينتظره من عذاب فى يوم لا يجد فيه الناس (ملجأ من الله إلا إليه) .

---

(١٢٧) ديوان أبى نواس ٦١٠

فيقول :

أيــا من ليس منــه من مجـير
بعفوك من عــذابك أستجير
أنا العبــد المقــر بكــل ذنب
وأنت السيــد المولى الغفــور
فإن عذبتنى فبســوء فعلى
وإن تغفر فأنت به جدير
أفــر إليك منــك وأين إلا
إليك يفــر منــه المسـتجير[128]

مرددا بذلك صدى الآيات القرآنية (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)[129] وإن كان أبو نواس يتمادى فى حديثه عن العفو الإلهى ، متخذا منه مشجبا يعلق عليه ما يشاء من ذنوب وآثام ، ولعله أخذ فى ذلك بما انتقاه من فلسفة الإرجاء أو العفوية ، التى أسهمت فى انتشار الفساد فى العصر ، وتعليق المعاصى على العفو الإلهى استنادا إلى ما تثيره المرجئة من تأويل للآية الكريمة (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فراح الشعراء يستغلون الموقف لينشروا بين الشباب ما يبيح لهم التحلل من التكاليف الدينية ، والانصراف عن الفضيلة خاصة منهم من بدا رقيق الإســلام واهى العقيدة سقيم الوجدان الدينى ، فراح يعلق منكر أفعاله على تلك الفلسفة ، محاولا ـ إذا تاب مؤقتا ـ أن يصبغ على توبته طابعا دينيا على نحو قول أبى نواس أيضا :

يارب إن عظمت ذنوبــى كثرة
فلقد علمت بأن عفوك أعظــم

(128) ديوان أبى نواس 610

(129) سورة المــائدة 118

إن كان لا يرجوك إلا محسن

فبمن يلوذ ويستجير المجـــرم

أدعوك رب كما أمرت تضرعـا

فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم

مالى إليك وسيلة إلا الرجـــا

وجميل عفوك ثم أنى مسلم[130]

فهو يستوحى معانيه من دلالات الآيات القرآنية (ضل من تدعون إلا إياه)[131] .

(وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) .

(وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات)[132] .

(ادعو ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين)[133] .

وهو الدعاء الذى أخذ به فى كثير من مواقفه التى اعتذر فيها عن قبح مسلكه وتحسره على ماضيه :

لهف نفسى على ليال وأيـــام

تمليتهن لعبـــا ولهـــــوا

قد أسأنا كل الاسـاءة فاللــ

ـهم صفحا عنا وغفرا وعفوا[134]

وتتراوح لوحات التوبة عند أبى نواس بين هـذه المواقف التى يوثر فيها الإيجاز والتركيز ، بين ما عمد فيه إلى الإطالة وطرح

---

(130) ديوان أبى نواس ٦١٨

(131) سورة الإسراء ٦٧

(132) سورة الشورى ٢٥ .

(133) سورة الأعراف ٥٥ .

(134) ديوان أبى نواس ٥٨٠ .

التفاصيل التي تكشف عن طابع الحزن النفسي ، وعمق الآلام التي يحسها في داخله ، فلا يتوانى في عرض ملامحها كما في قوله :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل
خلوت ولكن قـل علي رقيب
ولا تحسـبن الله يغفل سـاعة
ولا أن ما يخفى عليه يغيب
لهونا — لعمر الله — حتى تتابعت
ذنـوب على آثارهن ذنـوب
فياليت أن الله يغفـر ما مضي
ويأذن في توباتنا فنتـوب
أقول إذا ضاقت علي مذاهبـي
وحلت بقلبي للهمـوم نـدوب
لطول جنايتي وعظم خطيئتـي
هلكت ومالي في المتـاب نصيب
ويذكرني عفو الكـريم عن الورى
فأحيى •• وأرجو عفوه فأنيب
فأخضع في قولي وأغضب بسـائلا
عسى كاشف البلوى علي يتوب [١٣٥]

فهو يرتدي ثوب المسلم الحق حين يرجع عن خطيئته مدركا أن عليه رقيبا يسـجل عليه دقائق أعماله (ما يلفظ من قول إلا عليه رقيب عتيد) • ومرددا أيضا من معاني الآيات الكريمة (لا تأخذه سـنة ولا نوم) (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السـماء (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو)[١٣٦] •

---

(١٣٥) ديوان أبي نواس ٦١٠ •

(١٣٦) سورة الأنعام ٥٩ •

(وهو الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات)[137] .
(وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب)[138] .
ومن هنا بدا تشبث أبي نواس بالمعجم الإسـلامي رهنا بما كان من جرائمه وعبثه الديني طيلة حياته ، فهو الذي ردد من منطق الانصراف عن الدين ومن باب السخرية والتهكم :

بكرت على تلومني فأجبتهـا
إني لأعرف مذهب الأبـرار
فدعي الملام فقد أطعت غوايتي
وصرفت معرفتي إلى الإنكـار
ورأيت إتياني اللذاذة والهـوى
وتعجلي من طيب هذي الـدار
أحرى وأحزم من تنظر عاجـل
علمي به رجم من الأخبـار
ما جاءنا أحـد يخبر أنـه
في جنة مذ مات أو في نار[139]

وهو الذي أعاد إلى أذهان شباب العصر حس الجاهلية على حساب الحس الديني :

ياناظراً في الدين ما الأمـر
لا قـدر صـح ولا جبـر
ما صح عندي من جميـع الذي
تذكـر إلا الموت والقبـر[140]

وتفاخر طويلا بزعامته عصابه السوء :

عصابة سـوء لا ترى الدهر مثلهم
وإن كنت منهم لا بريئا ولا صفرا

---

(137) سورة الشورى ٢٥ . (138) سورة الزمر ٥٤ .
(139) ديوان أبي نواس ١٣٩
(140) ديوان أبي نواس ١٤٠

تفاخره بآثامه :

ولقـــد نهزت مع الغواة بدلوهم
وأســـمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشـــبابه
فإذا عصـــارة كل ذاك أثـــام

فهذا هو الســـلوك الطبيعى لأبى نواس ومن خلاله ينبغى أن يصـــدر الحكم عليه ، أما عن تشبثه بالمعجم الإســـلامى فى لحظات الندم فقد بدا استثناء لا قاعدة ، وإن بدا فيه أحيانا آملا فى الهداية ، إلا أنها لم تتحقق له في كل الأحوال :

حتى متى يا نفس تغترين بالأمل الكـــذوب ؟
يانفس توبى قبل أن لا تستطيعى أن تتوبى
واســـتغفرى لذنوبك الرحمن غفـــار الذنوب
إن الحوادث كالرياح عليـــك دائمة الهبـــوب
والموت شرع واحد والخلق مختلفو الضروب
والسعي في طلب التقى من خير مكسبة الكسوب

إذ يبدو شديد التحسر على سلوكه وممارسات واقعه ، مما يخلق منه حكيما يطرح القضايا فى هـــذا الشكل العـــام الذى يرى فيه الحوادث كالرياح والموت شرع واحد ، والسعى فى طلب التقى هو الخير كله ، وكأن الشـــاعر يدين بذلك نفسه ، ويدين ماضيه وحاضره من خلال تلك الحكم التى رصدها فى أخريات حياته بعد أن عجز عن مواصـــلة لهوه ومجونه ، ومن ثم جاءت كثرة حديثه عن هـــذا الجـــانب من منطق الشيب والشـــيخوخة والعجـــز عن اســـتمرار متع الشـــباب :

أيـــة نـــار قـــدح القـــادح
وأى جـــد بلـــغ المـــازح ؟
للـــه در الشـــيب من واعظ
وناصـــح لو ســـمع الناصـــح

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى
ومنهج الحق له واضح

فاسم بعينيك إلى نسوة
مهورهن العمل الصالح

لا يجتلي الحوراء من خدرها
إلا امرؤ ميزانه راجح

من اتقى الله فذاك الذي
سيق إليه المتجر الرابح

شمر فما في الدين أغلوطة
ورح لمبيا أنت له رائح (١٤١)

فهو يبدو قريبا من التقوى ، داعيا إليها استجابة منه لصوت الشيب وما فيه من وعظ وإرشاد ونصح ، كشف له عن أباطيل ماضيه وضلاله ، على الرغم من وضوح الحق ظاهرا أمام عينيه مشيرا بأبياته إلى ما قد أفاده أيضا من معاني الآيات القرآنية (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

وما أشار إليه من حور العين من نساء الجنة (وحور عين) ، وكيف كانت مهورهن من صالح الأعمال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) ، (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) ثم ينهي الموقف بعرض ما في الدين من حقائق ، ونفى أية أغلوطة عنه كاشفا بذلك عن فساد رأيه في وقائع ماضية كلها يوم أن جعل حجه إلى غمي وبنا وقطربل حيث حانات الخمر :

(١٤١) ديوان أبي نواس ٦١٨ .

جعلت الحج فى غمى وبقا وقفى فطربله أبداً رباطى
فقل للخمس آخر ملتقانا إذا ما كان ذاك على الصراط

ويومها نهى عن أداء فريضة الله فى البيت الحرام :

لا تأتين بلاد مكة محرماً ولو أن مكة عند باب الدار

ليجعل وصيته الأخيرة أن يدفن في قطربل بين الحانات والمعاصر :

خليلى بالله لا تحفرا لى القبر إلا بقطربل
خلال المعاصر بين الكروم ولا تدنيانى من السنبل
لعلى أسمع فى حفرتى إذا عصرت ضجة الأرجل

وقياسا على لوحات الندم عند أبي نواس ، انتشرت التوبة بين كثير من شعراء العصر سواء منهم — في ذلك — من امتلك رصيدا من سيئات الماضي على نهج أبي نواس ونظرائه ، أو من كان منهم أكثر صدقا فى توبته ، فعرضها مشوبة بمنطق الخوف والحذر ، حين يستجمع فى ذاكرته مشاهد القيامة والبعث والحساب ، على نحو ما ردده قول أبي تمام :

ألم يأن تركى لا علىّ ولا ليا
وعزمى على ما فيه إصلاح حاليا

أصوات بالدنيا وليست تجيبنى
أحاول أن أبقى وكيف بقائيا

وما تبرح الأيام تحذف مدتى
بعدّ حساب لا كعدّ حسابيا

لتمحو آثاري وتخلق جدتي
وتخلى من ربعى بكره مكانيا

كما فعلت قبلى بطسم وجرهم
وآل ثمود بعد عاد بن عاديا

أليس الليالى غاضباتى بمهجتى
كما غضبت قبلى القرون الخواليا ؟

ومسكنني لحدا لدى حفرة بها
يطول إلى أخرى الليالي ثوائيا ؟

كما أسكنت ساما ونحاما ويافثا
ونوحا ومن أضحى بمكة ثاويا

فياليتني من بعد موتي ومبعثي
أكون رفاتا لا علي ولا ليا

أخاف إلهي ثم أرجو نواله
ولكن خوفي قاهر لرجائيا

ولولا رجائي واتكالي على الذي
توحد لي بالصنع كهلا وناشيا

لما ساغ لي عذب من الماء بارد
ولا طاب لي عيش ولازلت باكيا

على إثر ما قد كان مني صبابة
ليالي فيها كنت الله عاصيا

فإني جدير أن أخاف وأتقي
وإن كنت لم أشرك بذي العرش ثانيا

وأدخر التقوى بمجهود طاقتي
وأركب في رشدي خلاف هوائيا (١٤٢)

فإذا هو يفقد الأمل في الخلود إيمانا منه بما نزلت به العقيدة ، ويؤكد فناءه من خلال اعتبارات يدعمها القصص القرآني حول مصائر الأقوام التي مضت وبادت ، وحل بها الفناء ، مهما طال أمد العصيان ،

---

(١٤٢) ديوان أبي تمام ٤/٦٠٠ — ٦٠٢ سام وحام ويافث : أبناء نوح عليه السلام • غاد : شعب سكن الأحقاف وأهلكه الله بريح صرصر لبغيه • ثمود : شعب عربي قديم • جرهم : حي من اليمن كان على عهد إسماعيل عليه السلام • طسم : قبيلة من العمالقة أبادها الله كانت تسكن اليمامة •

ومن ذلك ما كان من شأن طسم وجرهم وثمود وعاد في القرون الخالية ، ولذلك راح الشاعر يطرح أمنيته في أن يكون ترابا بعد موته ومبعثه (ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) وهو يعيش بذلك قلقا ممزقا مضطربا بين الخوف والرجاء ، ولكن خوفه يكاد يتجاوز رجاءه ، ولذا يطرح مع خوفه ورجائه توكله على الله ، وتوبته عن ليال مضت كان فيها عاصيا ، وبدا الآن خاشعا ، يخشى ربه ويخافه ، ويتقي عذابه وغضبه وعقابه ، مؤكدا أنه لم يشرك به أحدا ولم تسول له بشيء من ذلك نفسه ، (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا)(١٤٣) •

ثم راح يعرض ما ادخره من التقوى جهد طاقته ، آخذا من الرشد سبيله ، ومحاولا أن يقضي به على أهوائه (لعلهم يرشدون) •

وبذا يبدو طابع الصدق واضحا في أبيات أبي تمام ، وربما ازداد توكيدا إذا ضممنا إليه ما أشارت إليه سيرته وأخباره من سلوك طيب يحمد له ، فلم يتطرف على نحو ما رأينا في النهج النواسي ولم يكن زنديقا ولا ملحدا كما انتشر في عالم المجان والزنادقة ، بل كان على عكس أبي نواس الذي لم يجد في زندقته سوى ضرب من الظرف الاجتماعي وخفة الظل على حساب عقيدته حين قال :

تزندق معلنا ليقول قوم إذا ذكروه زنديق ظريف

وبذا تظل الفروق الفردية بين الشاعرين سلوكا وشعرا بمثابة إضاءة تكشف الخيوط الدقيقة في المفارقات السلوكية بينهما حول عالم التوبة من أبواب الزهاد •

ويدير كثير من شعراء العصر حواره حول المبادىء الإيمانية التي تتعلق بالتوحيد ، وتنزيه الله سبحانه وتعالى ، وكأنما راح

---

(١٤٣) سورة النساء ٣٦ •

الشعراء يستعيدون سيرة أسلافهم في عصر صدر الإسلام ، ممن تبنوا تلك القضايا ، وحاولوا ترسيخها استكمالا لأصول الجهاد الديني ، والدفاع عن الإسلام ضد مدرسة المشركين من شعراء مكة ، وحماة وثنيتها .

ولعل مظاهر الفساد التي شاعت بين شباب المجتمع العباسي كانت من الدوافع الرئيسة لتلك المحاولة الاحيائية لنشر مبادئ دينية تتصدى لتيار الزندقة والمجون عند من خرجوا على مبادىء الدين وقيمه ، ولكننا — مع هـذا — لا نستطيع الزعم بأن هـذا هو الدافع الوحيد في ميدان الفن الشعري ، إذ نجد لتلك المبادىء أصداء كثيرة عند كل شعراء العصر حتى الزنادقة منهم ، مما يدل على أن طرحها إنما جاء كرد فعل — بالدرجة الأولى — لتأثير المعجم الإسلامي كتراث رسخ في ذاكرة كل الشعراء ، فصار قاسما مشتركا بين الواعظ منهم والماجن ، الأمر الذي انعكس — بالطبع — في صور من الصدق لدى الزهاد والوعاظ ، وكثير من أساليب النفاق الديني لدى الزنادقة والمجان والمخمورين .

ومع بشار وأبي نواس تتكشف لنا بعض أبعاد هذه الحقيقة التي لم تصدر عن إيمان ويقين كاملين ، بقدر ما انعكست من منطلق الاضطهاد والكره من قبل الشاعر لأن يكون مولى للعرب ، مما دفعه إلى تلك الصياغة التي تبدو مليئة بالمغالطات على نحو ما كان عليه بشار حين سجل ولاءه لذي الجلال وقارن بينه وبين ولائه لتميم أو غيرها ، وليس ثمة وجه للمقارنة إلا القصد إلى السخرية إذ عرض الصورة على النحو الذي قال فيه أبياته المشهورة :

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم
مولى العريب فخذ بفضلك وافخر
مولاك أكرم من تميم كلها
أهل الفعال ومن قريش المشعر

فارجع إلى مولاك غير مدافع
سبحان مولاك الأجل الأكبر [(١٤٤)]

فلو كانت ولاية بشار لله حقا لما تزندق وأعلن أنه على دين كسرى ، ولما شكك في أصل الخليقة وردد منطق إبليس حول تفضيله على آدم وكاد يقدس النار على لغة عبادها من المجوس من بني جنسه .

وتثور قضية الوحدانية على لسان أبي نواس من منطق التأمل العقلي الذي دعا إليه القرآن الكريم ، حيث حض على الإكثار منه وصولا إلى المزيد من معرفة الله سبحانه وتعالى والإيمان به ، وتأكيد توحيده ، فيقول أبو نواس :

تأمل في رياض الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات
بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك [(١٤٥)]

وإن كان يظهر جليا أن أبا نواس إنما أخذ مادة تأمله من واقع حضارة العصر مركزا على الجانب المادي منها حول « الرياض » ، « عيون اللجين » و « الذهب السبيك » و « قضب الزبرجد » ، فحاول تطويعها لخدمة القضية الإيمانية التي تأثر فيها بالمعجم الإسلامي على معنى قوله تعالى « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم » [(١٤٦)] .

---

(١٤٤) ديوان بشار ٤/٦٤ (١٤٥) ديوان أبي نواس ٢٧٠
(١٤٦) سورة محمد ١٠

« الذين يتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هـذا باطلا سبحانك »[147] .

وتتردد هـذه المعانى الإسـلامية فى بيئة المتزندقة فى فترات التوبة والندم التى مرت فى حياة بعض منهم ، وإذا أحاديثهم تأخذ منحى حكميا يتخذ من ذلك الحس الإسلامى سندا فى تأكيد المعنى وتعميمه على نحو ما سـجله بشار فى قوله :

خليلى إن العسر سوف يفيـق
وإن يسـارا فى غـد لخليـق

خليلى إن المـال ليس بنـافع
إذا لم ينل منه أخ وصـديق

وما خاب بين الله والناس عامل
ولكن أخلاق الرجال تضـيق[148]

فإذا هو يردد حكمه اسـتنادا إلى المعانى القرآنية التى انتشرت فى كثير من الآيات القرآنية الكريمة « ان مع العسر يسرا » .

« يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

« وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم »[149] .

« وما كان عطاء ربك محظورا »[150] .

مع ما أكمل به الشـاعر لوحته من معان بدت لها قيمتها الخاصة ودورها البارز فى رقى الحياة الإنسانية .

---

(١٤٧) سورة آل عمران ١٣١ .
(١٤٨) ديوان بشار ٤/١١٤ .
(١٤٩) سورة الأنفال ٦٠
(١٥٠) سورة الاسراء ٢٠ .

وعلى نفس النهج الحكمى سار النواسى فيما عرضه من موقفه من الكبرياء والغرور ، فراح يدعو إلى التواضع من منطق تقوى الله تعالى قائلا :

حذرتك الكبر لا يعلقك ميسمه
فإنه ملبس نازعته الله

إنى لأمقت نفسى عند نخوتها
فكيف آمن مقت الله إياها ؟

ياراكب الذنب قد شابت مفارقه
أما تخاف من الأيام عقباها ؟ (١٥١)

فهو يردد ما استوعبه من تلك المعانى الإسلامى المطروحة حول السلوك البشرى (ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور) .

كما رصد الكبرياء والعظمة لله وحده لا شريك له فيهما (العزيز الجبار المتكبر) .

وإذا بهذا الفريق من الشعراء يبدو شديد الحرص على موقفه المذهبى ، حين ينتمى إلى إحدى الفرق الكلامية التى تلجأ إلى تأويل بعض الآيات القرآنية ، تأكيدا لاتجاهها ، ومسايرة لمذهبها فإذا بأبى نواس يأخذ فلسفة الإرجاء ــ كما عرضت انفا ــ وإذا ببشار يأخذ بفلسفة الجبرية فى بعض المواقف ، خاصة حين يتعرض للحديث عن كف بصره ، إذ يأخذ المسألة من منظور دينى يكشف فيه عن رضاه بقدره :

وعيرنى الأعداء والعيب فيهم
وليس بعيب أن يقال ضرير

---

(١٥١) ديوان أبى نواس ٦٢٠ .

إذا أبصر المرء المروءة والتقى
فإن عمى العينين ليس يضير
رأيت العمى أجرا وذخرا وعصمة
وإني إلى تلك الثلاث فقير [152]

فهو يعرض القضية مغلفة بموقف دينى يجعل محوره الأجر والتقى والذخر والعصمة ، مما يقوده إلى سبيل الرشاد فى حياته ، وهو سلوك إسلامى قويم تعرضه الآيات القرآنية فى كثير منها .

ولم يثبت بشار على حاله فى موقفه الجبرى ، بل تحول إلى صورة من الغضب والسخط على قدره فى موقف آخر يكشف زيف هذا الاتساق المفتعل :

خلقت على ما فى غير مخير
هواى ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد
ويقصر علمى أن أنال المغيبا

وعنده أيضا ترد محاولات أخرى كثيرة تنشر ما أفاده من المعجم الإسلامي ، حتى فى موضوع الهجاء ، الذى يأخذ فيه بهذا المنحى الدينى ، حين يهجو عبد الكريم بن أبى العوجاء قائلا :

قل لعبد الكريم يا ابن أبى العو
جاء بعت الإسلام بالكفر موقا
لا تصلى ولا تصوم فإن صم
ت فبعض النهار صوما رقيقا
لا تبالى إذا أصبحت من الخم
ر عتيقا ألا تكون عتيقا
ليت شعرى غداة حليت فى الجيـ
د حنيفا حليت أم زنديقا [153]

---

(153) ديوان بشار ١١١/٤ .

فهو يعرض بعبد الكريم الذى قتل على زندقته لما عرف عنه من وضع الأحاديث على رسول الله ﷺ ، فيعرض لما كان من كفره ، وعدم قيامه على العبادات من صوم وصلاة ، وإكثاره من شرب الخمر ، ليتوج الاتهام بعرض زندقته بهذه الصورة التهكمية التى تكاد توهمنا بتدين بشار لولا ما امتلأت به سيرته من أخباره وشعره كزنديق متحامل على العقيدة حتى قال واصل بن عطاء فى حقه « أما لهذا الأعمى من يقتله » .

وفى مقابل هذا الفريق من شعراء الزندقة والمجون عاشت فئة قليلة من شعراء الزهد ، وراحت تتبارى حول الاقتباس من المعجم الإسلامى بشكل بدا فيه الشاعر منهم أكثر صدقا وعمقا ، عما رأينا لدى الفريق الأول ، صحيح أن انتشار المعجم بين الفريقين يظل دالا على عمقه وقدرته على الذيوع واتساع دائرة التأثير فى كل الاتجاهات ، ولكن تظل درجة التأثير والإقتناع بما يقوله الشاعر أمراً متباينا بين الفريقين بصورة واضحة ، فعند شعراء الزهد لنا أن نتوقف عند هذه المؤثرات الإسلامية ولعل أكثرهم تأثرا بها وأكثرهم أيضا نظما حولها أبو العتاهية الذى شغل نفسه بقضية المصير — كما رأينا — فأدار حولها أكثر من حوار دينى طويل راح يغلفه بالقضايا الإيمانية المختلفة ، وفى مقدمتها قضية التوحيد والتنزيه التى أطال عندها الوقوف على نحو قوله موضحا مكانة الخالق سبحانه :

ملك تواضعت الملوك لعزه
وجلاله سبحانه وتعالى
لا شىء منه أدق لطف إحاطة
بالعالمين ولا أجل جلالا (١٥٤)

مرددا بذلك معانى الآيات الكريمة « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » .

---

(١٥٤) شعر أبى العتاهية وأخباره ٣٠٩ .

« وكان الله بكل شيء محيطا » .

وكثيرة هي تسبيحات أبي العتاهية التى يستغرقه فيها حسه الديني ، فيردد منها مكررا ومصورا درجات اليقين والتنزيه الإلهي :

سبحان من يعطي المنى بخواطر
في النفس لم ينطق بهن لسان
سبحان من لا شيء يحجب علمه
فالسر أجمع عنده إعلان
سبحان من هو لا يزال مسبحا
أبدا وليس لغيره السبحان
سبحان من تجرى قضاياه على
ما شاء منها غائب وعيان
سبحان من هو لا يزال ورزقه
للعالمين به عليه ضمان
ملك عزيم لا يفارق عزه
يعصى ويرجى عنده الغفران
ملك له ظهر الفضاء وبطنه
لم تبل جدة ملكه الأزمان
يبلي لكل مسلطن سلطانه
والله لا يبلى له سلطان (١٥٥)

فهو يستوحي كل ملامح التنزيه من الحس القرآنى الذى أخذه من معانى الآيات القرآنية (وسع ربى كل شيء علما أفلا تتذكرون) (١٥٦) (يرزق من يشاء بغير حساب) .

(وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) (١٥٧) ،

---

(١٥٥) شعراء أبى العتاهية ٣٧٠ .

(١٥٦) سورة الأنعام ٨٠ . (١٥٧) سورة النور ٣١ .

((يسبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض الملك القدوس))[158].

((الحمد لله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض))[159] .

وعلى نفس النسق يأخذ أبو العتاهية معالم الوحدانية والتنزيه من منطق التأمل والتدبر والتفكر الذى حدا به إلى استنكار معصية الله أو جحود نعمه تعالى قائلا :

أيا عجبــا كيف يعصى الإلــ
ه أم كيف يجحـده الجاحـــد

ولله فى كل تحريكـــة
وتسكينة أبدا شـــاهد

وفى كل شىء له آيـــة
تدل على أنه الواحــد[160]

إذ لا يزال يردد من معاني الآيات القرآنية ما دعت إليه من تقدير لملكة العقل ، والدعوة المتكررة لإعماله للتدبر فى خلق السموات والأرض ((ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين))[161] .

ففى كل صور الخليقة ما يشهد بقدرة الله ويدعو إلى توحيده (أفلا يتفكرون) (أفلا يتذكرون) (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)[162] (أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم)[163] .

وكانت ردود الفعل عند أبى العتاهية صادرة عن إيمانه بوحدانية

---

(١٥٨) سورة الجمعة ١ . (١٥٩) سورة سبأ ١ .
(١٦٠) طبقات الشعراء المحدثين (ابن المعتز) ٢٠٧ .
(١٦١) سورة الأنعام ٥٩ . (١٦٢) سورة محمد ٢٤ .
(١٦٣) سورة يس ٨١ .

الله وتنزيهه قبولا لقضائه وقدره في قوله مازجا التوحيد بالايمان بالقضاء :

تعالى الواحد الصمد الجليل
وحاشا أن يكون له عديل
هو الملك العزيز وكل شيء
سواه فهو منتقص ذليل
وما من مذهب إلا إليه
وإن سبيله لهو السبيل
وان له لمنسيا لبيس يحجي
وإن عطاءه لهو الجزيل
وكل قضائه عدل علينا
وكل بلائه حسن جميل
وكل مفوه أثنى عليه
ليبلغه فمنحسر كليل (١٦٤)

مرددا من حسه القرآني دلالات الآيات (قل هو الله أحد ، الله الصمد)(١٦٥) ٠

(هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس)(١٦٦) ٠

(قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني)(١٦٧) ٠

(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها)(١٦٨) ٠

(والله يحكم لا معقب لحكمه)(١٦٩) ٠

---

(١٦٤) ديوان أبي العتاهية ٢٢٠ ٠

(١٦٥) سورة الاخلاص ١ ، ٢ ٠

(١٦٦) سورة الحشر ٢٤ ٠ (١٦٧) سورة يوسف ١٠٨ ٠

(١٦٨) سورة النحل ١٨ ٠ (١٦٩) سورة الرعد ٤١ ٠

(وإن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم)[170] .

(إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)[171] .

ولعل أبا العتاهية بسلوكه الديني وحرصه على النظم حوله قد جعله لامعا بين شعراء العصر حتى أصبح شعره موضعا لمعارضتهم دون أن يعنى هذا أن كل من عارضوه كانوا من الزهاد ممن كانت لديهم القدرة على كشف سلوكهم وترجمة مبادئهم في شعرهم ؛ أما أبو نواس ومن نهج نهجه ، فكانوا في حاجة إلى هذا الإرشاد وذلك التوجيه ؛ ولذا حاول بعضهم تقليد أبي العتاهية في شعره الديني على ذلك النحو الذي ردد منه أبو نواس :

إلهنا ما أعدلك مليك كل من ملك
لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك
ما خاب عبد سألك أنت له حيث سلك
لولاك يارب هلك

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك
كل نبي وملك وكل من أهل لك
وكل عبد سألك سبح أو لبي فلك
لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك
والله لما أن حلك والسابحات في الفلك
على مجاري المنسلك

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك
يامخطئا ما أغفلك عجل وبادر أجلك
واختم بخير عملك[172]

---

(170) سورة النساء ٢٥ . (171) سورة يوسف ٨٧ .

(172) ديوان أبي نواس ٦٢٣

فهو يردد معانى التلبية التى يأخذها الحجيج وسيلتهم إلى الله سبحانه فى شعائر حجهم ، وإشارة إلى استجابتهم لأداء فرائضه فى مواسم الحج ، فراح الشاعر يصوغها على نهج صياغة أبى العتاهية مقررا من حقائق العقيدة ما أداره حول العدل الإلهى والوحدانية المطلقة ، وإجابة المعبود تعالى للسائلين من عباده ، مستشهدا على الوحدانية بمعالم كونية من مشاهد الليل والنهار والفلك ، متعقبا بذلك معانى كثير من الآيات القرآنية التى تحمل هذه الدلالات جميعها .

كما آثر أبو نواس أن يتنكب طريق الحكماء حين عرض خلاصة رؤيته للناس والدنيا بشكل قربه من عالم الزهاد أيضا فى قوله .

وما الناس إلا هالك وابن هالك
وذو نسب فى الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
له عن عدو فى ثياب صديق (١٧٣)

وقد صحب صيغ التوحيد والتنزيه نتاج طبيعى لها يتعلق بشكر أنعم الله ، والتوجه بالسؤال إليه وحده ، دون لجوء إلى أى من البشر ، فكان الإيمان قرينا للشكر عند أبى العتاهية أيضا فى مثل قوله :

ألا إن ربى قوى مجيد
لطيف جليل غنى حميد
تريد من الله إحسانه
فيعطيك أكثر مما تريد
ومن شكر الله لم ينسه
ولم ينقطع عنه منه المزيد
وما يكفر العرف إلا شقى
وما يشكر الله إلا سعيد (١٧٤)

---

(١٧٣) ديوان أبى نواس ٦٢١ .

(١٧٤) شعر أبى العتاهية ١٠٦ — ١٠٧ .

ولعله بدا بذاك وثيق الصلة بالسلوك الإسلامى القويم بصلته بالآيات القرآنية التى التقط منها معانيه (وما كان عطاء ربك محظورا)، (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنى حميد)[175] (لئن شكرتم لأزيدنكم) •

(وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور)[176] •

وهو موقف وجد مجالا طيبا على ألسنة زهاد العصر ممن رددوا نفس الصور تقريبا على نحو مما ذهب محمود الوراق فى قوله :

إذا كان شكري نعمة الله نعمة
على له فى مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله
وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها
وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه نعمة
تضيق بها الأوهام والبر والبحر[177]

فهو يستمد أصول المسلك من عمق المعانى القرآنية :

(وإذا مسه الشر كان يئوسا)[178] •

(ضل من تدعون إلا إياه) •

(فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون)[179] •

(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) •

---

(175) سورة لقمان ١٢ •   (176) سورة لقمان ٣٢ •
(177) كتاب الصناعتين لأبى هلال ٢٣٢ •
(178) سورة الاسراء ٨٣ •
(179) سورة البقرة ١٥٢ •

ومن هنا يتخذ الوراق سبيله إلى نشر الزهد في محاولة جادة لإيقاظ كل غافل من غفلته ، وإثارة الروح التأملية للمواقف فى نفسه ، مما يدعمه بما يتناسب معه من القصص القرآنى كما يقول :

يا ناظراً يرنو بعينى راقد
ومشاهدا للأمر غير مشاهد
منيت نفسك ضلة وأبحتها
طرق الرجاء وهى غير قواصد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترجى
درك الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدما
منها إلى الدنيا بذنب واحد (١٨٠)

إذ ينطلق من منطق التعقل وتأمل الأمور والمواقف ، آخذا من قصة آدم عليه السلام درجة عالية من العظة والاعتبار ، بمحض خروجه من الجنة لاقترابه من الشجرة التى حرمها عليه الخالق ، حين استجاب لوسوسة إبليس ، وكذا راح الشاعر ينذر أبناء آدم من غفلتهم ، وارتكاب الذنوب والمعاصى ، ثم انتظار العفو والغفران ، وكأنه — بذلك — إنما يسجل رفضا عنيفا يبطل كل ما انتهى إليه القائلون بالإرجاء من القول بالعفو الإلهى ، مما أفسح المجال أمام الشعراء لطرح ما شاءوا من صور الفساد الأخلاقى تحت أمل هذا العفو الإلهى العام الذى أطلقوا حدوده إلى درجة استباحوا فيها ارتكاب كل الآثام فيما دون إعلان الشرك .

ويتوج الشعراء موقفهم الدينى بالتوجه إلى الله سبحانه بسؤالهم إياه سواء منهم من كان زاهدا أو من عرف بمجونه ولهوه ، مما نجد له نظيراً فى قول محمود الوراق أيضا :

---

(١٨٠) الكامل ٤/١٠٦ .

فارغب إلى ملك الملوك ولا تكن
يا ذا الضراعة طالباً من طالب (١٨١)

أو قول مسلم بن الوليد من أصحاب التيار الآخر (الماجن) :

أقول لمأفون البديهة طائر
مع الحرص لم يغنم ولم يتحول
سل الناس إنى سائل الله وحده
وصائن عرضى عن فلان وعن فل (١٨٢)

وبذلك كان لقاء الشعراء حول مائدة واحدة كان المدد فيها من المعجم الإسلامى بصوره المختلفة ، صحيح أن درجات الأخذ قد تتفاوت بحكم تفاوت ملكات الشعراء ، ولكن اللقاء قد وقع بحكم قدرة هذا المعجم على تعمق نفوسهم جميعا فى عصر المتناقضات بين زندقة وزهد .

ومع تعدد الآراء والاتجاهات المذهبية ، ومع تنوع المواقف وتناقضها بين الفرق الدينية المختلفة ، راح فريق من الشعراء يرد الأمور الدينية إلى نصابها ردا بذلك على من تمرد عليها ، أو أسرف فى تأويل قضاياها ، خاصة ضد من قالوا بالاعتزال أو الجبرية ، ففى مقابل ما سبق عرضه من هجاء بشار لعبد الكريم على زندقته نجد ردودا على زندقة بشار نفسه ، وتفنيداً لما ذهب إليه من تفضيل النار على الطين ، وإبليس على آدم فى قوله المشهور :

إبليس أفضل من أبيكم آدم
فتنبهوا يامعشر الفجار
النار عنصره وآدم طينة
والطين لا يسمو سمو النار

---

(١٨١) الموازنة ١/٧٣ .
(١٨٢) ديوان مسلم ٢٦ .

أو قوله :

النـــار مشرقة والأرض مظلمـــة
والنـــار معبودة مذ كانت النـــار .

مرددا بذلك ما حاول ترسيخه من فساد المذاهب الفارســية ، وما ذهب إليه المجوس مما أســهم فى زيادة حس الزندقة عند بشار بشكل صاق به العصر ، وتولى بعض شــعرائه تفنيذ ما ذهب إليه على نحو ما كان من صفوان الأنصارى فى قوله :

زعمت بأن النـــار أكرم عنصرا
وفى الأرض تحيا بالحجارة والزند
ويخلــق فى أرحامهــا وأرومهــا
أعاجيب لا تحصى بخط ولا عقــد
وفى القعر من لج البحار منافع
من اللؤلؤ المكنون والعنبر الورد
كذلك سر الأرض فى البحر كلــه
وفى الغيضة الغناء والجبل الصلد
فذلك تدبير ونفع وحكمـــــــة
وأوضح برهان على الواحد الفرد

فإذا هو يفحم بشارا ، وينتصر عليه ، من منطلق تأمله وصدق اعتقاده الدينى ، مما يشهد فيه بقصة الخليقة ، وعلاقتها بوحدانية الخالق وإرادته وتدبيره ، وما جعــل فى الأرض من منافع للناس يتأملونها ويتدبرونها وما طرحه فى البحـار أيضا من تلك المنــافع المختلفة ، ومنها اســتخدام النار لخدمة البشر ، وكيف تحمل الأرض فى باطنها أسرارا لا يعلم خفاياها إلا خالقها ســبحانه ، وبذلك يفحم صــفوان خصـــمه من منطق دينى لا يخفى فيه رصـــيده من المؤثرات القرآنية :

(وتستخرجون حلية تلبسونها)[184] .

(وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب)[185] .

(وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره)[186] .

(وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله)[187] .

(والجبال أرساها)[188] .

(وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم)[189] .

وعلى هذا المنهج نفسه كان رد على بن الجهم على القاضى أحمد بن أبى دوءاد الذى تزعم الانتصار لمبادىء الاعتزال ، وقد عرضنا له آنفا ، وكذا لقول على هادما مبادئهم :

يا أحمد بن أبى دوءاد دعوة
بعثت إليك جنادلا وحديدا
ما هذه البدع التى سميتها
بالجهل منك العدل والتوحيدا
أفسدت أمر الدين حين وليته
ورميته بأبى الوليد وليدا [190]

وهى أمور تكشف عن طابع الجدل والحوار ، ورصيد التدين الذى مازال كامنا فى البيئة العباسية ، خاصة حين وجد من أهل السنة من يدافع عنها ، ويتولى دحض آراء أصحاب المذاهب التى ابتدعت فى الإسلام بدعا لا أصل لها ، إلا من تقديم العقل على الأدلة النقلية ، والأخذ بالتأويل للآيات القرآنية ، وطرح القضايا من منطلق

---

(١٨٤) سورة فاطر ١٢ . (١٨٥) سورة الرعد ٤ .
(١٨٦) سورة إبراهيم ٣٢ . (١٨٧) سورة النحل ١٤ .
(١٨٨) سورة النازعات ٣٢ . (١٨٩) سورة لقمان ١٠ .
(١٩٠) ديوان على بن الجهم .

الأهواء التى لا تعرف أصـولا دينية على نحو ما كان فى سلوك بشار ونظرائه من زنادقة البيئة •

ويمكن أن نلحق بهـذا الجانب الدينى ما دار من حوار بعض الشـعراء حول الرسالة المحمدية ، ودور رسول الله ﷺ فى تبليغها وإرشاد المسـلمين وإنذارهم ، صحيح أن الزمن قد بعد نسبيا من عصر المبعث والراشدين ، وصحيح أيضا أن الحياة العباسـية قد شهدت جيلا جديدا يختلف عن سـلفه الصالح من الصحابة والتابعين فى أمور كثيرة ، ولكن الذى لا يخفى ــ بداية ــ أن معالم التواصل قد استمرت بين هذه الأجيال لتربط بينها ، ومع أن رسول الله ﷺ لم يكن قائما بين المسـلمين فى هـذا العصر إلا أن فريقا من الشـعراء ظل مشـدودا بوجدانه الدينى إلى المـاضى يستلهم منه ويستوحى ، ويعرض الصور حول رسـالته عليه السلام ابتداء من الرغبة الجامحة فى أخذ العظة والعبرة من موت نبى الأمة وبشير الإسـلام على نحو قول أبى العتاهية ناصحا ومرشدا :

اصـبر لكـل مصـيبة وتجلـد
واعلم بأن المرء ليس مخلـد

وإذا ذكرت محمـداً ومصـابه
فاذكر مصابك بالنبى محمـد (١٩١)

إلى ما طرحه الشـعراء على نفس الصورة من الإيجاز حول دور رسـالته عليه السلام فى إنقاذ الناس من الضلال ، على نحو قول عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير :

وقد أحكـم الله آياتـه
وكان الرسـول عليها دليـلا

---

(١٩١) شعر أبى العتاهية ١١١ •

وأوضــح للمســلمين الســـبيل
فلا تتبعن سواها ســـبيلا [192]

وعلى نحو ما صوره أبو العتاهية من اصطفاء الله سبحانه رسوله عليه السلام فى قوله :

وأفضل هدى هدى سمت محمــد
نبى تنقـــاه الإله لدينــــه
عليه السلام كان فى النصح رحمة
وفى بره بالعالمين ولينــــــــه
إمام هدى تنجاب عن وجهه الدجى
كأن الثريا علقت بجبينـــه [193]

فهو يستقى مادته من الســيرة العطرة لرسول الله ﷺ ومن وحى الآيات القرآنية التى حددت بعضا من صفاته فأثنى عليه بها مولاه (وإنك لعلى خلق عظيم) •

(بالمؤمنين رؤوف رحيم) •

(ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) •

(وما أرسلناك إلا شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) •

وإذا بأبى العتاهية لا يتوانى عن البكاء كلما ألحت على ذاكرته الذكرى العطرة خاصــة حين يقف أمام قبره عليه السلام بالمدينــة المنورة ، كاشــفا عما يشيع فى نفسه من معانى البر والتقوى قائلا :

لبيك رسول الله من كان باكيــــا
ولا تنس قبرا بالمدينــة ثاويا

---

(192) تأويل مختلف الحديث (لابن قتيبة) ٦٢ •
(193) شعر أبى العتاهية ١٠٢ •

جزى الله عنا كل خير محمـــدا
فقــد كان مهديا دليـــلا وهاديا

ولن تسرى الذكرى بمن هو أهــله
إذا كنت للبر المطهر ناســـيا

أتنسى رســول الله أفضل من مشى
وآثاره بالمســـجدين كما هيـــا ؟

وكان أبر الناس بالناس كلهــم
وأكرمهــم بيتاً وشـــعبا وواديا

تكدر من بعــد النبى محمـــد
عليه سلام الله ما كان صافيا (١٩٤)

فهو يسلك أيضا سلوكا دينيا فى صلاته وسلامه على رسول الله ﷺ (إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وســلموا تسليما) •

ويعرض ما كان من هداية الله سبحانه له (ووجدك ضالا فهدى) وما كان من بره عليه السلام بالناس (بالمؤمنين رؤوف رحيم) وهو ما ينطلق الشـــاعر على أساسه موحدا ومسلما ملتمسا العظة والعبرة من موته عليه السلام :

وكان رســول الله أفضل من مشى
على الأرض إلا أنه لم يخلــد

مرددا معنى الآية الكريمة (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) (١٩٥) •

---

(١٩٤) شعر أبى العتاهية •
(١٩٥) سورة آل عمران ١٤٤ •

(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)[196] .

ومن العظة يذهب إلى توكيد إيمانه قائلا :

شهدت على أن لا نبوة بعده
وأن ليس حى بعده بمخلد

مرددا أيضا من آيات القرآن الكريم (إن الدين عند الله الإسلام) (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا)[197] .

وقياسا على هذه المقدمات التى سجل فيها الشعراء ثناءهم على رسول الله ﷺ ، وما كان من دوره فى هداية العالمين راح أبو العتاهية يعرض النتائج من منطلق النصح والإرشاد مما دعاه إلى مخاطبة الناس بما كان من شأن رسالته عليه السلام وواجباتهم فى الاهتداء بهديه :

يابنى آدم صونوا دينكم
ينبغى للدين ألا يطرح
واحمدوا الله الذى أكرمكم
بنبى قام فيكم فنصح
بنبى فتح الله به
كل خير نلتموه وشرح
مرسل لو يوزن الناس به
فى التقى والبر شالوا ورجح
فرسول الله أولى بالعلى
ورسول الله أولى بالمدح [198]

---

(196) سورة الأحزاب ٤٠ . (197) سورة المائدة ٣
(198) شعر أبى العتاهية ١٠٠ .

ومع عمومية المعانى الإسلامية التى طرحها الشعراء حول الرسول عليه السلام ورسالته الغراء ؛ توقف بعضهم طويلا عند سيرته ﷺ متأملا ومفصلا ، وعارضا من معجزاته عليه السلام ما يجدد به الذكرى ، ويخلد السيرة العطرة على نحو ما قاله قطرب :

إليك ــ رسول الله ــ منا تحية
وصلى عليك العابد المتهجد
فأنت رسول الله هاد ومهتد
نبى هدى للأنبياء مؤيد
فلا يقبل التوحيد إلا بذكره
ليقرنه عند النداء الموحد
وما جاء يدعونا بغير دلالة
ولكن بآيات تدل وتشهد
وسار إلى البيت المقدس ليلة
مسيرة شهر واردا ليس يطرد
يخبر بالعير التى فى طريقه
ليوقن أهل الشرك ذاك فيسعدوا
فسوءدده بالله إذ كان وحيه
إليه وهل فوق النبوة سوءدد ؟
فأوحى إليه الله من علمه به
وقد كانت الأصنام إذ ذاك تعبد
فأظهر بالإسلام دعوة صادق .
فضلّ له قوم وقوم به هدوا
حليم رحيم لين متواضع
سخى حيى عابد متزهد
وكان رسول الله فوق صفاتنا
يقصر فيها من يقول فيجهد (١٩٩)

(١٩٩) احياء علوم الدين ٢/٣٨٤ .

فهو يستهل قصيدته باهداء تحيته إلى رسول الله ﷺ مبينا دوره فى هداية البشر (وما أرسلناك إلا هاديا ومبشرا ونذيرا) مستشهدا على ما ذهب إليه بمدائح حسان بن ثابت فى رسول الله عليه السلام :

وقد قال حسان — وفى الشعر شاهد — تجدده الأيام يروى وينشد

أغر عليه للنبوة خاتم من الله مشهور يلوح ويشهد

وأعطاه من لفظ اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

ليتوقف عند اقتران اسمه بالتوحيد فى الأذان الذى هو شعار المسلمين ، ثم يأخذ فى سرد معالم من معجزات رسول الله عليه السلام ومسيرته إلى المسجد الأقصى فى حديث الإسراء والمعراج (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) [٢٠٠] .

إلى ما كان من صدى دعوته وتوزع من الناس إزاءها بين مسلمين ومشركين ، ليخلص من كل تصويره إلى التسليم بعجزه وكل الشعراء عن الإلمام بصفاته عليه السلام ، إلا من منطق ذلك الإيجاز الذى أورده فى أسلوب الترصيع فى البيت قبل الأخير ليجعل منه عليه السلام القدوة المثلى الذى تشرئب إليها أعناق المسلمين عجزاً عن التساوى بسلوك صاحبها عليه السلام .

وبهذا ظلت المدائح النبوية تشغل شعراء العصر ، فالتقطوا من الذكرى الطيبة ما أرادوا به بث روح الهداية والرشاد فى زحام حضارة المجتمع العباسى ومجونه ، فوضعوا أمام خلفائه المثل العليا ، كما وجدوا المتعة فى رصد معالم القدوة الحسنة فى عرض صفاته

---

(٢٠٠) سورة الإسراء ٢٠٠ .

عليه السلام لإحياء سيرة سلف صالح استوقفته طويلا تلك الصفات .
فلم تعرف انقطاعا ولا توقفا فى أى من عصور الأدب •

وبذا لم تعرف المؤثرات الإسلامية توقفاً مع العصر العباسى أو غيره بقدر ما وجدت لها امتداداً طيبا على ألسنة شعراء العربية طوال عصور التاريخ الأدبى ، فمع دواوين شعرائها تبرز صور متعددة ومكثفة من تلك المؤثرات — على تنوعها — وكأنها تشهد على استمرار هذا التيار كجدول ثقافى فرض نفسه على كل الشعراء حتى من بدا منهم متهما فى تدينه ، أو من أشارت إليه أصابع الاتهام بضعف فى عقيدته أو شك فى شىء منها ، ولذا كان التوقف عند هؤلاء الأقطاب الكبار فى العصر كفيلا بكشف هذه الحقائق واماطة اللثام عن أبعادها الحقيقية ، وهو ما يؤكد ما انتهى إليه الأمر فى وقفتنا مع شعراء عصر بنى أمية •

ويبدو من الضرورى — بعد هذا التناول النصى — التوقف تفصيلا لتأمل ملامح هذه المؤثرات الإسلامية على النحو الذى عرضه شعراء العصر العباسى بشطريه الأول والثانى ، إذ يظل من الظواهر التى يمكن رصدها بين طبيعة التأثير الإسلامى ونتائجه :

أولا : أن الأخذ من هذا المعجم قد أسهم فى إيجاد صيغة التشابه بين كثير من شعر شعراء العصر ، فإذا بالشاعر يكرر الآخرين وربما كرر نفسه بين قصيدة وأخرى ، ذلك أن هناك معطيات بعينها بدأ الشاعر ترديدها أخذا من القرآن الكريم أو الحديث النبوى الشريف ، أو من السلوك الإسلامى العام ، مع الاعتراف بضرورة وجود فروق فردية تحكم بيئات الشعراء حسب درجة القرب أو البعد عن السلوك الدينى ، خاصة فى ذلك العصر بما شهده من الاضطراب والقلق السياسى •

ثانيا : أن المؤثرات الدينية قد طرحت فى شكل مباشر لدى فريق

من الشعراء خاصة منهم أبناء بيئة الزهد . وعندهم وردت المعانى أكثر كثافة ، وأشد عمقا حتى رسم بعضهم منها لوحات فنية متكاملة ، على النحو الذى أبرزه أبو العتاهية الذى علق فنه التصويرى والتقريرى بمشاهد القيامة حيث أطال فى عرضها ، وأكثر من تفاصيلها على مستوى القصيدة والمقطوعة . وفى مقابل هذه التأثيرات المباشرة وجدت مؤثرات أخرى لم تظهر بنفس الأسلوب ، بل ربما وجدت سبيلها من خلال الدوافع التى حدت بشعراء العصر فى كل البيئات إلى النظم فى موضوعات كشفوا فيها حقيقة مواقفهم ، وطوابع انفعالاتهم على نحو ما كان من أبى تمام فى فتح عمورية أو صلب الافشين ، وعلى نحو ما عرضه الشعراء من صور ولوحات حربية سجلت المعارك ، ووثقت تاريخ العصر ، وأكدت الجانب الدينى فى معاركه فكانت الانتصارات إسلامية ، وكذلك كانت دوافع الخلفاء إليها ، الأمر الذى أدى إلى حرص الشاعر على الإفادة من المعجم الإسلامى دعما لموقفه ، ورغبة منه فى تأكيد ما يذهب إليه على المستويين الإنفعالى الذاتى ، والانفعالى الجماهيرى لدى المتلقين .

ثالثا : أن معظم شعراء العصر ممن أفادوا من المعجم الإسلامى قد خاضوا بشعرهم فى موضوعات حربية مع خصوم الدولة من الخارج فى مناطق الثغور بشكل أكثر كثافة مما كان عليه الحال فى عصر بنى أمية . ذلك أن شعراء العصر الأموى قد شغلهم من واقعهم السياسى عداوات الأحزاب ، والصراعات الداخلية بين الفرق السياسية والدينية مما أسهم فى اقحام الشعراء فى معارك جدلية وكلامية ، ولكنه فى هذا العصر ـ أى العباسى ـ راح يتسع لتصوير معارك الخلافة العباسية مع الروم ، وكذا تصوير موقف الخليفة ممن يمكن أن يمثل عليه خطرا من قواد جيوشه ، وكلها أمور أفسحت مجالات أكثر رحابة لطرح الكثير من معانى المعجم الإسلامى خضوعا من الشعراء لطابع العصر ، واستجابة لمعطيات واقعه ، وما حتمه من صراعات سياسية على مستوى العلاقات الخارجية مع الأمم

المجاورة ، فقد أدى منطق العداء الحربى إلى تركيز الصور حول مقارنات بين إسلام الدولة العباسية ، وبين وثنية الروم ونصرانيتهم وكفرهم فى كثير من لوحات كبار شعراء العصر خاصة فى رومياتهم •

وقد دفع هذا الموقف الحماسى الشاعر العباسى إلى تحويل كل الأبعاد الحربية للمعارك من هذا الجانب الدينى على مستوى الدوافع التى تحدو بخليفة المسلمين إلى الخروج غازيا ، أو منتقما للكرامة العربية والإسلامية ، وفى كل يبدو مدافعا عن الدين • وكذا على مستوى الحس الانفعالى الذى لا يتورع فيه الشاعر أن يكشف روح التشفى من جانبه ، والرضا بما أصاب جند معسكر الشرك ، الأمر الذى لا يبرر أيضا إلا من هذا المنظور الدينى ، وهو ما تكتمل صورته بشكل تام حين يأتى الشعراء إلى تصوير نتائج تلك الحروب وما كان من حظ الإسلام والمسلمين وتحطيم أركان الشرك وإذلال أهله ودعاته •

رابعا : أن المعانى التى وقع عليها حس شعراء العصر — وقد شخصت فى ذاكرتهم — ارتباطا بهذا المعجم الإسلامى لم تعرف تخصصا موضوعيا ، صحيح أنها وجدت سبيلها إلى الكثرة والكثافة فى بيئة الزهاد وأصحاب القصص الدينى ورجال الوعظ والارشاد وهذا طبيعى ، ولكنها لم تكتف بتلك المجالات فى سيادتها ؛ بل راحت تفرض نفسها على ألسنة الشعراء من ذوى الاتجاهات المختلفة حتى من غير المتدينين منهم إذ شاعت لديهم الزندقة واللهو وجاءت تلك المعانى الإسلامية كعلامات للتوبة أو لحظات الندم المؤقتة التى اصطنعها الشعراء أحيانا كثيرة ، كما جاءت مكثفة فى مدائحهم للخلفاء فى معظم الأحيان ومن ثم لم يعرف المعجم الإسلامى تخصصا بعينه لدى شعراء العصر ، بقدر ما وجد انتشاره وسيادته عامة ، مما يكشف عن حقيقة هامة مؤداها أنه أصبح جزءا من كيانهم الفكرى بحكم نشأتهم جميعا — تقريبا فى ظلال الدين وبين أيدى المفسرين والرواة ، مما طبع عقلية الشاعر بطابع دينى يصعب إغفاله أو التنكر لدوره ، وقد يتخذ

منه سلوكا ، أو ربما ينفر منه ولكنه حتى مع هـذا النفور لم يستطيع إلا أن يدين له بكثير من الولاء ، ويقر بعجزه عن التخلص منه كتراث عميق وعريق ملأ عليه جوانب من كيانه لا يستطيع اسقاطها من حسابه •

خامسا : أن ثمة تأثيراً واسـعا قد ظل سائدا من جراء الانقسام المذهبى بين أصحاب الفرق المختلفة ، فما زالت المعتزلة تحرك بعضا من كبار الشعراء بأصولها الخمسة ، وبما لجأت إليه من أدلة عقلية أخذت فيها بمبدأ التأويل ، وكذلك ما بقى من قول أصحاب الجبر برؤيتهم للسلوك الانسانى بناء على تأويلاتهم لآيات قرآنية منتقاة لتأكيد نفس الصنيع الذى أخذ به القدريون والمرجئة ممن شغلوا أنفسهم بإعمال الإرادة البشرية ، أو تعطيلها ، فشغلتهم قضية الجزاء وعلاقتها بطبيعة عمل الانسان • ويظل لافتا للنظر أن كثيرا من شعراء العصر قد راحوا يروجون لفلسفة الإرجاء عجزا منهم عن التخلص من أو شاب الحضارة المـادية الطاغية على البيئة ، فحاولوا نشر القول بالعفو ، ولذا راح شـعراء الزندقة ـ بالذات ـ يعبثون بالقيم والعبادات ويجاهرون بالمعصية ، ويعلقون جرائمهم على القول بالارجاء مما أشاع الكثير من صور الفوضى فى العلاقات الاجتماعية • الا أن هـذا كله لم يؤثر كثيرا فى صدى التراث الدينى التى ظلت له صلابته وقوته فلم يحجب معجمه عن شعر أبناء هـذا الاتجاه ، إذ مازالت الأصداء الدينية عالقة بأذهان الشعراء ، بحكم ثقافاتهم المتعددة فى ظل الدين والثقـافة التراثية ، وما زال الشاعر منهم يلتقط من أعماق ذاكرته ما يؤكد موضوعه من معانى الآيات أو مواقف الفرق التى ينتمى إليها هـذا وذاك بين ثنايا الأبيات تقريرا وتصويرا ، وما زال أكثر الشعراء يكشف صوره من خلال تلك العناصر الإسـلامية خاصة حين يتقدم مادحا بين يدى خلفاء المسلمين وإن كان بعضهم قد تورط فى التردد حول المذهب الدينى تبعا لظروف الخلافة على المستوى الرسمى ، خاصة حين يستعد الشاعر ليأكل على كل الموائد حتى لو غير مذهبه

على نحو ما حدث من البحترى فى تورطه بين الاعتزال وأهل السنة حين هجاهم قائلا :

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم
ويحرفون كلامه المخلوقا

وكأنه يرضى الخليفة الواثق بالقول هنا بخلق القرآن ، ومع عصر المتوكل وانتصار أهل السنة تراه يتحول إلى مذهب الخليفة ويظل شاعره الأول .

سادسا : ظل هذا المعجم الإسلامى قائما على تنوع الأخذ وتعدد صوره مع توحد المصادر واتساع دائرة الافادة منها مما يكشف عن حقيقة أخرى مؤداها أن التحول الاجتماعى الذى أصاب بنيان الحياة العباسية وبدا شديد الخطر عليها لم يستطيع القضاء على التيار الدينى الذى انتشر على ألسنة الشعراء فى كل الموضوعات تقريبا ، صحيح أن درجة الاقتناع بما يقولون قد تتفاوت ولكنهم — على أى حال — لم يستطيعوا أن يديروا ظهورهم لهذا المعجم على الرغم من ازدحام البيئة بالمذاهب الفارسية ومناظرات أهل الملل والنحل ، ممن اتخذوا من الجدل سبيلا الى طرح القيم التى قصدوا إلى نشرها سواء فى ذلك أصحاب الديانات السماوية ، أو أهل المذاهب الفارسية ، ممن قاموا بالدعاية لها أملا فى الارتقاء بها إلى درجة الديانات — وهى ليست كذلك بالطبع — ونشرها بين شباب العصر من قبيل الرغبة فى التشفى من المسلمين والعرب ، فكان الحس الشعوبى من الدوافع الكبرى للاستمرار فى هذا الاتجاه المضاد للاسلام .

سابعا : أن الطابع الدينى ما زال مسيطرا على الشكل الرسمى للدولة ، وما زال خلفاء بنى العباس شديدى الحرص على اسلامهم ففى مقابل قيام الخليفة بالخطابة الدينية فى المسلمين راح ينشر شرطة الزنادقة التى تتعقبهم ، وتحاول إحباط محاولاتهم للعبث بالدين ،

وتزج بهم فى سجون خاصة لمن تثبت عليه منهم تهمة الزندقة بعد محاكمته من منطلق تورطه فى الهجوم على قيم الدين ، أو محاولته نشر مذاهب فارسية قديمة على حساب القيم الاسلامية على طريقة مطيع بن إياس حين أعلن فى محاكمته أنه لا يؤمن إلا بما عاينه أو عاين مثله ، وكأنه يصرح بزندقته التى علمها ابنته حتى تصورتها دينا حين زج بها إلى المحاكمة فقالت هذا دين علمنيه أبى •

والحقيقة التى تحمد للخلافة العباسية أنها سارت — فى معظم الأحوال — فى خط مستقيم — إلى حد ما — فى هذا الاتجاه بعكس الخط المائل الذى ارتضته من جانب الموالى حين أصابوا من عروبة الدولة الكثير ، فجعلوا العربية مصدرا لسخريتهم وتهكمهم من العرب وتحقيرهم العصبية العربية ظلما وبهتانا ، وبذا راح بعضهم يطرح من صور الحضارة المنادية فى الجنس الفارسى ما أساء إلى عروبة الدولة العباسية حتى دفع الموقف الجاحظ إلى وصفها بأنها دولة « عربية فارسية » ففى مقابل إنصات خليفة كالمهدى إلى شتائم بشار فى حق العرب والعروبة نجده لا يتوانى عن تعقب بشار ورصد سلوكه الغزلى الفاحش فراح ينهاه عن الاستمرار فيه ، وأخذه بالشدة كما أخذ — بنفس الشدة — من بدت زندقته من شعراء العصر ، وإن كانت الحقيقة التاريخية تظل عاجزة عن تصوير خلاص العصر من الزنادقة ، ذاك أن تعقب قلة منهم لم يكن كافيا للقضاء على صور الفساد التى نشروها بين كثير من شباب العصر •

ثامنا : أن تيار الذاكرة الفاعلة ما زال يجتذب بعض شعراء البيئة الحضارية ، حتى يكاد يعزلهم — مؤقتا — عن حس الحضارة المترفة ، فما زال بعض الشعراء شديد التمسك بالماضى والتنقيب فيه عن أخبار القدوة الحسنة والسلف الصالح من قبيل الاعتزاز بالسير التاريخية وما التصق بها من حس دينى قويم قوم السلوك وهذبه وعدله ، ووضع الأسوة الطيبة أمام الأجيال التالية ، وربما استهدف

شاعر العصر منه وضع القدوة أمام الحاكم فى حركة إحياء رائعة لسلوك دينى يشيع وسط تيارات الترف والحضارة ، وينحصر نجاحه فى معيشته بينها لا القضاء عليها ، وربما ذهب جانب من هـذه التيارات فى تسجيل الحنين وإسـقاط حالات من الوجد على الجانب الدينى فى شخص رسـول الله ﷺ ، وهو موقف استغله بعض الشعراء بخبث شديد على الصعيد السياسى ، على نحو ما اصطنعه بشار من عرضه لطابع المشاركة الفارسية فى الانقلاب العباسى جاعلا الغضبة الفارسية من أجل رسول الله ﷺ والدين الإسلامى :

حتى رددنا الملك فى	أهل النبى العـربى
نغضب لله وللإســلا	م أسرى الغضــب

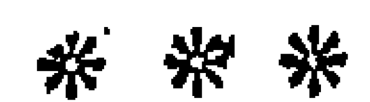
متجاهلا أن الحكم لم يخرج من إطار العروبة ، وموهما بأن غضبة الفرس كانت من أجل الإسـلام ، وكأن الإسـلام كان فى انتظارهم ليدافعوا عنه وهم أساس الزندقة المذهبية ولكن أكثر المواقف التى آدارها الشعراء حوارا وتصويرا جاء حول سيرة رسـول الله ﷺ ، وهى مواقف سارت فى ذلك الاتجاه من الوجد والحنين والاقتداء فى مواطن الذكريات ، خاصة ما شـاع لدى بيئة النساك ، والوعاظ ، والقصـاص والزهاد ممن اتخذوا من سـيرته عليه السـلام مادة دينية طيبة أشاعوا فيها من الحس الاسلامى صورا مختلفة أرضت وجدانهم ووجدان شـباب العصر معهم .

تاسعا : أن التاريخ الإسـلامى ظل معينا طيباً لا ينضب أمام الشعراء ينهلون من أحداث ماضيه منذ عصر المبعث خاصة أن التواصل التاريخى مازال قائما يكشـفه ذلك التشابه بين الأحداث الجسام التى وقعت بين المسلمين والروم ، مما دفعت إلى وجود امتداد لحـركة الجهاد الإسلامى التى وضع أصولها الرعيل الأول قبل الإنقسـام الداخلى الذى شهدته الدولة الأموية ، وبدأ تزاحم الشـعراء على هـذه المـادة التاريخية بمثابة دعم دينى من طراز متميز للصور الحربية

التى عرضوها بما يكفى لكشف السياسة الدينية للخليفة العباسى خاصة مع الروم وحماية مناطق الثغور .

عاشرا : أن محتوى القصـــيدة العباسية كان أكثر قدرة على احتواء الكثير من معالم المعجم الإســـلامى ، ولذا فان التحول الذى أصابه بدا أشـــد وضوحا عما أصاب الشكل الفنى للقصيدة ، وعلى أية حال فإن شـــعراء العصر قد أخذوا من التراث القديم شكله فأثبتوا له الولاء ، وكذلك أضافوا من المعجم الإســـلامى ما سجل انتماءهم إلى تراثهم الدينى بنفس الدرجة من العمق والعراقة ، بدليل ما رأيناه من حرص بعضهم على استقصاء المعانى الدينية التى استوعبتها ذاكرته عبر المصادر المختلفة ، على نحو ما بدا من تركيز على معانى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والعبادات والشعائر مما يوحى بمدى الثقافة التى التقطها الشـــاعر وتوقف عنها طويلا من تلك المصـــادر الدينيـــة .

ولم يكد الشاعر العباسى يترك فرصة لاثبات ولائه لمذهب ما إلا وطرح جوانب من فكره وأساليب معالجة هـــذا الفكر على نحو ما رأيناه فى سنية على بن الجهم وما يتراءى عكسها فى جدل ابن الرومى وقد كشف تأثره بالاعتزال ســـواء فيما طرحه من مادة فى شعره ، أو ما تأثر به فى منهج الصياغة ولغة الاستقصاء والإطالة التى لم نر لها نظيرا فى القصيدة العربية قبله ، حتى تحولت إلى ظاهرة تعم ديوانه ، ويتسم بها شعره .



الفصل الرابع

في شعر الحروب الصليبية

١ ـ معارضات روميات العباسيين .

٢ ـ دائرة الفضيلة الإسلامية .

٣ ـ إحياء تاريخ للجهاد الإسلامي .

٤ ـ الزهد والتصوف .

وتواصل حلقات التاريخ الحربى للمسلمين مسيرتها ، وتزداد حاجتهم إلى الجهاد الدينى ، كما تشتد إليه دوافعهم خاصة حين تهدد مقدساتهم بجحافل الغزو الصليبى ، وإذا باليوم يعيد ما شهده الأمس من تلك السير الحربية على مستوى الدوافع ، وضرورة خروج المسلم مدافعا عن دينه وأرضه وعرضه ، وفى موازاة ما التمسناه سريعا من أحداث التاريخ بين العرب والروم فى العصر العباسى ، وما عكسته الصراعات وصور النزاع التى لم تكد تنتهى أو تهدأ الا من خلال معارك وحروب دامية طال أمدها ، بسبب استمرار المحاولات العدوانية من قبل الروم أملاً فى انتهاك حرمات المسلمين ، كان ما جاءت الحروب الصليبية مما زاد من حجم هذه الضرورات وتضخم فى تاريخها شأن تلك الدوافع ، فانبرى شعراء الاسلام يستلهمون المعجم الدينى فى الدفاع عن قداسة دينهم وأراضيهم ، وكأنهم حين أداروا وجوههم للتاريخ وجدوا فيه رصيدا طيبا يتعرض لنفس الاتجاهات التى ذهبوا إليها ، ومن ثم كان للشاعر مثل أبى تمام أثره ومكانته فيما صاغه شعراء العصر من شعر حول قداسة الحرب من خلال الطابع الدينى الذى شاع فيها ، فالتحمت الصور التراثية بين تأثير أدبى واسلامى لم يجد شعراء العصر حرجا فى كشف تأثرهم به على نحو ما نظمه ابن القيسرانى فى بائيته التى لم يخف فيها إعجابه الصريح بمنهج أبى تمام فى بائيته المشهورة حول فتح عمورية ، ويقول فى مطلعها على نفس المستوى الاستهلالى الذى عرضه أبو تمام ، وإن حوره ليتسق مع طبيعة الموقف :

هذى العزائم لا ما تدعى القضب

وذى المكارم لا ما قالت الكتب(١)

---

(١) كتاب الروضتين ٥٩/١

وهـذه الهمم اللاتى متى خطبت
تعثرت حولها الأشـعار والخطب

وفيها يتوقف طويلا عن تصوير المعركة وكشف أبعادها :

أغرت سـيوفك بالإفرنج راجفـة
فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشـهم منهـا بقاصـمة
أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
غضـبت للدين حتى لـم يفتك رضى
وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهرت أرض الأعادى من دمائهم
طهـارة كل سـيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قارحـة
فالحرب تضرم والآجال تحتطب
والخيل من تحت قتلاهـا تقر لهـا
قوائم خانهن الركض والخبب
والنقع فوق صقال البيض منعقد
كما اسـتقل دخان تحتـه لهب
والنبـل كالوبل هطـال وليس له
سوى القسى وأيد فوقها سـحب
خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم
فاستسلموا وهى لا نبع ولا غرب
كذاك من لم يوق الله مهجتـه
لاقى العدى والقنا فى كفه قصب
فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب
يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وائذن لموجك فى تطهير ساحله
فإنمـا أنت بحـر لجـه لجب

إذ يبدو الشاعر وقد زاوج فى مطلعه بين فلسفة أبى تمام وفلسفة المتنبى حين جمع بين منطق القوة وسداد الرأى وقوة الهمم والعزائم ، فرفض ما قالت الكتب على نحو ما رفضه أبو تمام من كتب التنجيم ، مع مزيد من تعميم الصورة عند ابن القيسرانى الذى أخذ أيضا بما انتهى إليه أبو الطيب فى التركيز على سداد الرأى والحزم :

الرأى قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهى المحل الثانى
فاذا هما اجتمعا لنفس مرة
بلغت من العلياء كل مكان

ولكن الشاعر — مع ذلك — يتلمس خطى أبى تمام فيأخذ بنفس المنحنى التصويرى لجوءا إلى التشخيص واعتمادا على الإكثار منه . وتصورا للأبعاد الدينية التى يسقط فيها الصليب سقوط عمود الشرك عند أبى تمام :

حتى تركت عمود الشرك منقعرا
ولم تعرج على الأوتاد والطنب

جاعلا غضبة القائد من منطلق غيرته على دينه على النحو الذى سجله أبو تمام للمعتصم :

تدبير معتصم بالله منتقم
فى الله مرتقب فى الله مرتغب

وفى تصويره للطهر والجنابة تعلقا بالسيف ما زال متشبثا بصورة أبى تمام التى خلعها — تشخيصا — على يوم عمورية :

تصرح الدهر تصريح الغمام لها
عن يوم هيجاء منها طاهر جنب

ومشهد الدخان واللهب يكاد يردد فيه ما صوره أبو تمام من حريق المدينة وكيف انقلبت فيها نواميس الكون :

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت
عن لونهـا أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفـة
وظلمة من دخان فى ضحى شحب

ومن نفس المنظور يأتى مشهد النبع والغرب إلى نفس النهج البدوى الذى كنى به أبو تمام عن تفاهة أقوال المنجمين ورفض الإعتداد بها مطلقا لأنها « ليست بنبع إذا عدت ولا غرب » •

كما يلتقط مشهد المدح الحربى التى ضخم فيه أبو تمام مكانة المعتصم بالله حتى جعله جيشا بنفسه وحدها ، فكذلك كان حال القائد المسلم حيث بدا بحرا لجبا يخيف خصومه ، بل لعله التقط المشهد من أبى تمام أيضا حين رفض أموال تيوفيل ، أو ثقة الشاعر من ذلك الرفض إذا ما عرضت عليه :

غدا يصرف بالأموال جريتهـا
فعزه البحـر ذو التيـار والحدب

فمما لا شك فيه أن المعجم الإسلامى قد بدا عاملا مشتركا قرب بين الشاعرين على مستوى المنطق الانفعالى ، وطبيعة الدوافع والتغنى الصادق بالفتح ، والتركيز على حركة الجهاد الدينى ضد الشرك وأهله ، الأمر الذى جعل الموقف الفنى يبدو مكررا بينهما ، وربما كانت المشابهة بين الحروب دافعا هاما إلى هذا التكرار الذى نجد له أكثر من نظير على نحـو ما ظهر عند الشهاب محمود الحلبى من وحى عمورية أبى تمام أيضا ، حيث صور استيلاء الأشرف خليل على مدينة عكـا :

الحمـد لله ذلت دولة الصلب
وعز بالترك دين المصطفى العربى

ما بعد عكا وقد هدت قواعدها
في البحر للشرك عند الله من أرب

لم يبق من بعدها الكفر إذ خربت
في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب

يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت
به الفتوح وما قد خط في الكتب

أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم
لله أي رضى في ذلك الغضب

وأشرف المصطفى الهادي البشير على
ما أسلف الأشرف السلطان من قرب

فانهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها
مدت اليك نواحيها بلا تعب (٣)

فهو يصوغ معجمه الديني من تلك المادة المزدوجة بين حمده لله ودين المصطفى العربي ورضى الله تعالى وإشراف الهادي البشير وإشراقه الدنيا المسلمة ، في مقابل المشهد المناقض لكل هذا لدى أهل الشرك والكفر وغضب عباد عيسى وما ألصقه بهم من الفرار وما استوقفه من فتح عكا وقد هدت قواعدها .

وحين تستوقفه حصانة المدينة وصلابتها يكشف مكانتها الأولى قبل الفتح على نهج مكانة عمورية عند أبي تمام في لوحاته التي رسمها لها قبل الحريق ، ثم في أثناء الحريق وبعده ، فعلى هذه الأبعاد الزمنية المتنوعة تبدو عكا في ماضي حصانتها قلعة قوية أسوارها وساحتها إلى أن تزاحمت عليها المجانيق والنبل من كل جانب :

سوران بر وبحر حول ساحتها
دارا وأدناهما أنأى من القطب

---

(٣) كنز الدرر ٨/٣١٥ .

خرقاء أمنع سوريها وأحصنه
قلب الكماة وأقواه على الندب
مثل الغمامة تهدى من صواعقها
بالنبل أضعاف ما تهدى من السحب
كأنما كل برج حوله فلك
من المجانيق ترمى الأرض بالشهب

ثم يركز عدسته على طبيعة الحصار وما يبثه فى وجدان المسلمين من حس القوة والمنعة :

وجئتها بجيوش كالسيول على
أمثالها بين آجام من القصب
وحطتها بالمجانيق التى وقفت
أمام أسوارها فى جحفل لجب
ورضتها بنقوب ذللت سهما
منها وأبدت محياها بلا نقب

وكأن الشاعر يتوقف متأملا معجمه ، منتقيا منه ما يتسق مع إيجابيات الفتح باعتباره فتحا دينيا أيضا أسعد المسلمين جميعا ، فراح يرصد الدين عزته ، ذاكرا رسوله الله ﷺ فهو « المصطفى والهادى البشير » ومضخما من حجم الفتح ومكانته على نهج « فتح الفتوح » عند أبى تمام ، وعارضا من ملامح المشركين وديارهم ما أصابهم من الذل والانهزام والخراب على أيدى جند المسلمين . ولا يخفى ما اقتفاه الشاعر من أثر أبى تمام فى هذه اللوحات المتنوعة وكأنه وضع ملامح الصورة بين عينيه ليتتبع الخطى ، فيرسم على منوالها نسيجا للفتح ، بدا دينيا وحربيا معا ، من منطلق ذلك العرض الدقيق لحصانة المدينة ، ثم تصوير ما أصابها على أيدى المسلمين من دمار وإبادة .

ويظل واضحا حرص شعراء المسلمين على تصوير أحداث الحروب الصليبية صدوراً عن روح دينية خالصة ، أسهمت فى جذب فريق الشعراء إلى سيرة السلف الصالح من قبيل الفخر بعزة الإسلام ، حين ترتفع راياته ، وتتحطم فى مقابلها رايات الشرك ، وتتهاوى أعمدته ، وتتدهور أسسه ، وكأن الشاعر العربى يبدو آنذاك شديد الاعتزاز بالماضى يلتمس من خلاله الأشباه والحماس بل ربما أدار معظم فخره من حوله ، باعتباره من أغلى ممتلكاته على الصعيدين الدينى والأدبى معا :

(١) فعلى الصعيد الدينى يبدو التبارى قائما بين الشعراء فى إبراز لوحات الجهاد الإسلامى ، مفعمة بالمعانى والصور والألفاظ التى استوحاها الشاعر المسلم من حسه الدينى ، بحكم استيعابه له من ناحية ، وبحكم طبيعة الدوافع الدينية للمسلمين عامة للذود عن بلادهم ودينهم من ناحية أخرى •

(٢) وعلى الصعيد الأدبى راح الشعراء يلتقطون من مشاهد الأدب العربى وصوره ولوحاته ، ما يتسق مع طبيعة المواقف الحربية الجديدة ، فوقعت أعين الشعراء على انتصارات رائعة للعرب المسلمين ، حققوا فيها جل طموحات أبناء المجتمع الإسلامى فى حروبه العاتية مع مدرسة الشرك ، وكأنما وجد الشعراء فى بائية أبى تمام فى فتح عمورية على يد الخليفة المعتصم بالله نموذجا رائعا يستحق التوقف والتأمل ، بل يستحق التقليد والمحاكاة ، مما أسهم فى انتشاره بينهم كقاسم مشترك علوا منه ونهلوا بلا وجل أو حرج ، وكأنما أدركوا ذلك التواصل التاريخى الدقيق بين الانتصارات الإسلامية ، وتوقفوا طويلا عند دوافع ابطال المسلمين إلى خوض حروبها ، إذ تبدت هذه الانتصارات رموزا أبدية لانتصار الدين الإسلامى ، مهما تعددت العصور ، واختلفت القيادات ، أو تعددت أسماء القادة أو الخلفاء أو الفاتحين •

وعلى هدى من هـذه الأسس أدرك شـعراء الجهاد حقيقـة دورهم من خلال شديد اعتزاز بتراثهم العريق ، فكانت للمعارضات الشـعرية وجاهتها أخذا من لوحات المـاضى بما يزيد من جمـال الحاضر ورونق صوره ، ربطا بين كل الملامح الإيجابية لمـا هم ـ أى الشعراء ـ بصدده من تلك الأحداث الكبار . على أن بائية أبى تمام لم تكن المصدر الوحيد لالهام شـعراء جيل الحروب الصليبية أو غيره ، بل تعددت لديهم المصـادر ولمعت عندهم من صور الحروب ما سجلها وزاد من توثيقها تاريخيا ، فأتت جدة المعالجة بارزة فى التعامل الفنى مع موضوعات تقليدية على نحو ما هو معروف فى فن المدح . على أن شاعر العصر لم يقف جامدا عند حدود الدوائر المدحية من المنظور التقليدى ، بقدر ما حرص على عرض كثير من القيم الإسـلامية التى تعطى الموقف عمقا دينيا وأبعادا جديدة متميزة ، وإن بدا الشـاعر فيها حريصا على إثبات ولائه لأقدم الصور التراثية من حيث الشكل الفنى للقصيدة ، ولهذا النموذج الفنى صور كثيرة تغص بهـا دواوين شـعراء العصر من مشهوريهم ومغموريهم على السواء ، ولذا يبدو الاختيار هنا لمجرد إثبات هـذه الحقيقة التى طمح فيها شاعر العصر إلى اثبات ولائه للتراث العربى بوجه عام ، وأفاد فيها من التراث الإسـلامى بوجه خاص ، يقول ابن عينية مادحا الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل مستهلا مدحته بقوله :

جعل العتاب إلى الصـدود توصلا
ريم رمى فأصاب منى المقتـلا

ليستعرض من المعجم الإسلامى ما عرضه بين ثنايا الأبيات قائلا :

يا أيهـا الملك الذى إنعـامه
لم يبق فى الدنيـا فقيرا مرسلا

لقـد اتقيت الله حق تقـاته
ونهجت للنـاس الطريق الأمثـلا

وعدلت حتى لم تجد متظلماً
وأخفت حتى صاحب الذئب الطلا
ورفعت للدين الحنيف منارة
فعلا وكنت بنصره متكفلا
حاشا الدين أنت فيه مظفر
أن يستباح حماه أو أن يخذلا
فالله يخلف في بقائك عادة
دنيا ويعطيك البقاء الأطولا[4]

فالشاعر يرصد في شخص الملك من القيم والفضائل الإسلامية ما يطرحه من منطق العدل والورع والتقوى والذود عن دينه ، ورفع منارته وضمان نصره ثم يدعو له دعاء إسلاميا خالصا يكاد يقتبس من الآيات القرآنية في ثنايا عرضه بالصورة من قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون »[5] أو قوله تعالى « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »[6] .

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »[7] .

وأصبح من الأهمية بمكان لدى شاعر العصر أن ينطلق من هذا المنظور الديني الذي يتسق مع طابع الجهاد ، ففي موضوع المدح أيضا يعرض العماد الأصفهاني قوله في الملك المظفر :

أخفت أهل الشرك حتى الذعر منهم
يرى قبل الولادة في الجنين
وكنت لعسكر الإسلام كهفا
أوى منه إلى حصن حصين

(٤) كتاب ابن غيبة ٩/١٣ .
(٥) سورة آل عمران ١٠٢ .
(٦) سورة محمد ٧ .
(٧) سورة النساء ٥٨ .

وأنت ثبت دون الدين تحمــى
حمــاه أوان ولى كل دين [8]

فإذا بالصورة تنضح بالمعانى الدينية التى تثبت فى أعماق الممدوح، فإذا هو يثبت أركان دينه ، وكأنه الكهف الذى يأوي إليه عسـكر الإسـلام وجنده ، وقد بث الخوف والفزع فى نفوس المشركين ، حتى أصاب منهم الأجنة فى بطون أمهاتها على ذلك النحو الذى صوره أبو نواس فى مدحه للخليفة العباسى الأمين قائلا :

وأخفت أهل الشرك حتى إنــه
لتخافك النطف التى لم تخلــق

أو كأنه يلتقط الصورة مما عرضه أبو تمام من صور المفـارقة بين واقع الشرك ، وقد هزم وبين انتصار الإسـلام فى قوله عن المعتصـم بالله :

حتى تركت عمود الشرك منقعــرا
ولم تعرج على الأوتاد والطنب

أو قوله والخطاب ليوم عمورية ونتائج المعركة :

أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد
والمشركين ودار الشرك فى صبب

وهو نفس الإطار الذى التزمه العماد الأصـفهانى فى قوله مصورا انتصارات صلاح الدين :

أحيا الهدى وأمات الشرك صارمه
لقد تجلى الهدى والشرك منجاب

---

(٨) كتاب الروضتين لشهاب الدين المقدسى المعروف بأبى شامة نشر دار الجيل ــ بيروت د٠ت ١/٢٧٣ ٠

بفتحه القدس للإسلام قد فتحت
في قمع طاغية الأشراك أبواب (٩)

بل ربما أخذت الصورة عمقا تاريخيا يرتد بالشاعر إلى انتصارات المسلمين الأول ، منذ عصر النبوة يوم أن حطموا عبادة الأوثان في مكة :

نفي من القدس صلبانا كما نفيت
من بيت مكة أزلام وأنصاب

وعلى نحو ما شهدته قصيدة المدح من حرص الشعراء على المعجم الإسلامي برز موقفهم في فن الرثاء ، فكان الحس الإسلامي مسيطرا على مرثية الأصفهاني لنور الدين على نحو قوله :

الدين في ظلم لغيبة نوره
والدهر في غم لفقد أميره
فليندب الإسلام حامي أهله
والشام حافظ ملكه وثغوره
من ينصر الإسلام في غزواته
فلقد أصيب بركنه وظهيره
من للفرنج ومن لأسر ملوكها
من للهدى يبغي مكان أسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها
من للجهاد ومن لحفظ أموره
أنت الذي أحييت شرع محمد
وقضيت بعد وفاته بنشوره
كم قد أقمت من الشريعة معلما
هو منذ غبت معرض لدثوره

(٩) كتاب الروضتين ١/٢٧٣ .

كم قد أمرت بحفر خندق معقل
حتى سكنت اللحد في محفوره [10]

فهو يقيم صورته الرثائية على مصطلحات دينية قوامها الإسلام والدين والهدى والجهاد والشرع والشريعة ليجعل منها جميعا رصيدا طيبا لمدونته .

وفي موازاة هذا السلوك الديني الذي يجد سبيله عبر موضوعي المدح والرثاء يبدو نقيض الموقف في صيغ الهجاء التي رددها شعراء العصر ، فلم يزعجهم من خصومهم شيء قدر اخلالهم بالعهود ونقضهم المواثيق ، كما عرف عن الصليبيين من خلال قول الشاعر كاشفا موقفهم وهاجيا إياهم :

نقضوا هدنة الصلاح بجهل
بعد تأكيدها بحسن الوفاء
ولقوا بغيهم بما كان فيه
من فساد يجلهم واعتداء
لا حمى الله شملهم من شتات
بمواض تفوق حد المضاء
فجزاء الكفور قتل وأسر
وجزاء الشكور خير الجزاء
فلرب العباد حمد وشكر
دائم مع تواصل النعماء [11]

ومع هذا الرصيد من الصور الدينية التي اقتحمت الموضوعات التقليدية الموروثة ، نظم شعراء العصر لوحات فنية جديدة في موضوعات بدت أشد قربا وارتباطا بإيقاع العصر ، وأكثر مواكبة للأحداث الكبار التي شهدها ، فكانت وثائق تاريخية لها أهميتها ومكانتها في التاريخين السياسي والأدبي على السواء .

---

(١٠) كتاب الروضتين ٢/٢٤٤ .

(١١) ذيل تاريخ دمشق ٣٤٢ .

وكان مما قيل فى هـذه الموضوعات ما بدا فيه شعراء العصر شديدى الحرص على استنهاض المسلمين واستنفارهم للجهاد والرد على الصليبيين ، وكانت مساهمة اللسان من الأهمية بمكان كوسيلة لاعداد القوة والاستعداد لذلك الجهاد المقدس وتحريك همة القائد على ذلك النحو الذى عرضه ابن الخياط لعضب الدولة زعيم الجيوش فى دمشق من قوله :

وانى لمهـد إليـك القريـ
ض يطوى على النصح والنصح يهدى

إلى كـم وقـد زخـر المشركو
ن بسـيل يهال له السـيل سـدا

بنو الشرك لا ينكرون الفسـا
د ولا يعرفون مع الجور قصـد[١٢]

فهو يرتدى ثوب الناصح المرشد مقدما نصحه وإرشاده فى تلك الصيغ المهذبة التى يؤكد فيهـا أن النصح لا يفرض فرضا بل يهدى إهداء ، وإذا هو يكشف عما عرفه عن المشركين من فجور وضلال وفساد خلق وجور لا يعرف إلى العدل أو الصلاح سـبيلا .

وهو هنا يتجاوز موقف الأخطل أمام عبد الملك فى عصر بنى أمية حين صرح بنصـحه له وللبيت الأموى وكأنه يمن عليـه وعليهم فى رائيته المشـهورة :

بنى أميـة إنى ناصـح لكم
فلا يبيتن فيكـم آمنا زفـر

بنى أميـة قد ناضلت دونكـم
أبنـاء قوم هم آووا وهم نصروا

---

(١٢) النجوم الزاهرة ٥/١٥١ .

ولم يتوقف هذا الاستنهاض عند حدود المواقف الفردية التى تتعلق بقائد أو أمير ، بل قد تطرح على المسلمين جميعا خاصة حين يشتد عبث المشركين بمقدسات الإسلام على ذلك النحو الذى قال فيه بعض شعراء العصر على غرار ما ذكرناه آنفاً :

أحل الكفر بالإسلام ضيما
يطول عليه للدين النحيب

فحق ضائع وحمى مباح
وسيف قاطع ودم صبيب

وكم من مسلم أمسى سليبا
ومسلمة لها حرم سليب

وكم من مسجد جعلوه ديرا
على محرابه نصب الصليب

دم الخنزير فيه لهم خلوق
وتحريق المصاحف فيه طيب

أمور لو تأملهن طفل
لطفل فى عوارضه المشيب

أتسبى المسلمات بكل ثغر
وعيش المسلمين إذا يطيب

أما لله والإسلام حق
يدافع عنه شبان وشيب

فقل لذوى البصائر حيث كانوا
اجيبوا الله ويحكم اجيبوا (١٣)

فالشاعر يسجل أبعاد أحزانه التى تعمقته وسيطرت على كيانه وأسقمت وجدانه ليطرح تلك الأحزان على المسلمين ، لا ليتباكوا

---

(١٣) النجوم الزاهرة ٥/١٥١

بسبب منها ، بل ليسهموا في إنقاذ الإسلام مما أحاط به من مخالب الكفر الذى استباح المحرمات فضاعت حقوق المسلمين وأوشك حماهم أن يستباح بين قتل وسلب ونهب ، بل أوشك الشرك أن يجور على مقدساتهم ليحول مساجدهم إلى أديرة تنصب فيها صلبانهم ، على نحو ما يقترفونه من محرمات دينية من أكل لحم الخنزير ، وإحراق مصاحف المسلمين ، إلى غير ذلك من جرائم بشعة تجعل الولدان شيبا من هول ما يرونه من سبى نساء مسلمات ، الأمر الذى يترجمه الشاعر فى خلاصة ما طرحه استنهاضا للمسلمين لكى يذودوا عن حق الإسلام عليهم ، وليجيبوا داعى الله انتصارا لدينه ودفاعا عن مقدساته .

هو استنفار بعيد إلى الأذهان ما عرضه ابن الرومى فى مرثيته المشهورة حول أحداث الزنج التى دمرت مدينة البصرة ومطلعها :

ذاد عن مقلتى لذيذ المنام
شغلها عنه بالدموع السجام

ولعل ادراك الشاعر المسلم لحجم الخطب على هذا النحو هو ما حفزه إلى إضافة الجديد فى لوحاته المدحية التى التقى فيها هذا الحرص على الإسلام ببقية الصفات المثالية فى شخص الممدوح ، بل تصدرها هذا الموقف على النحو الذى قال فيه ابن منير الطرابلسى مادحا نور الدين بقصيدة أثنى فيها عليه لدوره فى نصرة الدين وإعادة زهوه وقوته إليه :

ردت على الإسلام عصر شبابه
وثباته من دونه وثباته

سبغت على الإسلام بيض حجوله
واختال فى أوضاحها جبهاته

تحطم الصليب على صلابة عوده
فتقرقت أيدى سبا خشباته(١٤)

وإذا بغضبة نور الدين تتجاوز ذلك المستوى الانفعالى الذى يتجاوز ذلك الخصومات ، إلا ما مس منهما دينه فينبرى عنه مدافعاً وذائداً على نحو ما يبرز من جوانب شخصية نور الدين على لسان ابن القيسرانى فى قوله :

غضبت للدين حتى لم يفتك رضى
وكان دين الهدى مرضاته الغضب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسباً
من الملوك فنور الدين محتسب

ولعل من أكثر هذه الصور الحربية إشراقاً فى هذا الجانب ما عرضه شعراء العصر حول انتصارات المسلمين على الصليبيين ، وما شاع فى هذه الانتصارات من طابع دينى دفع الشعراء إلى كثرة الاقتباس من المعجم القرآنى ، والاستعانة بالصور الدينية على النحو الذى تردد فى كل فتح أو انتصار على حدة ، وكان انتصار صلاح الدين فى حطين من أكبر حوافز الشعراء إلى النظم فقد اهتز فيهم الوجدان الدينى ، وتدفقت الملكة الإبداعية لتصوير نشوة النصر وهزيمة الشرك على ذلك النحو الذى نورد على لسان أبى الحسن الجوانى نقيب الأشراف بالديار المصرية فى « حطين » وافتتاحه القدس :

أترى مناما ما بعينى أبصر
القدس تفتح والفرنجة تكسر
ومليكهم فى القيد مصفود ولم
ير قبل ذلك لهم ملوك تؤسر

(١٤) كتاب الروضتين ١/ ٦٠ .

قد جاء نصر الله والفتح الذى

وعد الرسول: فسبحوا واستغفروا

فتح الشآم وطهر القدس الذى

هو فى القيامة للأنام المحشر

مالك غدا الإسلام من عجب به

يختال والدنيا به تتبختر

نثر ونظم طعنه وضرابه

فالرمح ينظم والمهند ينثر

حيث الرقاب خواضع حيث العيو

ن خواشع حيث الجباه تعفر

فما كان فتح القدس إلا فتحا دينيا استبشر به المسلمون جميعا ، وإذا بالشاعر يستوقفه ما كان من سورة النصر « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » ، وإذا هو تستغرقه نشوة الانتصار ، فيذكر ما بعد القيامة من حشر ونشر ، كاشفا بذلك عن صدق حسه الغيبى الذى يعد من أرقى صور الإيمان فى هذا المعجم الإسلامى ، إلى جانب ما رصده من شعائر الإسلام من خطب الجمع والمنابر التى يرتقيها خطباء الإسلام كصورة من هذه الشعائر .

وعلى نفس النسق يسير نفس الشاعر حول نفس الانتصار فى قوله :

جند السماء لهذا الملك أعوان

من شك فيه فهذا الفتح برهان

متى رأى الناس ما نحكيه فى زمن

وقد مضت قبل أزمان وأزمان

هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما

لها سوى الشكر بالأفعال أثمان

أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده
صيدا وما ضعفوا يوما ولا هانوا
تسعون عاما بلاد الله تصرخ وال
إسلام أنصاره صم وعميان
للناصر ادخرت هذي الفتوح وما
سمت لهم همم الأملاك مذ دانوا

فهو يستعيد بذلك السير الإسلامية من لدن تاريخ الغزوات الإسلامية في عصر النبوة ، يوم أن كانت الملائكة تتنزل من قبل الله تعالى لتساعد جند المسلمين وتعينهم في قتال المشركين ، ولذا لم يتورع الشاعر عن عرض صور هذه الفتوح في صورة جعلها شبيهة بغزوات الأنبياء ، وهزائم الشرك وأهله من ملوك الطغيان والفساد ، وبعدها يرصد الأبعاد الزمنية لتأريخ الهزيمة ، وتصوير المرارة التي راحت فيها بلاد الله والإسلام تصرخ ، وكأن المسلمين قد عموا وصموا ، إلى أن قوض لها الله من شخص صلاح الدين قائدا فذا حقق نصر الإسلام على يديه . وراح الشعراء يتبارون ويجتهدون حول الأخذ من كل صور المعجم الإسلامي إزاء الحروب المقدسة ، أو الآيات القرآنية التي جعلها مصدرا لأخذه ، بل أخذوا من قصص القرآن الكريم ما عرضوه بين ثنايا قصائدهم على النحو الذي عرضه الحكيم الجلياني حين وصف الإفرنج بعد استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس في قوله :

ويا ضحى السبت ما للقوم قد سبتوا
تهودوا أم بكأس الطعم قد سكروا
ويا ضريح شعيب ما لهم جثموا
كمدين أم تقوا رجفا بما كفروا

كاشفا بذلك عن جانب من قصص اليهود ، وما ليوم السبت من

دياناتهم من أثر خاص (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه)[15] ، كما يلتقط من قصة شعيب (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول)[16]

والذى لا شك فيه أن شعراء الحروب الصليبية قد تزاحموا على هذا المعجم فكثرت لديهم منه المعانى والصور وتزاحمت الأفكار على أذهانهم بحكم ظروف المواقف القتالية وما طبعت به من صبغة دينية ، أساسها الصدق والاخلاص فى الجهاد ، مما دفع الشعراء إلى تسجيل الانتصارات بنفس الصدق والعمق والحماس والانفعال ، على النحو الذى عرضه أيضا العماد فى فتح بيت المقدس :

جنودك أملاك السماء وظنهم
أعاديك جنا فى المعارك أو انسا
فكيف مكست المشركين رؤوسهم
ورأيك فى الاحسان أن تطلق المكسا
كسرتهم إذ صح عزمك فيهم
ونكستهم من بعد إعلامهم نكسا
بواقعة رجت بها أرض جيشهم
ومارت كما بست جبالهم بسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها
وألبستها الدين الذى كشف اللبسا
جرى بالذى تهوى القضاء وظاهرت
ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا

فهو يقيم الصورة على أساس من نفس التصور الدينى التاريخى من وجود مدد إلاهى تقوم به ملائكة الرحمن ممن لا يستطيع المشركون التعرف على هويتهم ، فما هم بإنس ولا جن ، ولا عهد للكفار بمعرفتهم ، ومن ثم يدير الشاعر فخره بما كان من الانتصار الذى

---

(١٥) سورة النحل ١٢٤ .   (١٦) سورة هود ٩١ .

كشف الحق حين نزع لباس الكفر عن المقدس وألبسها ثوبا قشيبا يعكس اعتزازها التقويم الذي كشف اللبس عن البشرية كلها حين أبان لها سبيل الهداية والرشاد « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا »[17] .

« إن الدين عند الله الإسلام »[18] .

أضف إلى هذا ما التقطه الشاعر من تلك الصور التي انتشرت في الآيات القرآنية الكريمة « إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا »[19] .

وهكذا ترددت أصداء المؤثر الإسلامي في جنبات الساحة الشعرية في مواقف القتال فكان الشعر وسيلة اعلامية جيدة لتسجيل الانتصارات وبيان ما فيها من ذلك الحس الديني الذي جعل من المعجم الإسلامي قاسما مشتركا بين معظم شعراء العصر ، في مختلف عصور الأدب التي عرضت لها ، فإذا بالبهاء زهير يستوقفه مشهد انتصار الملك الكامل على الإفرنج عند المنصورة فينبري مترجما موقفه قائلا :[20]

بك اهتز عطف الدين في حلل النصر
وردت على أعقابها ملة الكفر
صبرت إلى أن أنزل الله نصره
لذلك قد أحمدت عاقبة الصبر
وليلة نفر للعدو كأنها
بكثرة من أرديته ليلة النحر
وبالليلة قد شرف الله قدرها
ولا غرو أن سميتها ليلة القدر

---

(١٧) سورة الاسراء ٧٢ .   (١٨) سورة آل عمران ٩
(١٩) سورة الواقعة ٤ — ٥ .
(٢٠) ديوان البهاء زهير ٩٩ .

سددت بسبيل البر والبحر عنهم
بسابحة دهم وسابحة غـر
أساطيل ليست فى أساطير من مضى
بكل غراب راح أقنص من صقر
وجيش كمثل الليل هولا وهيبة
وإن زانه ماضيه من أنجم زهر

أضف إلى هـذا أيضا من نفس المنظور الإسلامى ما عرج عليه الشاعر من تأثره بقصة موسى عليه السلام والخضر وهو بصدد عرض صورة الملك الكامل :

أياديه بيض فى الورى موسوية
ولكنها تسعى على قدم الخضر
ومن أجله أضحى المقطم شامخا
ينافس حتى طور سيناء فى القدر

وهو ما يتجاوزه إلى تصوير الملائكة والملأ الأعلى :

فيا ملكا سامى الملائك رفعة
ففي الملأ الأعلى لك أطيب الذكر

ودنا تلح عليه صورة رسول الله ﷺ ، وكأنما تواردت خواطره حول معراجه عليه السلام :

فقل لرسول الله أن سميه
حمى بيضة الإسلام من نوب الدهر

كما يلح عليه الحنين إلى مكة ويبدو سعيدا باسعادها بأنباء النصر :

فمن بلغ هـذا الهناء لمكة
ويثرب تهنيه إلى صاحب القبر

وسرعان ما يستطرد إلى تصوير السلوك الديني لممدوحه والذى أدى به إلى حتمية هذا النصر ، فكان عبدا زاهدا كثير التقى والصلاة :

ورد على المحراب منها صلاته
وكم بات مشتاقا إلى الشفع والوتر
وباتت جنود الله فوق ضوامر
بأوضاحها تغنى السراة عن الفجر
فما زلت حتى أيد الله حزبه
وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر
فرويت منهم ظامىء البيض والقنا
وأشبعت منهم طاوى الذئب والنسر
وجاءت ملوك الأرض نحوك خضعا
تجرر أذيال المهانة والصغر
أتوا ملكا فوق السحاب محله
فمن جوده ذاك السحاب الذى يسرى
فمن عليهم بالأمان تكرما
على الرغم من بيض الصوارم والسمر
كفى الله « دمياط » المخاوف انهـا
لمن قبلة الإسلام فى موضع النحر
وما طاب ماء النيل الا لأنه
يحل محل الريق من ذلك الثغر(٣١)

فإذا هو يستهل الصورة بتشخيص رصد فيه للدين مشهدا وقد اهتز فى حلل النصر ، فى موازاة ما أصاب عالم الكفر من ارتداد أهله على أعقابهم خاسرين ، وهو يرد النصر إلى الله سبحانه الذى أنزله على عبده لما كان من صبره وتجلده ، وإذا هو يستعين بمشهد قرآنى حول عرض صورة تلك الليلة حيث جعلها شبيهة بليلة القدر ،

فى ارتفاع المكانة ، وعلو الشأن من المنظور الدينى ، وما كان ذلك إلا لأن الجند هم جند الله الذين يدافعون عن دينه ، يؤيدهم الله سبحانه لأنهم حزبه « إلا أن حزب الله هم المفلحون » .

ومع كثرة الانتصارات الإسلامية كثرت الصور الحربية ، وازداد فيها عمق الحس الدينى ، وبدا أساسه استيعاب الشعراء للمعجم الإسلامى ، وحرصهم على الصدور عنه فى شعرهم ، على ذلك النحو الذى أداروه حول الحروب المقدسة ، وفيها استهدفوا — كما استهدف الجند — الانتصار للإسلام ، والدفاع عن عقيدة المسلمين فى محاولات بطولية رائعة لاسترداد أراضيهم المقدسة . فعلى نفس النسق نجد ما قاله أمين الدولة محمد بن عبد الله المعروف بسبط بن التعاويذى بمناسبة انتصار صلاح الدين على الصليبيين فى موقعة مرج عيون سنة ٥٧٥ هـ :

ونهضت للإسلام نهضة صادق الـ
عزمات ترأب من نآه وتشعب
وغضبت للدين الحنيف ولم تزل
فى الله ترضى منذ كنت وتغضب
غادرت أهل البغى بين مجدل
لقى الحمام وخائف يترقب[٣٢]

وعلى نفس النهج نتبين ما كان من ابن القيسرانى فى تصويره انتصار نور الدين فى أنطاكية قبل ذلك سنة ٥٤٤ هـ من طموحه إلى تطهير المسجد الأقصى وإشاراته المتكررة إلى ذلك وانتظاره الملهوف له :

فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب
يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وائذن لموجك فى تطهير ساحله
فإنما أنت بحر لجه لجب[٣٣]

---

(٢٢) كتاب الروضتين ١/٥٩ . (٢٣) نفسه ١/٥٩

وكذا ما رددة الشهاب محمود الحلبي في استيلاء الأشرف خليل على عكا سنة ٦٨٩ :

ما بعد عكا وقد لانت عريكتها
لديك شيء تلافيه على تعب
فانهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها
مدت إليك نواصيها بلا نصب

ومن التاريخ الإسلامي أشرقت صور كثيرة حرص شعراء العصر على إحيائها كلما عن لهم موقف نصر للإسلام ، ففي انتصار نور الدين على الإفرنج في موقعة دلوك سنة ٥٤٠ انبرى أحد الشعراء المسلمين مسجلا وقع الفتح على نفسه ، وعلى نفوس المسلمين مستلهما روح التاريخ الإسلامي :

أعدت بعصرك هذا الأنيق فتوح النبي وأعصارها
وكان مهاجرها تابعيك وأنصار رأيك أنصارها
فجددت إسلام سلمانها وعمر جدك عمارها

وكثيرا ما يقرن الشعراء الانتصار بالدين لممدوحيهم ، فكان المعجم الإسلامي هنا مقياس الحكم ، ومحور الموقف الفني ، لتحديد طبيعة الانتصارات ، تناغما مع ذلك الطابع الديني الذى يطرح منه العماد صورة في قوله في نور الدين حين أخذ قلعة « منبج » من صاحبها ابن حسان سنة ٥٦٣ هـ :

فانهض إلى البيت المقدس غازيا
وعلى طرابلس ونابلس عج
قد سرت في الإسلام أحسن سيرة
مأثورة وسلكت أوضح منهج
وجميع ما استقريت من سنن الهدى
جددت منه كل رسم مبهج

---

(٣٤) كتاب الروضتين ١/٧٣ ، معجم الأدباء ٧/١٣ ،

وكأن طرح الانتصار هنا لم يكن إلا قرينا للسيرة الحسنة التى فسار عليها الممنوح فى دينه ، والذود عنه وسلوك المنهج القويم على سنن الهدى الموروثة عن رســول الله ﷺ .

وهكــذا بدا التبارى الفنى ظاهرة عامة لدى الشعراء حــول استحضار تلك المعانى والقيم الاسلامية ، وعرضها فى موضوعات الشعر المتنوعة ، فى عصر بدت فيه المعارك دينية بالدرجة الأولى ، كما احتدت فيه الصراعات شديدة حول الإســلام وأراضيه المقدسة ، وبين أهل الصليب ، وما جاءوا به من وسائل التخريب والدمار ، ومن ثم كانت الفضائل الاسلامية فى الممدوحين من أهم متطلبات المرحلة . ومن أخطــر ما يستلزمه الموقف القتالى ، بحكم الدوافع والسلوك والإعداد ، على ذلك النحو الذى عرضنا له آنفا فى لوحة المديح ، وما عرض له ابن القيسرانى – أيضـــا – فى ذلك المزج بين المدح وتصوير انتصار تاج الدين بورى عند دمشق فى قوله :

قوت الجياد وحصنت البلاد وأمنـ ـت العباد فأنت الحل والحــرم

وفئت فى الجيش والاعــلام خافقــة
بالنصر كل قنــاة فوقها علــم

وسست جندك والرحمن يكلـــؤه
سياســة ما يعفى أثرها نــدم

والنصر دان وخيــل الله مقبلة
ترجو الشهادة فى الهيجا وتغتنم

فغــادروا أكثر القربان وانجفلوا
وخلفوا أكبر الصلبان وانهزموا

هدى العزائم لاما تدعى القضب
وذى المكارم لاما قالت الكتب

وهــذه الهمم اللات متى خطبت
تعثرت خلفها الأشعار والخطب

صافحت يا ابن عماد الدين ذروتها
براحة للمساعى دونها تعب
عمت فتوحك بالعدوى معاقلها
كأن تسليم هذا عند ذا جرب (٢٥)

وقوله :

ولو لم يبشر فى عسكر من جنده
لكان له من نفسه عسكر نجد

فمع عرض هذه الفضائل الاسلامية يتردد حرص ابن القسرانى وغيره على الإفادة الصريحة من التاريخ الإسلامى ، فإذا هو نفسه يذكر يوم بدر وملائكة الرحمن ، وهو بصدد مدح عماد الدين :

لله أية وقعة بدرية
نصرت صحائبها بأيمن صاحب
وأمدكم جيش الملائك نصرة
بكتائب محشوثة بكتائب(٢٦)

ففى اللوحة الأولى يجعل مقومات المشهد قائمة على ما ذكره من الحل والحرم ، والرحمن ، والشهادة وخيل الله ، كأصول الصورة الدينية التى يتقدم فيها الممدوح فى قيادة جنده وخيوله التى تتبارى إلى الاستشهاد فى ساحة الموت ، وما تنبثق عنه سياسته من حزم وتدبير وعزائم وهمم كانت نتيجتها تحقق ذلك النصر الدينى الذى يرفع من مكانة ممدوحة حتى لكأنه بمفرده جيش لجب •

وفى اللوحة الثانية يستمر فى ترديد ما تعاوره الشعراء فى لوحاتهم المدحية حول منطق السبق والتفرد أحيانا ، حين يرصد لكل ممدوح على حدة ، ولكنه هنا يبدو قرينا لدعوة الجهاد والفخر

---

(٢٥) كتاب الروضتين ١/٣٨
(٢٦) كتاب الروضتين ١/٥٨

بما كان من تلبية هـذا الصوت الدينى الذى ردده أسامة بن منقذ فى مدحه لنور الدين أيضا :

أسمعت دعوة الجهـاد قلبا ها مليك بالمكرمات خليـق
ماله عن جهاده الكفر والعد ل وفعل الخيرات شغل يعوق[27]

ومن ثم بدت مبالغات الشـعراء ممزوجة بهذا الحس الدينى كدافع للخروج ، وحافز للاستمرار حتى النصر ، ووسيله للاستبشار على المنهج الذى ردده كثير من الشعراء ومنه ما قيل فى صلاح الدين فى صـور مباشرة :

يا ناصر الإسـلام حين تخـاذلت
عنـه الملوك ومظهـر الايمـان
بك قد أعز الله حـزب جنوده
وأذل حزب الكفـر والطغيان
لمـا رأيت الناس قد أغواهـم الـ
شـيطان بالالحـاد والعصـيان :
جردت سـيفك فى العدى لا رغبة
فى الملك بـل فى طاعة الرحمـن
فضربتهم ضرب الغرائب واضعـا
بالسيف ما رفعوا من الصلبان
وغضبت لله الذى أعطاك فصـ
ل الحكـم غضـبة ثائر حـرّان
فقتلت من صـدق الوغى ووسمت من
نجى الفرار بذلة وهـوان

وهو نفس المنهج التصويرى الذى يتكرر حول صلاح الدين أيضا:

---

(٢٧) كتاب الروضتين ١/١١٧

لازلت ما ملك الإسلام فى نعم
قرينها للسعدان : النصر والظفر
تردى الأعادى وتستصفى ممالكهم
وعونك الماضيان : السيف والقدر
وجاد غيث نداك المسلمين فمن
سحابه المغنيان : الدر والبدر
وسرت سيرة عدل فى الأنام كما
قضى به الصادقان : الشرع والسور

صحيح أنه عمد فيها إلى الصيغة بدا فيها حرصه على التثنية وأسلوب الاجمال والتفصيل ، ولكنه لم يخرج بها عن تلك الحدود الدينية التى صور فيها طبيعة ملك صلاح الدين وما يأتيه من نصر إلهى ، وما يسير عليه من نهج قويم فى نشر العدل بين رعاياه إلى ما يعرضه الشاعر من دعائه الدينى للقائد .

وفى هذا الخضم التصويرى لا يتوقف الشاعر عند حدود عرض الصور بل يبحث فى المعجم الاسلامى عن رصيد قرآنى قد يأخذ منه ما يزيد الصورة وضوحا ويدعمها دعما على نحو ما قاله ابن سناء الملك من وحى التاريخ الاسلامى أيضا فى غزوة بدر ومن وحى الآية الكريمة (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)[٢٨] .

ليقول :

ما هذه الرمية معهودة بالقوس إذ ترمى عن الأسهم
وهى التى فى يوم بدر جرت لما رمى الله بها من رمى[٢٩]

على أن المواقف الفنية للشعراء لم تعرف سبيلا للتوقف أو

---

(٢٨) خريدة القصر (قسم شعراء الشام) جـ١/٥٣٢
(٢٩) سورة الأنفال آية ١٧

الانحصار فى دائرة المدح والثناء على قواد المسلمين ، بل تجاوزتها إلى تلك اليقظة التى بدا فيها الشاعر مترقبا كل خطوة فى الجهاد قد تشد من أزر الدين وتسعد المسلمين ، أو تسبب لهم حزنا وكآبة على نحو ما كان من الملك المعظم عيسى صاحب دمشق حين خرب بيت المقدس خشية استيلاء الفرنج عليه مما أثار سخط المسلمين ونقمتهم ودفع بعض الشعراء الى ذم فعله على نحو مما قاله شهاب الدين أبو يوسف يعقوب بن المجاور مستلهما الطابع الدينى فى الموقف[30].

أعينى لا ترقى من العبرات
صلى فى البكا الآصال بالبكرات

لعل سيول الدمع يطفىء فيضها
توقد ما فى القلب من جمرات

ويا قلب أسعر نار وجدك كلما
خبت بادكار يبعث الحسرات

ويا فم بح بالشجو منك لعله
يروح ما ألقى من الكربات

على المسجد الأقصى الذى جل قدره
على موطن الإخبات والصلوات

على منزل الأملاك والوحى والهدى
على مشهد الابدال والبدلات

على سلم المعراج والصخرة التى
أنافت بما فى الأرض من صخرات

على القبلة الأولى التى اتجهت لها
صلاة البرايا فى اختلاف جهات

وما زال فيه للنبيين معبد

---

(٣٠) ديوان ابن سناء الملك ٢٩٢

يوالون فى أرجـائه السـجدات

لتبك على القـدس البلاد بأسرهـا

وتعلن بالأحـزان والترحـات

لتبك عليهـا مكة فهى أختهـا

وتشكو الذى لاقت إلى عرفات

لتبك على ما حل بالقدس طيبـة

وتشرحه فى أكرم الحجـرات

لقد شتتوا عنها جماعة أهلهـا

وكل اجتماع مؤذن بشـتات(٣١)

إذا يشكل الشاعر أبياته من خلال رصد بكائى يشتد فيه حزنه وأساه ومخاوفه على الإسـلام ومقدسـاته فيذكر الأقصى ويحن إلى مكانته الدينية بين الإخبات والصلوات ، ويستكمل المشاهد بالوحى والهدى ومعراج رسـول الله ﷺ ، والصـخرة ، والقبلة الأولى ومعـابد الأنبياء والسجدات ، والشعائر المقدسـة فى مكة وعرفات مما يطرح من خلاله الشـاعر حنينه ولهفته ومخاوفه إزاءها •

وتبقى من الملاحظات الواضحة حول المؤثرات الإسلامية فى هذه الفترة ما غلب عليها من الطابع الحربى مما أدى بالشعراء إلى عدم الحرج فى المعارضة الشعرية ، وهى معارضة أساسها الحس الدينى مع قدر واضح من الاستقصاء للدوافع والانفعالات ونتائج الحروب، وتتراوح تلك المعارضة على مستوى القصيدة بين الاطالة والقصر مع وضوح التأثر لدى الشعراء بالحس الاسلامى العـام مع ، غلبة الطابع الحماسى والحربى مما وجد سـبيله إلى الانتشـار فى كل الموضوعات مملا أفسـح مجالات طيبة لبروز الطابع الذاتى أيضـا من قبل الشـعراء •

---

(٣١) كتاب الروضتين ٢/٢٠٥

وتتبلور خلاصة القول فى هذا الجانب الحربى فيما طرحه لنا من صورة البطل الإسلامى الذى ينطلق من عالم الفضائل الدينية ، ليجدد صورة البطولات الأول منذ عصر صدر الإسلام ، كما جدد فتوحاته على نحو ما جمعه ابن منير الطرابلسى فى تصوير عماد الدين وقد فتح مدينة الرها ، فراح يشيد بالفتح والبطل من خلال الإسلام والمسلمين من مثل قوله :

صفات مجدك لفظ جل معناه
فلا استرد الذى أعطاكه الله
يا صارما بيمين الله قائمه
وفى أعالى أعادى الله حداه
قل للأعادى : ألا موتوا به كمدا
فالله خيبكم ، والله أعطاه
ملك تنام عن الفحشاء همته
تقى ، وتسهر للمعروف عيناه
على المنابر من أبنائه أرج
مقطوبة بفتيق المسك رياه
فتح أعاد على الإسلام بهجته
فافتر مبسمه واهتز عطفاه
يهذى بمعتصم بالله فتكته
حديثها نسخ الماضى وأنساه
مشمرا وبنو الإسلام فى شغل
عن بدء غرس لهم أثمار عقباه
يا محيى العدل إذ قامت نوادبه
وعامر الجود لما مح مغناه
يا نعمة الله يستصفى المزيد بها
للشاكرين ويستقنى صفاياه
أبقاك للدين والدنيا تحوطهما
من لم يتوجك هذا التاج إلا هو

فهو يضع أمامنا صورة البطل الإسلامى فى قوته وعنفه وبأسه مما يميت أعداءه إلى جانب تقواه وتجنبه الفواحش وسهره المعروف وإحيائه العدل مما يدفع بالشاعر إلى تسجيل فخر المسلمين به حين يعرج على ما أحرزه من فتوحات ليختم حواره بالدعاء الدينى له .

ويتردد لهذا المشهد البطولى نظير يعرضه ابن القيسرانى على درجة من التركيز والإيجاز حين يقول فى تسجيل انتصارات نور الدين محمود من خلال ملامح بطولته التى ترفعه إلى مصاف كبار القادة وأئمة الإسلام وخلفائه وأوليائه وأتقيائه فى قوله :

ذو الجهادين : من عدو ونفس
فهو طول الحياة فى هيجاء

قد هديت الملوك للعدل لما
سرت فى الناس سيرة الخلفاء

قاسما ما ملكت فى الناس حتى
لقسمت التقى على الأتقياء

أنت حينا تقاس بالأسد الور
د وحينا تعد فى الأولياء

رأفة فى شهامة وعفاف
فى اقتدار وسطوة فى حياء

وجمال ممنطق بجلال
وكمال متوج ببهاء

أعجب الناس منك أنك فى الحر
ب شهاب الكتيبة الشهباء

وكأن السيوف من عزمك الما
ضى أفادت ما عندها من مضاء

ولعمرى لو استطاع فداك الـ
قوم بالأمهات والآباء

إذا يبدو البطل لديه نموذجا يحتذى على المستوى الدينى فهو يجاهد عدوه كما يجاهد نفسه فلا تراه إلا بطلا محاربا فى ميادين القتال ، أو ميادين الشهوات : حتى ليبدو هاديا لكل الملوك حين استعاد سير الخلفاء وملك ناصية التقى والورع إلى جانب الشجاعة والبأس والفصاحة والجلال والكمال حتى استحق أن يختم أبياته فيه بأن يجعل القوم له فداء .

فإذا خرجنا من دائرة الحروب والبطولات ظل صدى المؤثر الدينى شديد التردد لدى شعراء العصر بحكم الموضوعات الأخرى التى نظما على نحو ما أنتجته قرائحهم ، وتنافسوا فيه فى مدائحهم لرسول الله ﷺ على طريقة البوصيرى فى هزيته الطويلة وقد تجاوزت أربعمائة وستين بيتا استهلها بأبياته المشهورة شهرة القصيدة كلها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء

لم يساووك فى علاك وقد حا
ل سنا منك دونهم وسناء

إنما مثلوا صفاتك للنا
س كما مثل النجوم الماء

إلى جانب غيرها من مدائحه المشهورة على منهج لاميته فى معارضته بانت سعاد وغيرها لديه ولدى غيره من شعراء المدح النبوى ، مما اتسق مع شاعر المجتمع الإسلامى بعنف المعركة بين الإسلام وأهل الكفر فاندفع الشعراء بهذا الحنين إلى المعجم الإسلامى فى المدائح النبوية يجدون فيه ملاذهم ومادتهم الروحية ، ففيها يجدون فرحة النصر كما يجدون النجدة من مخاوف الهزيمة أو الاستنجاد من صورتها المفزعة التى تعرضها الصورة القاتمة حين يرسمها الشاعر :

أحل الكفر بالاسلام ضيما
يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح
وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليبا
ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديرا
على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق
وتحريق المصاحف فيه طيب
أمور لو تأملهن طفل
لطفل فى عوارضه المشيب
أتسبى المسلمات بكل ثغر
وعيش المسلمين إذا يطيب
أما لله والإسلام حق
يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوى البصائر حيث كانوا
أجيبوا الله ويحكم أجيبوا

ففى مثل هذا الواقع الأليم ترى المسلمين يضرعون إلى الله لتفريج الكرب حتى إذا ما تحقق النصر برزت لديهم صور الشكر التى رسمها الشعراء وجميعها بدت انطلاقا من المعجم الإسلامى استكمالا لمعركة الإسلام مع الكفر وارتباطا بها .

ومن هنا تحول العصر إلى عصر للمدائح النبوية والمعارضات فى هذا الإطار الدينى ، حتى لتنتظم فيها دواوين كاملة على نحو ما صنع شهاب الدين محمود فى « أهنى المنائح وأسنى المدائح » و « بشرى اللبيب بذكر الحبيب » لابن سيد الناس العمرى ، وغالبا

ما سارت هــذه الدواوين على لغة التخصص فى المدائح بما يشيع فيها من الوعظ والارشاد الدينى ممزوجا بالتعريض بالديانات الأخرى لينطلق المــادح إلى الفخر بالأمة الإسلامية ومدح أبطالها إلى جانب تخصيص المديح بشخص رســول الله ﷺ وتناول معجزاته وإسرائه ومعراجه وجهاده فى سبيل دينه على منهج شــهاب الدين محمود فى قوله :

حملتك آمنة الحصــان فلم تجــد
عبئــا كعبء الحاملات ثقيــلا

وولــدت مختونــا وذلك آيــة
لا تقبــل التأويل والتعليــلا

ورأت لك الأحبــار والرهبــان فى
التوراة وصــفا طابق الإنجيــلا

واستبشروا بك إذا ظهرت وبشروا
إلا قليــلا حرفــوا ما قيــلا

واسترضعتك حليمة فرأت من الـــ
بركات ما أغنى أخا وخليــلا

وبيمن وجهك صد خالقك العــدا
عن بيت كعبته ورد الفيــلا

ولقد رأى الغلمان جبريل الذى
شــق الفؤاد ورده مغســـولا

ونشــأت يستسقى بغرتك الحيــا
وفضلت بالصدق الورى تفضيلا

ورأى بجير ركب مكة فوقهم
ظل الغمــامة يشــبه الإكليــلا

وأضافهم ليرى الغمامة فوق من
نشــأت ويســبر وضعه المنقولا

ورآك والأشــجار حولك ســجدا
لك حيث ملت تفيأت تمييــلا
وجلاك أوصــافا وشــاهد خاتما
لك ثــم فاز بلثمــه تقبيـــلا
وأســر للعــم الجليــل بأن لاب
ن أخيك شــأنا فى الوجود جليــلا
فاحــذر عليه من اليهود فإنهم
إن يقدروا يوما عليه اغتيـــلا

وإلى جانب هــذه الكثافة فى حس الشاعر إزاء المعجم الإسلامى تنطلق مادة الصوفية قريبا منه أيضــا خاصة حين يزداد انتشــار فرق الصوفية وقد اهتم بهم صلاح الدين حين أنشــأ لهم الزوايا والخوانق فكثرت لديهم المؤثرات من قبل محيى الدين بن عربى وظهر بمصر آنذاك ابن الفارض ، كما ظهر ابن الكيزانى وكان شاعرا صوفيا بمصر شغله الحدكث عن الحب الإلهى على طريقة رابعة العدوية وهو الاتجاه الذى تردد فى شــعر ذى النون المصرى ، وفيه برزت العاطفة الدينة واضحة ، كما بدت قريبة من المعجم الإسلامى طالمــا ظلت قريبة من عالم الزهاد على نحو الحث على الزهد وضرورة مجاهدة النفس فى قول الشاعر :

جهــاد النفس مفترض فخذهــا
بآداب القنــاعة والزهـــادة
فإن جنحت لذلك واستجابت
وخالفت الهــوى فهــو الإرادة
وإن جمحت بها الشهوات فاكبح
شــكيمتها بمعمعة العبـــادة
عســـاك تحلهــا درج المعــالى
وترفعهــا إلى رتب الســعادة

أو الدعـوة الدائمة إلى الورع وتقـوى الله فى ذلك السلوك الدينى القـويم :

النفس أكـرم موضـعا من أن تدنس بالذنـوب
ما لـذة الدنيـا لهـا ثمنـا وإن مزجت بطيب
فاسـبق إلى إعـداد زا دك هجمـة الأجـل القـريب
والـق الإله علـى التقـى والخـوف مزرور الجيـوب

ويظل الفرق فاصلا بين هـذه المعانى فى عالم الزهاد والمتصوفة وبين انصراف الصوفية إلى مصطلحاتهم الخاصـة التى مثلت معجما لها متميزا شغلتهم فيه وحـدة الوجود ، أو العاطفة المعلقة بالرمز والاشارة أو نظرية النور المحمدى أو فكرة الإمام والقطب أو العلم الباطن أو القول بالنبوة الروحية أو الأدوار أو المشاهدة الإلهيـة أو الفناء والاتحاد مع الذات الإلهية ، إلى غير ذلك مما يمس معجم الصوفية بكل سماته وملامحه الخاصـة .

وبذا يظل الطابع الغالب على المعجم الإسلامى إلى عصر الحروب الصليبية بارزا من خلال تلك العاطفة الدينية المشبوهة وهى تعكس مشاعر المسلمين إزاء الأحداث الكبار من حولهم وتصورها من خلال المادة الإسلامية التى تمتد إلى معانى الآيات القرآنية الكريمة إلى القصص القرآنى وغير ذلك من منطق الحس الإسلامى العام الذى تدفق فى نفوس شـعراء العصر جميعا إزاء معركة الإسـلام مع الشرك .

* * *

خاتمة

ويظل خط التطور واضحا بما يسم المعجم الإسلامى فى كل عصر على حدة بسمات محددة مثلت طابعا خاصا به ، وقاسما مشتركا بين شعرائه لتظل هذه الملامح فى مجملها بمثابة رصد لتطور حركة الفكر فى المجتمع العربى منذ بدت بسيطة غير مذهبية ، فكانت إزاء وضوح المصدر وبيانه دعوة إلى نشر العقيدة والدفاع عنها ، وتسجيل غزوات رسول الله ﷺ ، وتوظيف الموضوعات التقليدية بما يخدم الدعوة فى أبواب الهجاء أو الرثاء أو المدح أو ما أضيف إليها من موضوعات جديدة فى اطار الذهد والدعوة إلى الإسلام والوعظ والارشاد ، إذ تظل دواوين شعراء العصر شاهدا أمينا على كثافة التأثير من هذه الزاوية وهو ما انعكس بدوره فى طبيعة الإفادة من المادة الإسلامية بلا مواراة ولا تحول ، فإذا بالشاعر ينزع مباشرة إلى مصدره القرآنى أو الحديثى لينتزع منه معنى يضمنه شعره أو اقتباسا يتناوله ، أو يتخذ من السنة الفعلية مادة يزين بها شعره ويتخذها محورا من محاور معجمه .

أضف إلى هذا أن معجم هذا الجيل بدا مرهونا بسلوك معين لم يشأ الشاعر المسلم تجاوزه فكان يرهن فلسفة لسانه برد العدوان لا المبادأة به ، وكأنه حين يهدد ويتوعد فهو يتمنى فى أعماقه ألا تفتح نيران المعركة بينه وبين خصومه على لغة حسان فى قوله فى خاتم هجائيته الهمزية لأبى سفيان :

لسانى صارم لا عيب فيه ... وبحرى لا تكدره الدلاء

أما وأن المعركة الهجائية قد تقع من خلال الخصم البادىء بالعدوان ، فلا يبقى ثمة مجال للتردد للشاعر المسلم الذى التزم فى حدود الخلق الإسلامى بهذا الرد وذلك التنبى للموقف الدينى

حتى لو بدا هجائيا على الضرورة طالما افتقد عنصر المبادأة وهو ما رصده قول حسان أيضا لأبى سفيان وكأنه يحمله تبعه ما سيلقاه من هجائه خاصة أنه لا ينظر ثوابا عليه ولا شكورا إلا من خالقه لا من ممدوحه ﷺ :

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

وبذا بدت الروح الإسلامية واضحة وضوح الأحكام الشرعية ، صافية صفاء المصدر الذى نأى بها عن الفلسفة أو التعقيد أو الصراع والانقسام الذى طغى على فكر الشعراء فى عصر بنى أمية . وهو ما مثل ضربا من الإضافة والتغاير يتسق مع إيقاع العصر الجديد؛ إذ بدا المعجم شديد الاتساق بفكر الشاعر ومنهج تعبيره ولغة عصره التى شهدت قسمة واضحة إلى ثمان من الفرق على المستويين الدينى والسياسى ، وكلا الاتجاهيين يأخذ من المعجم الإسلامى بما يعنى بحاجاته من الإقناع والبراهين ، ولا تكاد كلمة سياسى هنا تحجب شيئا من حجم المؤثر الإسلامى الذى سعى شعراء الأحزاب إلى توظيفه فى الإقناع بنظريات أحزابهم على نحو ما صنع شعراء السنية أو الخوارج أو الزيديين ، إلى جانب شعراء الحزب الأموى الحاكم .

وتعكس الصورة التعددية المتصارعة الفكر أبعادها على جماليات الصياغة لدى الشعراء إذ يبدو المعجم الإسلامى شديد الدلالة على رغبة الشاعر فى اجتذاب جمهوره وإقناعه والسيطرة على مشاعره ، فى مقابل ذلك الالتزام الحضارى الذى يشبع من خلاله حسه التجديدى الذى يصور انعكاسات الحياة الجديدة على مشاعره ووجدانه من ناحية ؛ وعلى فكره وعقله من ناحية أخرى .

وهنا تتقارب صورة المعجم ومادته مع معجم شعراء عصر صدر الإسلام و تختلف عنها أيضا ، إذ لا يكاد التقارب يتجاوز وحدة

المصادر التى ينهل منها الشعراء ، حتى إذا ما شغلوا بإيقاع الحياة الجديدة طوعوا المادة الموروثة إلى حيث يشاءون ، وأولوا الآيات القرآنية بما يتسق والمذهب أو النظرية التى ينتمون إليها على أى من المستويات السياسية أو الدينية ؛ وكان هذا منطق الشاعر الشيعى مثلا أو الزبيرى فى التزامه بقضايا حزبه ، وكذا شاعر الفرقة الدينية سواء أنطلق من عباءة فرقته صراحة ، أو توقف بشعره عند مجرد التأثر بأفكارها بين أرجاء وجبر واعتزال وقدرية ، إذ تظل السمات الفارقة بين الشعراء واردة حول تناولهم لهذا الفكر المذهبى فى الترويج له كفكر ؛ وبين توظيفه المعتمد فى خدمة النظرية السياسية خاصة من عمد من شعراء الخلافة إلى الترويج لمذهب الجبرية لا لمجرد اقتناعه به ؛ أو تبرير مسلكه ، تلك لتبرير حتمية الحكم فى البيت الحاكم وشخص الخليفة الممدوح ، وهو ضرب من التأويل المقصود لذاته من قبل الشاعر دعما لموقفه أو لنظريته السياسية.

من هنا غلب على المعجم الإسلامى لدى الشعراء هذا الاتجاه إلى ضروب من زحام المادة ، تعكس — بدورها — زحام الفكر ، وصيغ الجدل ، وصراعات المذاهب ، وتنافر الأفكار ، وانقسام الشعراء ، بل حتى انقسام الشاعر الواحد على نفسه ، وربما الاعتراف بذلك على طريقة شعراء الشيعة فى الأخذ بالتقية أمام السلطان ، أو حتى تحول بعض الشعراء بين المذاهب إذا أخذنا بتحول كثير حينا إلى بلاط الخلافة رغم تشيعه ، وكذا عبيد الله بن قيس الرقيات إلى الخليفة رغم زبيريته ، أو تحول الفرزدق حينا إلى التشيع على الرغم من أمويته السياسية .

وبذا يبدو المعجم الإسلامى بمثابة كشف دقيق عن إيقاع الحياة الأموية سواء فيما تعلق بالاضافات التى صنعها الشعراء حول الموضوعات القديمة حتى تحول شعر المدح إلى مدح وسياسة أو إلى شعر سياسى ، وتحول الهجاء إلى نقائض وتحول الغزل من مجرد

مقدمات إلى قصائد كاملة ودواوين متخصصة فيه لا تكاد تتجاوزه ، ومعهـا تتدفع عناصر التجديد بما يشف عن طبيعة الحيـاة الأموية حضاريا وسياسيا وفكريا وهو ما احتواه تحول المعجم لدى الشعراء .

وإذا بمنطقة التكفير والاتهام الدينى تتزاحم وتتكثف فى قصائد الشـعراء فى ظل الصراعات الدامية بين الفرق السياسية أو الدينية ، وإذا هـذه الكثافة تزداد دلالة وعمقا مع تبلـور مدرسـة الزهد الإسـلامى التى برع زعماؤها فى التأصيل لها حتى انقسم عليهم فريق من تلاميذهم على نحو ما كان من موقف واصل بن عطاء من مجلس الحسن البصرى وبداية تبلور مذهب المعتزلة .

وتبدو سـمة المرونة والتطور أساساً فى رؤية هـذا المعجم على مدار تطور الحركة الأدبية ذاتها ، فإذا بشعراء العصر العباسى ينهلون منه فى أطر أخرى متميزة تميز العصر ذاته ، خاصـة منه ما عرض فى إطار الحروب والمعارك على مناطق الثغور الإسـلامية والتى أحالها الشـعراء إلى صراعات بين الإسـلام والشرك ، وحولها حقق الشـعراء كثافة ملحوظة للمـادة الإسـلامية المطـروحة فى شـعرهم ، صحيح أن المصادر ظلت متشابهة لا خلاف فى ذلك ــ فالشـعائر هى الشـعائر ، والعبادات هى العبادات ، ولكن توظيف المـادة المتضمنة هو الذى سيتحول فى أصـول المعالجة بما يكفى لتغطية الأحداث الجسام على المستوى السياسى فى صراع المسلمين مع الروم بصفة خاصـة ، وكأنه التوظيف البديل لصراعات الأحزاب فى الجيل السـابق . فإذا ما انتقلت إلى المستوى الفكرى والدينى تراءت لنا أصداء المعالجة مختلفة لدى الشـعراء حول مواكبة تيارات الحضارة بما يكفى للترويج لمذهب ما فى ظلالها ، على غرار ما كان لدى المرجئة بصفة خاصـة حين أحالوا مذهبهم إلى صورة اجتماعية أخلاقية أكثر من استمراريتها فى إطارها الدينى ، فقد تحول أصحاب المذهب به إلى إباحة ضروب من الفوضى الأخلاقية تحت مسـمى

الإرجاء أو العفوية أو تأويل الآيات القرآنية ؛ ومن هنا كثر أتباعه من الشعراء ، وهم أكثر فئات المجتمع ميلا إلى هذا الانحلال الأخلاقى الذى أشبعوا من خلاله تجاربهم تصويرا وعرضا .

وتبقى اللغة الحماسية أساسا بارزا فى حركة الشعر ، أو حتى فى تصانيف الشعراء فى الحماسات بمثابة سمة جديدة تطرح نفسها على العصر وشعرائه ومعجمه جميعا ، وهى اللغة المنقولة بعد ذلك بحكم التأثر وامتداد الفن إلى شعراء الحروب الصليبية من عارضوا الشعراء العباسيين طبقا لتشابه الأطر الحربية فى المعارك التى طال مداها وتعددت أبياتها بين المجتمع الإسلامى فى مصر والشام وبين الصليبيين ، الأمر الذى انعكس فى معجم الشعراء لذلك العصر ، وامتد تأثيرها فيما بعده لدى شعراء المدائح الأموية بصفة خاصة .

* * *



مصادر ومراجع

١ ــ الآمدى : الموازنة بين الطائيين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٠

٢ ــ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧

٣ ــ الأخطل : شــعر الأخطل ، تحقيق فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٩

٤ ــ أسامة بن منقذ : ديوانه تحقيق أحمد أحمد بدوى وحامد عبد الحميد ، نشر وزارة المعارف ، مصر ١٩٥٣

٥ ــ البحترى : ديوانه تحقيق حسن كامل الصيرفى ، المعارف ، القاهرة ١٩٧٢

٦ ــ بشار بن برد :ديوانه شرح محمد الطاهر بن عاشور ، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٥٠

٧ ــ البغدادى : الفرق بين الفرق ، القاهرة ١٣٢٨هـ .

٨ ــ البهاء زهير : ديوانه ، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم وطاهر الجبلاوى ، دار المعارف ، القاهرة

٩ ــ أبو تمــام : ديوانه ، تحقيق محمــد عبــده عــزام ، دار المعارف ، القاهرة .

١٠ ــ الثعالبى : يتيمة الدهر ت محمــد مفيد قميحة ، دار الكتب ، بيروت ١٩٨٣

١١ ــ الجاحظ : البيان والتبين ، تحقيق عبد الســلام هارون ، القاهرة ١٩٧٥

١٢ — جزيرة : ديوانه ، تحقيق نعمان طــه ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩

١٣ — جميل : ديوانه تحقيق حسين نصار ، نهضة مصر ١٩٦٧

١٤ — حسان بن ثابت : ديوانه تحقيق سيد حنفى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣

١٥ — الحطيئة : ديوانه ، تحقيق نعمان طــه ، القاهرة ١٩٥٨

١٦ — الخالديان : الأشباه والنظائر من أشــعار المتقدمين فى الجاهلية والمخضرمين ت محمد السيد يوسف ، لجنة التأليف ١٩٥٨

١٧ — ابن خلدون : المقــدمة ، دار القلم — بيروت ١٩٨٦

١٨ — الراعى النميرى : ديوانه ، جمع وتحقيق رانيهرت قايبرت بيروت ١٩٨٠

١٩ — ابن الساعاتى : ديوانه ، تحقيق ونشر أنيس المقدس ، بيروت ، الجامعة الأمريكية ١٩٣٨

٢٠ — ابن سناء الملك : ديوانه ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٦٩

٢١ — السيد الحميرى : ديوانه ، دار صادر — بيروت .

٢٢ — الشريف الرضى : ديوانه ، دار صادر — بيروت .

٢٣ — الشهرستانى : الملل والنحل ، تخريج محمد بن فتح الله بدران ، الأنجلو المصرية ١٩٥٦

٢٤ — أبو الشيص : ديوانه ، دار صادر — بيروت .

٢٥ — الصنوبرى : ديوانه ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .

٢٦ ــ الطرماح : ديوانه ، تحقيق كرنكو ــ لندن ١٩٢٧

٢٧ ــ عبد الله رواحة : ديوانه ، د • ت •

٢٨ ــ ابن عبــد ربه : العقد الفريد ت محمــد مفيد قميحة ، دار الكتب ١٩٨٧

٢٩ ــ أبو العتاهية : ديوانه ، دار الكتب العلمية ــ بيروت •

٣٠ ــ أبو على القالى : الأمالى ، مراجعة لجنة إحياء التراث ، دار الآفاق ١٩٨٧

٣١ ــ العماد الأصفهانى : خريدة القصر وجريدة أهل العصر ، تحقيق أحمــد أمين وآخرين ، لجنــة التأليف والترجمــة والنشر ، القاهرة ١٩٥٢

٣٢ ــ عمر بن أبى ربيعة : ديوان عمر ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميــد ، دار الأندلس •

٣٣ ــ الفرزدق : ديوانه ، جمع وتعليق عبد الله الأنصارى ، المكتبة التجارية ١٩٣٦ •

٣٤ ــ ابن قتيبة : عيون الأخبــار ، دار الكتب العلميــة ، بيروت ١٩٨٦

٣٥ ــ ابن قتيبة : تاريخ الخلفــاء أو السيــاسة والإمامة ، مؤسسة الوفاء •

٣٦ ــ ابن قيس الرقيات : ديوانه ، تحقيق محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت •

٣٧ ــ كثير بن أحمد الخزاعى : ديوانه ، نشر بيرس ــ الجزائر •

٣٨ ــ كعب بن مالك الأنصارى : ديوانه ، د • ت •

٣٩ ــ الكميت بن زيد الأسدى : الهاشميات ، نشر هوروفتز ، ليــدن ١٩٠٨

٤٠ ـ المبرد : الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم والسيد شحاته ، نهضة مصر ، القاهرة .

٤١ ـ المتنبي : ديوانه ، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي ـ بيروت ١٩٧٠

٤٢ ـ مروان بن أبي حفصة : ديوانه ، د . ت .

٤٣ ـ المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق يوسف داغر ، بيروت ١٩٧٣

٤٤ ـ مسلم بن الوليد : ديوانه تحقيق سامي الدهان ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩

٤٥ ـ المقدسي : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، دار الجيل ، بيروت د.ت .

٤٦ ـ نصر بن مزاحم : وقعة صفين ، دار إحياء الكتب العربية ، الحلبي ، القاهرة ١٣٦٥ هـ .

٤٧ ـ أبو نواس : ديوانه تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ، بيروت ١٩٥٣

٤٨ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ، تقديم طه عبد الرؤوف سعد ، مطبعة ابن شقرون .

٤٩ ـ أبو هلال العسكري : ديوان المعاني ، القدسي ، القاهرة .

٥٠ ـ ياقوت : معجم الأدباء ، بيروت ١٩٨٦

٥١ ـ د/إبراهيم عبد الرحمن وعفت الشرقاوي : دراسات عربية (الشعر ، القصة ، التاريخ) مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٧٧

٥٢ ـ د/أبو الوفا التفتازاني : مدخل إلى التصوف الإسلامي ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٨٨

٥٣ ــ د/أحمد أحمد بدوى : الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، نهضة مصر ١٩٧٩

٥٤ ــ د/أحمد أحمد بدوى : البحتــرى ، دار المعــارف القاهرة ١٩٧٠

٥٥ ــ أحمد أمين : الصعلكة والفتوة فى الإسلام ــ المعارف .

٥٦ ــ أحمد أمين : فيض الخاطر ، النهضة المصرية ، د . ت

٥٧ ــ د/بهى الدين زيان : الغــزالى ولمحات الحياة الفكرية الإســلامية ، نهضة مصر ١٩٨٥

٥٨ ــ أبو الحسن الندوى : السيرة النبوية ، دار الشروق ١٩٨٣

٥٩ ــ د/خليل شرف الدين : أبو العتاهية ، دار مكتبة الهلال . بيروت .

٦٠ ــ د/سعود محمد عبد الجابر : شعر الزبرقان بن بدر وعمرو ابن الأهتم ، مؤسسة الرســالة ١٩٨٧

٦١ ــ د/سعيد حسين منصور : حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام ، دار القلم ، الكويت ١٩٨١

٦٢ ــ د/سهيل زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر ، بيروت ١٩٧٣

٦٣ ــ د/السيد تقى الدين : الأدب والحضارة ، نهضة مصر ، الفجالة .

٦٤ ــ د/السيد عبد القادر عويضة : أثر الإسلام فى الشعر فى عصر الرسول والراشدين ، مطبعة الأمانة ١٩٨٧

٦٥ ــ د/زكى مبارك : المدائح النبــوية فى الأدب العربى ، الشعب ١٩٧١

٦٦ — د/زكى المحاسنى : شعر الحرب فى أدب العرب ، دار المعارف ١٩٧٠

٦٧ — عباس العقاد : مجموعة أعلام الشعر ، دار الكتاب العربى — بيروت ١٩٧٠

٦٨ — عباس العقاد : الحسن بن هانىء ، الهلال .

٦٩ — د/عبد الستار السيد متولى : أدب الزهد فى العصر العباسى ، نشأته وتطوره وأشهر رجاله ، الهيئة المصرية العامة ١٩٨٤

٧٠ — د/عبد الرحمن إبراهيم : دور الشعر فى معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول ﷺ ، الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر .

٧١ — د/عبد العليم حفنى : الشعراء المخضرمون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .

٧٢ — د/عبد المنعم أحمد يونس : كعب بن مالك الأنصارى ، الأمانة ١٩٨٦

٧٣ — د/فلهوزن : تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية ، ترجمة محمد عبد الهادى أبى ريدة ، سلسلة الألف كتاب ، القاهرة .

٧٤ — كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ت نبيه فارس ومنير البعلبكى ، دار العلم ١٩٤٨

٧٥ — كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ت عبد الحليم النجار ، المعارف .

٧٦ — محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر الأيوبى ، دار المعارف ١٩٦٨

٧٧ — د/مؤيد فاضل ملا رشيد : شبهات حول العصر العباسى الأول ، دار الوفاء ١٩٨٦

٧٨ ــ د/محمد زكى العشماوى : موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى ، النهضة العربية ــ بيروت ١٩٨١

٧٩ ــ د/محمد سيد كيلانى : الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام طرابلس ــ ١٩٨٤

٨٠ ــ محمد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

٨١ ــ د/محمد عبد العزيز الكفراوى : أسطورة الزهد عند أبى العتاهية ، نهضة مصر ١٩٧٢

٨٢ ــ د/محمد على الهرفى : شعر الجهاد فى الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، الشركة المتحدة للتوزيع ، سوريا .

٨٤ ــ د/محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، دار الفكر ، القاهرة .

٨٥ ــ محمد محمود على : الإسلام والحضارة العربية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٩

٨٦ ــ د/محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الإسلام ، الهيئة المصرية ١٩٧٠

٨٧ ــ د/محمد مصطفى حلمى : ابن الفارض سلطان العاشقين ، المؤسسة المصرية ١٩٦٣

٨٨ ــ د/ نورى القيسى : شعراء إسلاميون ، النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١

* * *

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٩/٤٩٨٣


Bibliotheca Alexandrina
0300802